

میشال زرفاگو

طغامة الكبری

www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^

دار الروائع

سببه للكاتب الشهير طه انيسون عبده أن عرّيب هذه
الرواية ولكن في اختصار كثير ، فرأيت دار الروائع التي
نشر هذه المجموعة الكاملة لروايات ميشال زيفاكو أن تعيد
ترجمة هذه الرواية الرائعة بنصها الكامل كما وضعها المؤلف ،
فدفعتم بالأصل الفرنسي إلى أحد كبار الكتاب فترجمها كاملة .
إذن فهذه هي المرة الأولى التي يصدر فيها بالعربية
النص الكامل لرواية :

المغامرة الكبرى

فاقرأ هذه الرواية المدهشة وأضفها إلى ما لديك
من روايات زيفاكو التي أخرجتها لك " دار الروائع "
كاملة لأول مرة بالعربية في أبهى صيغة وأصدق ترجمة
وأجمل إخراج .

وانتظر ما سوف يصدر قريباً عن الدار نفسها من
تمة روايات زيفاكو في :

المجموعة الكاملة

ليل ١٠ أيار عام ١٥٦٥

*

لا بد لعشاق روايات ميشال زيفاكو ، التي انفردت « دار الروائع » بترجمتها ونشرها بمجموعة كاملة ، وبالنص الكامل ، من أن يراعوا التسلسل التاريخي في حوادث هذه الروايات الشيقة ، والظروف الزمانية لابطالها الذين يبرز عدد كبير منهم في روايات عدة ، وذلك لامتلاء تلك العصور بغرائب الاحداث وعجائب الاخبار مما يجعل البطل الواحد يعيش سلسلة من المغامرات المدهشة تبدأ منذ ولادته ولا تنتهي الا بانتهاء حياته ، وقد تستمر باستمرار أبنائه .

وعلى هذا فمن المستحسن ، قبل الشروع في قراءة هذه الرواية ، الاطلاع على روايتي « باردليان » و « حب و حرب » الصادرتين عن « دار الروائع » بالنص الكامل ، فذلك أنفع وأمتع ، وأدعى الى معرفة العصور المتوسطة بكافة أحوالها ومدى مدهاشتها معرفة تقوم على متابعة الامور وفق سير التاريخ عصراً فعصراً .

*

كان منزل الأستاذ لوران ديزار شيل جميل المنظر رائع الهندسة يُعَدُّ بحقّ أفخم وأغنى بيوت منطقة إيل أدام حيث كان آل ديزار شيل يتوارثون ، ولدأ عن والد ، وظيفته الكاتب العدل الشريفة الخفيفة .

وكان الأستاذ لوران ديزار شيل كهلاً قوياً البنية في الخمسين

من عمره ، أرملة لا أولاد له ، وقوراً رصين الطباع على ما يليق
برجل قانوني يعرف قيمة نفسه ويلسجم مع زي الوظيفة الرسمي
الذي يرتديه ، وكان يعيش في منزله محاطاً باحترام الخاص والعام .
وكان يصرف نهاره في الإشراف على مساعديه وهم يحررون
مختلف المعاملات القانونية من عقود ووكالات ووصيات تشمل
مقاطعة إيل دي فرانس كلها إذ أن جميع النبلاء والأغنياء
والعامّة في تلك المقاطعة كانوا يقدرّون خبرة الأستاذ القانونية
وسعة اطلاعه المهني ونبل طباعه وأخلاقه تقديراً بعيد المدى إلى
حدّ أن الأمير دي مونكاييه وهو أعظم سيّد في تلك المقاطعة
يجري في عروقه الدم الملكي ويناديه صاحب الجلالة شارل التاسع
ملك فرنسا بابن عمه ، كان يشرفه بصداقة قديمة وثيقة ويمتدح
فضائله وخبرته في كلّ مناسبة ، كما أن السيّد آن دي مونغورانسي ،
القائد الأعلى لجميع قوآت المملكة سابقاً وسيّد بارونية إيل أدام
حالياً ، كان يظهر له ودّاً واحتراماً ليس من عادته أن يظهرهما
لأحد من الناس .
وفي المساء كان مساعده الأستاذ ينصرفون إلى منازلهم ويلبث
هذا مع خادمته الوحيدة وموظّف شاب كان يقيم عنده إقامة
دائمة ويولّيه الكاتب العدل ثقته المطلقة فضلاً عن أنّه يحبّه
ويعامله كما لو كان ابنه .
وفي مساء ذلك اليوم ، العاشر من أيار عام ١٥٦٥ ، أقفل
الأستاذ ديزارثيل بنفسه ، على عادته دائماً ، جميع الأبواب
الخارجية وتأكّد بنظرة أخيرة من أنّ كلّ شيء على ما يرام ،

ولطف الكلبين الكبيرين الذين كانا يقفزان حواليه كأنّهما يقولان
له : « لا تخش شيئاً فنحن ساهران جيّداً » ثم دخل منزله وأقفل
الباب بالعناية نفسها التي أقفل بها الأبواب الخارجية .

ولمّا وصل إلى قاعة منخفضة السقف مجهزة بخزائن ورفوف
تمتدّ على طول الجدران وقد رُصفت فيها الملفات المختلفة وفتق
أرقام متسلسلة ووصفت في وسطها الطاولات والمقاعد ، وكانت
القاعة التي يشتغل فيها المساعدون ، رأى رجلاً يجلس إلى إحدى
الطاولات وهو يكتب على ضوء مصباح داخن فاقترّب الأستاذ
منه ولمس كتفه وقال له بتأنيب لطيف :

— لماذا تشتغل إلى هذا الوقت المتأخّر يا غاسبار ؟ إنّ يومك
كان حافلاً بالعمل يا ولدي وقد قلت لك إنّي لا أريد أن تجهد
نفسك هكذا في خدمتي .

فرفع الرجل الذي نودي باسم غاسبار رأسه فإذا هو شابّ
في حوالي الخامسة والعشرين من العمر جميل الوجه تلوح في عينيه
دلائل ذكاه حادّ وأجاب قائلاً : لم أزد أن أذهب إلى النوم قبل
إتمام نسخ هذه المعاملات وسأنتهي من ذلك في وقت قريب أيّها
الأستاذ .

فانحنى الأستاذ على عادته ، وتفحص ما يفعله الشابّ وكان
هذا ينظر إليه وهو يتسم ابتسامة غريبة مقلقة لم يرها سيّد
الذي عاد فانتصب قائلاً : حسن ، ولكنني أعرفك جيّداً يا
بنيّاكل ، فلا تبدأ بنسخة جديدة بعد أن تنتهي من هذه .
فضحك غاسبار بيناكل وقال ببساطة : إنّي لا أستغل كثيراً

أيها الأستاذ ، لا سيّما وأنتها الطريقة الوحيدة التي أستطيع أن
أعتبر بها عن امتناني وشكري لما تبديه نحوي من الكرم والمروءة .
وكانت ضحكة غاسبار غامضة بعض الشيء ، فضلا عن أنّ
اللهجة التي قال بها هذا القول كان يشوبها بعض السخرية ، ولكنّ
الأستاذ الطيّب القلب لم يلاحظ شيئا من ذلك بل قال بكلّ ما
في نفسه الكريمة من الإخلاص :

- لست مدينا لي بشيء يا ولدي لأنّ الخبز الذي تأكله
عندي تربحه بشرف وكفاءة وأنا المدين لك في الواقع . أمّا ما
تقوله عن الكرم والمروءة فإنّك تبالغ فيه ، ولو قلت إنّها
عواطف أبوية لكان ذلك أفضل .

فقال بنياكل : إنّها عواطف أبادلك إيّاها بكلّ قواي .
- نعم ، أنا أعلم أنّك تحبني كثيرا وأنّك مخلص لي كل
الإخلاص ، وأنا أيضا أحبك من كل قلبي أيها العزيز غاسبار .
وتحمّس الأستاذ قليلا وتابع قائلا : ولا يضيرك أبدا أن
تفتخر بنفسك ويكون لك قليل من المطامع لأنك واسع
الاطلاع ذكي فضلا عن كونك متحلياً بما يكتنك أن ...

فقاطعه بنياكل وهو ينظر بسخرية إلى الثياب المتواضعة التي
يرتديها ويقابل بينها وبين ثياب الأستاذ الفاخرة قائلا : ولكنني
قلت لك ليست لديّ مطامع .

فابتسم الأستاذ ابتسامة طيبة وقال : ومع ذلك فأنا لا أعلم
ما الذي جعلني أتكلّم عن المطامع في هذا المساء . فابق كما أنت
إذن وهو خير لك لأن السعادة في البساطة . والآن سأتركك يا

ولدي لأذهب إلى الفراش .

- الآن ؟ إنه ليس وقت نومك على ما أعتقد !

- هذا صحيح ، ولكنني لا أعلم لماذا أشعر بثقل في رأسي
وبحاجة كبيرة إلى النوم .

فعاد بنياكل ينحني على أوراقه ويتابع عمله فلم يلاحظ الأستاذ ،
هذه المرة أيضاً ، الابتسامة الغريبة التي لاحت على شفهي الشاب
فقال وهو يتوجه إلى الباب :

- ليلة سعيدة يا غاسبار .

فأجاب بنياكل قائلا : ليلة سعيدة يا أستاذ وأرجو أن تنام
نوماً هنيئاً .

وعندما استدار الكاتب العدل لينادر المكان ، رفع الشاب
رأسه وتابعه بنظرة طويلة غريبة ، ولو أن الأستاذ رأى تلك
النظرة المثبتة على ظهره لاعتراه قلق شديد لما كانت تنطوي عليه
من البغض والحقد ! ولكنه لم يلتفت إلى الوراء بل صعد إلى
الطابق الأول ودخل غرفته وهو يغمغم قائلا :

- يا لله من هذا التعاس الذي أصابني ... إنه لأمر غريب ...
ثم خلع ثيابه بسرعة وارتمى في سريره حيث راح فوراً في
سبات عميق .

وكان بنياكل قد أنهى عمله في ذلك الوقت ، ولكنه لبث مع
ذلك جالساً إلى طاولته مصيفاً بسمعه باهتمام بالغ . وكان ما يسمعه
في تلك اللحظة هو صوت حركة الحادمة العجوز التي كانت تنهي
عملها في المطبخ .

ولما سمعها أخيراً تصادر المطبخ لتصعد إلى غرفتها نهض مسرعاً فحمل المصباح وغادر قاعة العمل وقد رأى الخادمة في الرواق وكانت تحمل بيدها شعة وتتوجه نحو الدرج ويظهر أن هذا ما كان يريده دون شك ، فقال لها :

— إنها الساعة التاسعة والنصف وأنا ذاهب للنوم .

وبعد أن تبادلنا تحية المساء ، صعدت الخادمة إلى غرفتها حيث أوت إلى فراشها ولم تلبث أن غرقت في النوم .

أما بنياكل فإنه دخل غرفة صغيرة متصلة بقاعة العمل مجهزة بجميع وسائل الراحة ، هي غرفة نومه ، فخلع ثيابه واندرس في فراشه .

ولكنه لم يلم ، بل لبث وقتاً طويلاً جامداً ممدداً على ظهره وعيناه مثبتتان في سقف الغرفة . وكان يفكر بأمر لا يعرفها أحد سواه والفروض أنها أمور رهيبه هائلة لأن وجهه كانت في تلك اللحظة متقلص الملامح مخيفاً .

وحوالي الساعة الحادية عشرة قفز فجأة من سريره وهو يغمغم قائلاً : لقد حان الوقت .

وبدأ يرتدي ثيابه في الظلام ، وفي قلب السكينة الشاملة ، بحركات سريعة دقيقة وكان يبدو أنه أعدّ خطته سلفاً بدليل أنه لم يتردد لحظة في كل ما كان يفعله .

ولما انتهى من ارتداء ثيابه أضاء مصباحاً غير الذي أحضره معه ، وهو مصباح ضئيل النور معلق بمسار ، كان يستعمله أحياناً لتفقد فناء المنزل والحديقة ليلاً .

وقد بدا وجهه على نور المصباح شاحباً قاسي الملامح كما بدت عيناه لامعتين مخيفتين . ولما وضع يده على مقبض الباب تردّد هنيهة في فتحه وكان يقول في نفسه :

— « وإذا كنت قد أخطأت في تعديل الجرعة المخدّرة واستيقظ على حركتي ... أأتركه يقبض عليّ بالجرم المشهود كأني لصّ حقير ؟ »

ولكنه هزّ رأسه سلباً بحركة عنيفة وأتى بإشارة هائلة من يده يعلن بها عن فكرته ثم أدار المقبض بعزم ومن غير حذر ، وخرج إلى الرواق دون أن يحاول إخفاء وقع قدميه .

وتسلقّ الدرج بخفة مدهشة كأنه شبح رهيب يسعى في الظلام . ووصل إلى غرفة الأستاذ فعاوده الجمود والتردد وكان يحسّ أنه يختنق بينما أخذ العرق البارد يسيل على صدغيه وجبهته وقلبه يدقّ في صدره بعنف شديد حتى لیتعجب كيف أن دقاته لم توقظ النائم . ولم يكن يرى الكاتب العدل لأن هذا كان قد أسدل حوالبه ستائر السرير ، ولكنه كان يتخيلها قائماً كالقتيل من جرّاء المخدّر فلم يطل تردّده بل سلط مصباحه رأساً على خزانة صغيرة موضوعة عند رأس السرير وتقدّم منها ففتحها ومدّ يده إلى داخلها يتحسس شيئاً يريده ، وبعد هنيهة أخرج مفتاحاً صغيراً وذهب إلى خزانة أخرى في زاوية الغرفة كان الأستاذ لوران ديزارشيل يضع فيها الأوراق ذات الأهمية القصوى والمال والأشياء الثمينة كالخلى وما إليها .

فتفتح تلك الخزانة بهدوء وسلط نور مصباحه على داخلها

وجوسلين دي هوتفور، ويكلف صديقه الأستاذ لوران ديزارشيل،
منفذ هذه الوصية، بتقديم جمالة معينة منتظمة إلى ابنتي عمه
المذكورتين لحين زواج رولاند

وبعد أن قرأ المحرم النذل الوصية نقلها حرفياً ثم طواها كما
كانت وأعاد الأختام إلى مكانها بالمهارة نفسها التي نزعها بها ثم وضعها
في الخزانة في المكان نفسه الذي أخذها منه وأقفل الخزانة دون
أن يأخذ منها شيئاً ثم وضع المفتاح مكانه في الخزانة قرب السرير.
وبعد ذلك فتح زجاج النافذة على مصراعيه وشق الخشب ثم نزع
مفتاح باب الغرفة من الداخل وخرج وأغلق الباب وأقفله ووضع
المفتاح في جيبه وأطفأ المصباح وخرج من المنزل من الباب الخلفي
بعد أن أخذ مفتاحه معه أيضاً.

وسار في الحديقة إلى أن بلغ باباً صغيراً في السور فخرج منه
وسار بخطوات واسعة. وكانت الساعة عندئذ لا تتجاوز الحادية
عشرة والنصف.

وكانت غابة إيل آدم وغابة مونفورانسي في ذلك العصر
... ١٢٠١ هما في أيامنا هذه، وكانت المنطقة كلها
بها هنا وهناك فسحات صغيرة أقيم

بها وكان يبدو عليه أنه يعرفها جيداً.
أوفير سورواز عبر النهر على جسر
ثقة الثانية، إلى أن بلغ مكاناً موحشاً
تيسة صغيرة، وهناك جلس ينتظر.

وكانت تلك الأرض الموحشة المكسوة بالشوك والعليق هي
الحد الفاصل بين القطعة الصغيرة التي يملكها آل راکستان وبين
القصر الفخم الذي يقيم فيه الأمير دي مونكاييه.

وقد جلس بنياكل وهو يولسي ظهره منزل آل راکستان الذي
كان أصحابه يسمونه « القصر » رغم صغره وتقاهة منظره.
ولم يطل انتظاره .. إذ أن شبحاً انتصب أمامه فجأة دون
أن يعلم من أين خرج، فنهض بنياكل فوراً ورفع قبعته وانحنى
باحترام عميق وهو يقول:

— لقد جئتك يا سيدتي بالنسخة التي شرقتني بطلبها مني.
فمدت المرأة يداً بيضاء رقيقة ناعمة مترفة لتأخذ الورقة التي
كان بنياكل يدها لها وهو منحن، وعندئذ انطلقت أنوار حمرام
من ياقوتة خاتم ذهبي بسيط كان يحملتي تلك اليد.

وكانت الياقوتة هائلة الحجم حمرام بلون الدم القاني مفصلة على
شكل سدس وكان مستحلاً أن يلاحظها الإنسان بسبب شكلها
ولونها وانعكاساتها الغريبة التي لا يوجد مثلها.

وقد قالت المرأة بصوت هاديء شديد البرودة: حسناً،
سوف تقبض المبلغ المتفق عليه عندما يحين الوقت.

فقال بنياكل باضطراب: ولكن ليس هذا كل شيء يا
سيدتي فإن الكاتب العدل قد استيقظ من نومه ورآني أفقتش
في خزانته فاضطرت إلى قتله خوفاً من الشنق و ...

فقاطعته قائمة بكل هدوء: حسناً، سأ كافئك على هذا أيضاً.
فانحنى بنياكل مجدداً وهو يقول في نفسه بإعجاب شديد:

وحقّ الجحيم إنها امرأة عظيمة تضاهيني قوّة وربما كانت تفوقني !
وقالت المرأة أمرّة :

– لا تنس أن تأتي إلى هنا كل يوم في الساعة المحددة .

فطمأنها قائلاً وهو يضحك : سوف أجيء يا سيدتي .

ولما انتصب كانت المرأة الغامضة قد اختفت ، كالأهت ،
دون أن يعلم كيف حدث ذلك .

وقد ذهب في اتجاه قصر مونكابييه ولم يطل عليها الوقت حتى
بلغت باباً صغيراً في سور القصر ففتحت دون ضجة ودخلت ثم
سارت في الظلام الشامل فاجتازت أروقة وقاعات ودهاليز
وصعدت درجاً هنا ونزلت آخر هناك وفتحت أبواباً وأغلقت
أخرى دون أن تصادف في سيرها أحداً .

فبلغت أخيراً غرفة فتحتها ودخلت وكانت الغرفة فاخرة
الرياش مضاءة بشمعة واحدة من أصل الشمعات الست الموضوعة
على طاولة صغيرة .

وكانت المرأة ملتفة بمعطف طويل يصل إلى قدميها وينتهي
من جهة الرأس بقلنسوة واسعة رفعتها على رأسها بإحكام لا
يظهر معه من وجهها سوى عينيها . فاقتربت إلى الطاولة الصغيرة
حيث جلست دون أن تخلع القلنسوة ونشرت أمامها تحت ضوء
الشمعة صورة الوصية التي جاءها بها بنيها كل فقراتها أولاً وثانياً
بإمعان شديد ، وكانت تفكر أحياناً كأنها تتعمق في درس
بعض المواد .

ولما انتهت من القراءة وأصبحت تعرف غيباً مضمون النسخة

الحرفي ، قربت الورقة من لهيب الشمعة وأشعلتها وظلّت
ممسكة بها إلى أن كادت النار تصل إلى أصابعها ، وعندئذ نهضت
وألقت بها على رماد المدفأة وجلست القرقصاء تراقب بانتباه
اشتعالها البطيء .

وعندما نهضت أخيراً كانت متأكدة تماماً من أنهم مهاجرتوا
في هذا الرماد فلنهم لن يستطيعوا أن يظفروا بذرة من صورة
وصية الأمير دي مونكابييه .

أما بنيها كل فإنه عاد بعد ذهاب المرأة إلى منزل الكاتب
العدل المسكين ، ودخل الحديقة فعرفه الكلبان وأتيا إليه دون
نباح فجعل يدوران حوله وهما يبصصان بذيليها ، فأبعدهما عنه
في بادية الأمر بإشارة مقتضية ، ولكن خاطراً عن له فعاد
يدعوها مطلقاً بلسانه وسار وإيها لفاية باب سور الحديقة
حيث الخنى عليها كأنما ليداعبها . وفجأة انقضّ عليها بخنجره
كالصاعقة ونحرها على التوالى .

وقد ترك جثتي الحيوانين المنكودين قرب الباب ومسح خنجره
الدامي ، للمرة الثانية في تلك الليلة ، وهو يقول ببرودة :
وهكذا لن يتمجب أحد من عدم إنذارها من في المنزل .

ثم صعد إلى غرفة القتل حيث بان عليه الأرياح عندما رأى
كل شيء كما تركه . فوضع المفتاح في القفل من الداخل وأداره
مرتين حابساً بذلك نفسه مع ضحيته ، ثم أطفأ مصباحه وعلقه
في منطقتة ونزل من النافذة وتركها مفتوحة نصف فتحة .

ووصل إلى غرفته بعد دقيقة واحدة فعلق المصباح مكانه

وخلع ثيابه وأوى إلى سريره حيث لم يلبث أن نام كأن شيئاً لا يشغل ضميره .

وحوالي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي أفاق من نومه على صباح وعبول الخادمة العجوز فعلم أنها اكتشفت جثة سيدها فغادر فراشه بسرعة وخرج من الغرفة نصف عارٍ .

وكانوا ينهضون من النوم باكراً في تلك الأيام ، ولم يكن الأستاذ لوران ديزارثيل من التكرات ، وهو الرجل النبيل الكريم الأخلاق الذي كان يشغل وظيفة مرموقة جداً في ذلك العصر ، فترك مقتله أثراً عميقاً في نفوس أهل البلدة الذين تألبوا كلهم على منزله ، في أقل من مضي ربع ساعة على صباح الخادمة ، متأثرين صاخبين يلعنون القتلة الأشرار .

وقد وصل ممثلو السلطة الرسميون وباشروا فوراً التحقيق في تلك الجريمة الوحشية ، وكان أول الذين استجوبهم بطبيعة الحال الخادمة العجوز وبنياكل .

وكانت الخادمة المسكينة صادقة في ألمها ولوعتها لأنها كانت تعبد سيدها فقالت كل ما تعرفه .

أما بنياكل اللعين فإنه كان قد أعدّ خطته سلفاً فتظاهر بالحزن واللوعة إلى حدّ أنه بدا لا يستطيع الكلام أو التفكير لمساعدة العدالة ، ومع ذلك فإنه قد استطاع أن يقول ما يعرفه ولم يكن شيئاً مهماً إذ قال إنه كان نائمًا فاستيقظ على صوت الخادمة وغادر فراشه فوراً كما يروونه ... أي نصف عارٍ ! وإنه لاحظ أن باب غرفة المحسن إليه مقفل من الداخل ، وقال إنه

ناداه كما نادته الخادمة دون جدوى وإنه لاحظ أيضاً أن نافذة الغرفة مفتوحة وكان في تلك اللحظة قد حضر إثنان أو ثلاثة من الجيران فدخل وإياهم الغرفة من النافذة ورأى الأستاذ ديزارثيل مطمئناً في عنقه وقد فارق الحياة .

وقد أفاد الجيران المنكسرون داعمين شهادة المجرم ، أما ممثلو السلطة فإنهم استبعدوا أن يقدم هذان الخادمان المخلصان على عمل كهذا فلم يشتبهوا لحظة فيها بل تركوهما لحزنها وحوّلوا البحث والتحقيق إلى جهة أخرى .

ووجدوا الكليلين مذبحين قرب باب الحديقة ففسروا ذلك تفسيراً جاء برهاناً آخر يدعم شهادة المجرم ، أي أن الحيوانين المسكينين لم يتمكنوا من إنذار سكان المنزل .

وبالاختصار فإن المحققين بعد أن بحثوا جميع الأدلة وقاموا بمختلف الكشوفات الحسنة ، استنتجوا أن الأستاذ لوران ديزارثيل كان ضحية متشردين قطاع طرق يعملون أن خزائنه مملأ بالمال وقد قرروا سلبه فقتلوه ، ولكن الخزانة كانت متينة جداً ويقتضي فتحها ضجة كبيرة وقد خاف القتل من إحداث تلك الضجة فتركوها وشأنها واكتفوا بأخذ ما وقع تحت أيديهم مثل محفظة القليل التي كان من عادته أن يضعها على الطاولة قرب السرير والتي لم تكن موجودة ، وبعض أشياء أخرى أشارت الخادمة إلى اختفائها .

وبقي عليهم أن يعرفوا محتويات الخزانة بما قد يؤدي إلى تبديل استنتاجهم ، فتطوّع بنياكل لمساعدتهم بطيبة خاطر

ودلتهم على مكان المفتاح ففتحوا الخزانة وفحصوا محتوياتها بناء على لائحة كانت موجودة فيها فاستنتجوا فوراً أن لا شيء ينقص منها .

وقد أعجب المحققون الأفاضل بدقّة أبحاثهم على ما يبدو... فأطلقوا رجالهم على الطرقات المختلفة للبحث عن المشتريين الذين هربوا من الحديقة وأرسلوا كتاباً إلى سمو الأمير دي مونكاييه صديق القتل يرجونه فيه الإسراع إلى بلدة إيل أدام .

الأخوان

*

في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم نفسه ، أي بعد اكتشاف جريمة إيل أدام بساعة واحدة ، كان الكونت دي بومبيين يتأهب لامتطاء جواده ، على عادته في مثل تلك الساعة من كل صباح ، ليقوم بزهرته اليومية عبر الأجراس .

وكان الكونت ريشاردي بومبيين راكستان فقي في العشرين من العمر ، إلا أنه يبدو في الخامسة والعشرين ، وهو طويل القامة عريض المنكبين متين البنیان تدلّ حركاته الرشيقّة الخفيفة على قوّة لا يتمتع بها كثيرون من الرجال . وكان ، رغمًا عن حدائثه سنه ، هادئاً رصين الطباع وقد أصبح رئيس العائلة بعد موت والديه ومسؤولاً بصورة خاصة عن أخيه الذي يصغره بخمس سنوات والذي يقضي عليه الواجب بأن يكون له عضداً

ومرشداً ، وكان الكونت يشعر تماماً بمسؤوليته ويقوم بواجبه بكل أمانة ونزاهة .

وكان قد أوشك على وضع رجله في الركاب عندما خرج من المنزل غلام صبح الوجه فاجتاز درجات المدخل بوثبة فهد صغير وركض نحوه وهو يصيح قائلاً :

— سيدي ! ... سيدي ! ...

وكان الغلام يبدو في الثانية عشرة من العمر وهو قوي البنية يتفجّر نشاطاً وعافية ولكنه رث الثياب بالي الخذاء ومع ذلك فقد بدا في عدوه السريع أنيقاً جميلاً رائعاً .

فوقف الكونت ينظر إليه ويتنسم بجنونٍ ووصل الغلام فلوح بغدادارة كبيرة وصاح قائلاً :

— لقد أطلقت النار على تصفّور يا سيدي ...

فقاطعه الكونت وقال ضاحكاً :

— وقد أخطأته يا هوبير ، أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدي أخطأته على عادتي دائماً ومع ذلك فأنا متأكد من أنني ...

فقاطعه الكونت أيضاً وقال وهو يقهقه :

— لا شك في أنك أسأت التصويب يا هوبير ، إنك لا تزال تفتقر إلى المهارة .

— وأنا أقول لك يا ريشار إنني لا أفتقر إلى المهارة وإنني

أحكمت التصويب ، أسمع ؟

فقال الكونت متظاهراً بالصراحة :

- يظهر أنك تنسى أيها الفارس أنك تتكلم مع أخيك
البكر ، رئيس العائلة .

- إنك على حق يا سيدي فاعذرني وسوف أحاول أن لا
أنسى أبداً أنك أخي البكر ورئيس العائلة وأنه يجب علي أن
أحترمك وأطيعك .

ثم عاد بسرعة إلى الموضوع الذي يهيمه فقال: ولكنني يا سيدي ،
وأنا على يقين من أنني قد أحسنت التصويب وكان العصفور على
أقل من عشر خطوات مني ، على غصن مواجه . وقد صوتت إليه
الغدادة بعناية بالغة وتأكدت من حسن التصويب قبل أن أطلق
النار ، ومع ذلك فقد طار اللعين كأن شيئاً لم يحدث وهو يطلق
صيحات قصيرة كأنما يتشفى بي .

- لا عليك ، سوف تكون أسعد حظاً في المرة القادمة .
- أشك في ذلك يا سيدي . ولكن فكرة عننت لي في هذا

الشأن ...

فقاطعه أخوه قائلاً : ما هي ؟ تكلم .

فتطلع هوبير مباشرة في عيني أخيه وقال :

- هي ... من الممكن أنك لا تضع رصاصاً في غداتي
عندما تحشوها .

فابتسم الكونت قائلاً : يا لها من فكرة صيانية !

ولكنه أردف يقول في نفسه : « وهل تريد أيها الشيطان

الصغير أن أضع لك رصاصاً في الغدادة لتجلب عجاج المصائب ؟
لن أفعل ذلك أبداً » .

أما هوبير فإنه لم يقتنع تماماً بما قال أخوه فتابع حديثه قائلاً
بلهجة لطيفة :

- لي ما أسألك إياه يا سيدي ، فهل تعدني بإجابة ملتهمسي ؟

- نعم ، على شرط أن يكون ما تطلبه في حدود استطاعتي .

- إنه في استطاعتك دون شك لأنني لا ألتمس إلا أن تحشو
غداتي قبل ذهابك .

- إن لم يكن سوى ذلك فهيتا واعطني غداتك لأنفذ

طلبك .

- ولكنك ستحشوها أمامي يا سيدي ... أمامي !

- إنك لا تثق بي على ما أرى !

- كلا يا سيدي .

ولكنه استدرك فوراً يقول : في هذه النقطة فقط .

فقال الكونت بعد تردد قصير : هيتا بنا سأحشو الغدادة

أمامك .

وتوجه الشيقان إلى البيت حيث دخلا قاعة منخفضة السقف

فتفتح الكونت خزانة بفتح كان يحمله معه دائماً وأخذ كمية

البارود والرصاص اللازمة لحشو غدادة أخيه ثم أغلق الخزانة

بعناية ووضع المفتاح في صدره . وبدأ عملية الحشو الدقيقة أمام

عيني الفارس الصغير اللتين لم تكونا تتحولان عن يديه لحظة

واحدة . وقال الكونت بعد قليل :

- ابتداءً من اليوم لم تعد القسحة التي توجد فيها بقايا الكنيسة

الصغيرة مخصنا ، ولذلك فإني أمتنع من الذهاب إليها .

- لا يعني إن كانت لسا أولم تكن ، وسوف أذهب إلى هناك عندما يحلولي ، وإذا قال لي أحدهم ما لا يسرني فثق يا سيدي بأنني بلغت من العمر حداً أستطيع معه ردّ الجواب . وقد قال هذه الكلمات بلهجة متحدية وهو يضرب بيده على قبضة سيفه بفخر واعتزاز .

وكان منظر الغلام رائعاً حقاً وهو يتصرف تصرف الفرسان العظام إلى حدّ أن أخاه أعجب به بكل إخلاص . ولكن الفارس الصغير نسي في فورة حماسه متابعة حركات أخيه وقد اغتم هذا الفرصة فخبأ الرصاص في جيبه ولم يضع في الغدّارة سوى البارود . وكان كلام هوبير قد أثار في الكونت تأثيراً كبيراً فتجهّم وجهه المشرق والتفت من النافذة المفتوحة نحو قصردي مونكاييه فعمت في عينيه بوارق حقد شديد عاصف : حقد الفقير العاجز على جاره القادر الغني الذي يقتصب منه ما يملكه دون أن يستطيع شيئاً . ولبت الكونت على تلك الحال لحظة قصيرة عاد بعدها يلتفت إلى أخيه قائلاً بمرارة :

- ألم تسمع ما قلت لك ؟ إنهم يطردوننا ، أسمع الآن ؟ إنهم يطردوننا من أرضنا ؟ ... ولكنك لا ترى إذن أن آل مانكاييه يحطّموننا بثروتهم الهائلة ؟ ألا ترى أنهم لا يبالون بنا ؟ إنهم يدعون إلى أعيادهم وحفلاتهم التي يقيمونها في كل مناسبة لجميع نبلاء المنطقة ... إلّا نحن ! أقول لك إننا نضايقهم ، أو بمعنى أصح إن بؤسنا شوكة في جانب غنّام الفاحش ... وهم لا يريدون أن يروه ولا أن يشعروا به . ولذلك

فهم يريدون اغتصاب أراضينا . فالיום يسرقون القطعة التي تضم بقايا الكنيسة الصغيرة وغداً يأتي دور المنزل ... وعندما لا يبقى لنا شيء سوى الأطلال البالية التي نرتديها فعندئذٍ يطردوننا ويلاحقوننا ملاحقة المشرّدين إلى أن نترك المقاطعة ... هذا إذا لم يجدونا نحن الاثنين على حافة بعض الخنادق ميتين جوعاً ! فقال الغلام بلطف :

- أنا لا أهتم يا أخي لا بغنى آل مونكاييه ولا بأعيادهم التي يدعون إليها جميع نبلاء المنطقة ما عدانا ... فأنا أذهب إلى الكنيسة الصغيرة المهذبة لأنني أرى هناك صديقتي الصغيرة رولاند التي أحبها من كل قلبي ... وطالما أن رولاند تأتي إلى ذلك المكان لغرائي وتلعب معي ، فسوف أظلّ أذهب ولن يستطيع أحد أن يمنعني من الذهاب إلى حيث تنتظرني رولاند .

- رولاند ؟ ولكنك تتسى أيها الولد التمس أن رولاند هي الأميرة دي مونكاييه الصغيرة .

فأجاب هوبير قائلاً باللهجة اللطيفة نفسها : إنها رولاند فقط بالنسبة لي !

ففكّر الكونت لحظةً كأنما يستشف خفايا المستقبل ثم هزّ رأسه بشك وغمغم كأنما يخاطب نفسه ، قائلاً :

- وماذا يمكن أن يجمع بين رولاند أميرة دي مونكاييه ووريثة ثروة أسطورية .. وبين فارس صغير من آل راكستان ..

شيطان مسكين لا يملك شيئاً من حطام الدنيا ؟

فقال الغلام باقتناع كلي ولهجة جدية مدهشة :

- إنها بالنسبة لي رولاند فقط وسوف تظل كذلك إلى الأبد . وأعتقد أنني هوبير فقط بالنسبة إليها ، وسوف أظل كذلك دائماً .

فهزّ الكونت كنفه وقال : هاك غدّ ارتك عشوة . وأنت متأكد تماماً من أنني وضعت فيها رصاصاً هذه المرة ، ليس كذلك ؟

- نعم يا سيدي ، وأنا أشكرك على لطفك واهتمامك . وخرجنا من المنزل ، فتابع الكونت كلامه قائلاً بشيء من السخرية :

- إذا أخطأت الهدف هذه المرة أيضاً فيجب عليك أن تقتنع بعدم مهارتك ؟

- نعم يا سيدي ، ولكن سوف ترى أنني لن أخطئه هذه المرة .

فحاول الكونت وجهه ليخفي الابتسامة الساخرة التي طفت على شفتيه وقفز إلى صهوة الجواد من حيث توجهت نظراته بدافع لاشعوري نحو قصر مونكاييه مرة أخرى .

ولكن تلك النظرات لم تكن تحمل حقداً هذه المرة بل كان يلتمع فيها الغرام ... غرام عنيف طاغٍ قاهر ، فقال في نفسه : « يا للعجب ! إن من أحبّ ومن أبغض أكثر من كل من في الكون ... يقمان هناك » .

وكانما عصف به الغضب فجأة فصبّ نغمته على الجواد وأغرق مهازيه في خاصرته فانطلق به يسابق الريح وهو يرسل سهيلاً

يدلّ على الألم .

فصاح هوبير يقول : تزهة سعيدة !

ثم شهر غداً ارته وفتح عينيه جيداً وسار إلى الصيد تهزّه الآمال العذاب وكان يخاطب نفسه قائلاً بصوت مرتفع :

- سوف ترمي الآن إذا كنت حقاً قليل المهارة .

ورأى في تلك اللحظة عصفوراً واقفاً على غصن وهو يزقزق فلم يضع لحظة واحدة بل رفع الغدّارة وصوّب ، وكان على وشك أن يضغظ الزناد عندما تمالك نفسه فجأة ووضع الغدّارة في منطقتة وهو يقول بصوت مرتفع :

- لا ، لا يلبق بي أبداً هذا الصيد الهزيل . والآن ، وأنا متأكد من أن الغدّارة محشوة بالرصاص ، فسوف أوفر الطلقة لمناسبة تستحق التقدير . ولكي أبرهن لريشار على أنني لست عديم المهارة ، كما يقول ، فسوف أحضر له طريدة كبيرة ... يا لله ! ألا أستطيع أن أصادف خنزيراً برياً لآتيه به ؟ ! سوف يكون عملاً رائعاً إن أنا فعلت ! ولذلك فقد قررت أن يكون الخنزير البرّي أول سيدي ... فإلى الصيد يا هوبير ، إلى الصيد ! وانطلق في الأحراج لا يلوي على شيء .

الفارسية

*

وكان الكونت دي بومبينيان قد انطلق في الأحراج هو أيضاً

ولكنه توغل في عبيداً وكان الجواد يعدو به على هواه دون أن يكبح جماحه ، وقد سار على تلك الطريقة زهاء نصف ساعة وهو تائه في عباب التفكير . وفجأة عاد إلى نفسه فبدأ متأزراً قلقاً وجعل ينطلق بجواده تارة إلى اليمين وطوراً إلى اليسار وأحياناً إلى الأمام وأخرى إلى الوراء . وكان ينتصب في ركابه ويشرب بعنقه ويتفحص الغاب بنظراته ثم يوقف الجواد ويصيح بسمعه فكان من براه على تلك الحالة لا يشك أبداً في أنه يبحث عن شخص أو شيء .

وفجأة سمع خبيب جواد يسير في الطريق الذي على يمينه فأشرق وجهه وهمز جواده وهو يغمغم قائلاً :

- إنها هي !

وقد أصاب في ظنه ، فإنه شاهد بعد قليل عند منعطف الطريق فارسة تتجه نحوه في خبيب خفيف وكانت تضع قناعاً على وجهها فتقدم بومبيينان منها وقبعتها في يده وانحنى على عنق جواده يؤدي لها التحية .

فردت عليه بلطف ، وكان يبدو جليلاً أنها متعارفان ومن الممكن أن يكون هذا اللقاء بناء على موعد سابق ولكن من الجلي أيضاً أن الفارسة كانت تتوقعه لأنه لم يظهر عليها ما يدل على دهشة المفاجأة .

وقد خفت من سرعة جوادها وسار الكونت إلى جانبها فكانا يتقدمان ببطء ويتبادلان بعض الأحاديث السطحية التافهة ، إلى أن تكلم الكونت دون مقدمات ، كأنما يتابع حديثاً

قُطع سابقاً ، فقال بصوت يرتجف من شدة الهيام :

- ألا تلتين أخيراً في موقفك لجاهلي يا سيدتي ؟ ألا تقولين

لي كلمة تبعث الأمل في نفسي ؟ ألا تقولين لي من أنت ؟

فنظرت إليه نظرة عميقة وقالت ساخرة :

- إنك لا تزال ولدأ يا سيد دي بومبيينان ، وأية ثقة يمكن

أن تكون في حب ولد ؟

- جرّيني يا سيدتي وسوف ترين أن في صدر هذا الولد قلب

رجل مستعد لأن يريق لأجلك دمه إلى آخر قطرة !

فقالت بمزحة :

- يا لله ! وماذا أفعل بدمك ؟

ثم نظرت إليه نظرة سحرته وأردفت تقول بلهجة جدية :

- ولكنني إذا قرّرت أن أمتحنك كما تلتبس ، فسوف أطلب

منك دون شك أمراً أقل قيمة .

- تكلمي يا سيدتي ، مربي ! أتريد أن أقوم بعمل

جدير بفرسان العصور القديمة ؟ أتريد أن أرتكب جريمة ؟ أنا

مستعد لتنفيذ كل ما تريدن وأقسم بالله أنني سوف أسير في

الطريق الذي تحددينه لي دون أي تردد حتى ولو قادني ذلك

إلى أعماق أعمق الجحيم . مع العلم بأنني لن أكون خامساً في هذه

الحالة لأن الجحيم جنة فيما إذا كنت فيه إلى قربي... إذا كنت لي !

- وإذا قلت لك إنني أستطيع أن أحبك أنا أيضاً ...

يا لله ! قالك نفسك ولا تتدفع هكذا مع الفرح . وأنا لا

أقول إنني أحبك ... لا تتجهّم ... أقول فقط إنني أستطيع

أن أحبك يوماً ما وأستطيع أن أكون لك ... ولكن ذلك اليوم لن يبرز فجراً أبداً إلا إذا أزحت من الطريق رجلاً يقف بيننا ... إذا قلت لك ذلك فماذا تجيب ؟

- سمي لي هذا الرجل وأقسم لك أنني سأحذفه من عالم الوجود مهما بلغ من شأنه ومكانته .

فرّ طيف ابتسامة على شفهي الفارسة الميراوين وقالت بهدوء:

- حسناً ، إذهب بعد ساعتين ، أي حوالي الساعة التاسعة ،

إلى قصر مونكاييه وسوف يدلونك هناك على الرجل .

فتجهم وجهه فجأة وغغم قائلاً :

- على ما تريدن ! ولماذا الذهاب إلى قصر مونكاييه ؟ ! أنا

لا أعرف رب القصر - ليلتلمه الجحيم - ولا أريد أن أعرفه !

وقد قال ذلك وبدأ على وجهه بغض هائل لم يستطع إخفاؤه ،

فأخذت علماً بهذا الشعور الذي راق لها على ما يظهر لأنها ابتسمت

بجددأ وقالت :

- إطمئن ، فإنك لن ترى الأمير لأن ذهب هذا الصباح

إلى بلدة إبل أدام ولا أظنه يعود وأنت في القصر . سوف

يستقبلك هناك الدوق دي سوريانتس ...

- وماذا أقول لذلك الدوق لتبرير زيارتي ؟

- ها أنت مرتبك لشيء لا أهمية له . سوف تحدث الدوق

بشأن قطعة الأرض التي تضم بقايا الكنيسة الصغيرة .

ومدت له يدها بعد أن تأكدت من أنه سوف يذهب ،

فأخنى على تلك اليد وطبع قبلة غرام حارة وهو يرتجف من قه

رأسه إلى أخمص قدميه .

وقد أبقت يدها في يده ولم يبدُ عليها أنها على عجلة لسحبها ،

ولكنها لما سحبتها أخيراً بلطف انطلقت منها أنوار حمراء هي أنوار

الحاتم الذهبي المحلى بياقوتة كبيرة الحجم على نحو ما مررت بنا

سابقاً ، ولم يكن في المستطاع عدم ملاحظة هذه البياقوتة الفريدة

بسبب انعكاساتها الغريبة ولونها وشكلها التي لا يوجد مثيل لها .

الكونت دي بومينيان

*

وبعد ذهاب الفارسة لبث بومينيان وقتاً طويلاً في المكان

الذي قبّل فيه يدها وهو جامد جمود التماثيل .

ولكنه عاد أخيراً إلى بيته حيث بدأ فوراً يعتني بهندامه ،

فلبس فوراً أحسن ثوب لديه ، أي الثوب الأقل رقماً ، ولو كان

في غير تلك الظروف لأدمت رثائه ذلك الثوب كبريائه ولكنه

في الوقت الحاضر لم يكن يلقى بالأى مثل هذه الأمور بل كان

يطير فرحاً لمجرد التفكير في أن المرأة المعبودة سوف تحبه يوماً

وتكون له .

ولكنه مع ذلك لم ينس أنه مقدم على ارتكاب جريمة في

سبيل امتلاكها ، فكان وجهه يتجهّم أحياناً ويعتريه الجمود فيلبث

بعض الوقت مفكراً ساهماً إلا أنه سرعان ما كان يعود إلى

متابعة الاعتناء بهندامه وقد أشرق وجهه مجدداً بالفرح والغبطة

ما يدل على أنه لن يتقاعس في سبيل امتلاكها ، عن ارتكاب
جريرة ... بل وعشر جرائم إذا لزم الأمر !

واعتلى صهوة جواده وذهب . وفي تمام الساعة التاسعة كان
يترجل أمام مدخل قصر مونكاييه حيث استقبله الدوق دي
سورياتنس بذلك التهذيب الذي امتاز به كبار السادة في تلك
الأيام ، والذي كان عند الدوق يختلط بالتهذيب الإسباني وهو
أكثر نعمة وكماسة .

وقد بدأ دي سورياتنس يعتذر للكونت عن عدم وجود
قريبه ، عن طريق الزواج ، الأمير دي مونكاييه الذي ذهب
بسرعة قصوى إلى بلدة إيل آدم عندما علم بمقتل الأستاذ لوران
ديزارثيل ، كما أكد له أن ربّ الدار سوف يأسف كثيراً لعدم
تمكّنه من استقبال الزائر النبيل . وقد أعرب عن سروره بنيل
الشرف الكبير في الحلول محل الأمير في استقبال الكونت وأظهر
استعداده لسماع ما يقوله بطيبة خاطر .

فجلس السيدان . وهنا لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنه كان في
القاعة بابان مغلقان أحدهما يقع وراء المقعد الذي يجلس فيه الدوق ،
والآخر يقع وراء المقعد الذي يجلس فيه الكونت .

وابتسم الدوق للزائر ابتسامة لطيفة كشفت عن صفين من
الأسنان اللامعة تحت شارب أسود صغير وبدأ الحديث قائلاً :

— لقد سمعت أنها الكونت كلاماً عن أحد فرسان آل
راكستان وقيل لي إنه قام بأعمال تضاهي ما قرأناه عن فرسان
الأساطير .

فأجاب الكونت دي بوميينيان وهو ينتصب بكبرياء قائلاً:
إنه جدّي يا سيدي :

— ويقال إن السيد دي بوميينيان راكستان والدك قد بدّد
ثروته ، فهل هذا صحيح ؟

فأجاب الكونت بفخر وقال : إن أبي كان حرّ التصرف في
ثروته ولم يكن لأحد أن يمنعه من أن يفعل بها ما يشاء .
وأضاف يقول بمرارة: ولأجل ذلك تراني فقيراً ، فقيراً جداً
يا سيدي !

وكانا يتكلمان إلى تلك اللحظة دون أن يأتي أحد منهما على
ذكر قطعة الأرض التي أشارت الفارسة على الكونت باتخاذها
لربعة للزيارة. ومن غريب الأمور أنه إذا لم يكن بوميينيان على
هجلة للتحدث في هذا الشأن ، فإن سورياتنس لم يكن هو الآخر
على شيء من العجلة ولم يقل أية كلمة في الموضوع .

وفي تلك اللحظة 'فتح الباب الذي وراء الدوق ودخلت إلى
القاعة صبية فاتنة الحسن لا يمكن أن يحلم من يراها بوجود أجل
منها، وكانت ترتدي ثياباً بيضاء من قبة رأسها إلى أخمص قدميها.
ولما رآها بوميينيان برّح به الغرام وأخذ يرتجف لأنه عرف
فيها الفارسة التي التقاها منذ ساعتين في الأحراج ...

وقد تقدمت السيدة ، وهي تبسم ، من الدوق الذي قبّل
يدها وقدمها رسمياً إلى الكونت بقوله :

— النبيلة جوسلين دي هوتفور ، دوقة دي سورياتنس ،
(روحي العزيزة.

فالتحني بومبيينان المنحاة عميقاً وهو يغمغم ببعض المديح ،
ولكن لم يبدو على الدوقة أنها تعرفه ، فتمعجبت بسذاجة في باديء
الأمر ولكنه عاد يقول في نفسه :

« يا لي من مغفل ! وهل أريد أن تأتي بحركات تدل على أنها
تعرفني أمام زوجها ؟ إنها أكثر حذراً مني وهي تلعب دورها
بمهارة . فلأفعل مثلها إذن ... وأنتظر ما يحدث » .

ولكن الدوق لم يوجه إلى الانتظار لأنه اعتذر واستأذن في
الغياب لحظةً وخرج تاركاً إياه مع زوجته .

فاغتتم بومبيينان الفرصة واقترب من الدوقة قائلاً بصوت
حار : لقد أمرتني بالجمي . يا سيدتي وما أنذا بين يديك !

فصاحت الدوقة قائلة : لقد أمرتك بالجمي! أنا؟! ...!

— أما زلت تشككين في حيي يا سيدتي ؟ ألا تعتقدين أنني
أصبحت لك روحاً وجسداً ؟ أتوسل إليك أن ترققي بي بما أن
الصدفة تساعدنا ، وتصرحي بما أتمسه منك منذ شهر طويل !
وكانت دهشة الدوقة تتزايد أكثر فأكثر وكانت تنظر إليه
مرتبعة غنتقة إلى حد أن صوتها لم يعد يسمعها لكي تقاطعه .

وقدمت تأثير المفاجأة أخيراً فأجابته بلهجة متعالية قائلة
باحترار : كفى يا سيدي أو أدعو الخدم لإفانك خارجاً !

فلبت بومبيينان مصعوقاً وهو لا يفهم شيئاً مما يحدث أمامه .
وفجأة لعت في ذهنه فكرة خالها صواباً فقال في نفسه :

« من الممكن أنهم يسمعوننا وقد يكون زوجها غير واثق
بنا وأنه لم يخرج إلا لمراقبتنا ... يقال إن الإسبانين غيورون

جداً ... آه ! يا لي من مغفل لأنني لم أفهم هذه الأمور
وتصرفت بحمق كبير ... ولكنها لحسن الحظ لم تفقد وعيها هي ! »
والتحني أمامها إلى حد أنه كاد يركع وقال بصوت مرتفع :

— عفوك يا سيدتي ولا تتعجلي في الحكم عليّ ... لقد
اعتقدت أنني عرفت فيك شخصاً عزيزاً عليّ وقد تأكدت الآن
من أنني كنت غلطاً فتنازلي واقبلي اعتذاري وتأكدي من أنه لم
يخطر ببالي مطلقاً أن أخلّ بواجب الاحترام المفروض في أن
أقدمه لك والذي لا أرى من تفوقك استحقاقاً له .

وكان يظهر عليه أنه صادق في قوله آسف على ما صدر منه ،
فقبلت الدوقة إيضاحه واعتذاره اللذين وجتتهما إليها بكل تلك
الحرارة .

وعاد الدوق في تلك اللحظة بينما انسحبت امرأته وهي تردّ
بانحناء خفيفة لطيفة على تحية الكونت .

فتابعها هذا بأنظاره إلى أن أقفل عليها الباب وكان غرامه
وإعجابه بها قد بلغا به حداً لا يستطيع معه أن يخفي اضطرابه .
وفي تلك اللحظة بالذات ، أي عندما كان الباب يُغلق على الدوقة ،
فُتح الباب الذي وراءه وقد اختلطت ضجة هذا الباب الذي يفتح
بضجة الباب الآخر الذي يُغلق وراء مقعد الدوق . وكان
الكونت دقيق السمع فلاحظ الضجة وراءه واستدار عفويّاً ليروى .
وعندئذ لبث مذهولاً وقد اتسعت عيناه دهشة وتعجباً .

كيف لا وقد ظهرت في إطار هذا الباب الذي فُتح في الوقت
نفسه الذي أغلق فيه الآخر ، المرأة نفسها التي خرجت من ذلك

نعم ، لقد ظهرت المرأة نفسها تماماً ، إلا أن هذه كانت ترتدي ثياباً سوداء من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بينما كانت تلك ترتدي ثياباً بيضاء ، وكان وجه هذه رصيناً وقوراً بينما كان وجه تلك ضاحكاً مرحاً .

وكان بومبيينان يتسامل عما إذا لم يكن حالماً ، وكانت المرأة تتقدم نحوها بالخطوات الرشيفة اللطيفة نفسها التي خرجت بها الأخرى .

وعندئذٍ فقط لاحظ الكونت أن القادمة تلبس في إصبعها خاتماً ذا باقوتة هي الباقوتة نفسها التي تكلمنا عنها فانتفض قائلاً في نفسه : « إنها هي ، فارستي الجميلة ! »

وكان الدوق دي سوريانتس يراقبه بانتباه من طرف خفي فأخذ يضحك عندما رأى اندهاله ودهشته وضرب على لوح نحاسي دون أن يقول شيئاً ثم أعطى أمراً مقتضياً إلى الخادم الذي حضر والتفت إلى الكونت قائلاً وهو يبتسم :

— لقد تشرقت منذ قليل يا سيدي الكونت بتقديم الدوقة دي سوريانتس إليك ، وأنشرف الآن بأن أقدم شقيقته التوأم السيدة دليلا دي هوتفور التي لا ندعوها إلا باسم هرموزا .

ثم أوضح قائلاً :

— إن هرموزا كلمة إسبانية تعني « جميلة » .

ولم يستطع بومبيينان أن يقول ما يناسب المقام لأن الدوقة التي دعاها زوجها بواسطة الخادم عادت في تلك اللحظة إلى القاعة

وتقدمت من تلقاء نفسها تقف إلى جانب شقيقتها وهي تبتسم وقد علمت بما جرى من مجرد النظر إلى ملامح الزائر .

فأخذ الكونت يتأمل الشقيقتين بدقة كبيرة علته يجد فارفاً بينهما ولو ضئيلاً ، ولكنه عبثاً حاول ، فقد كانت كل منهما صورة طبق الأصل عن الأخرى .

فقال سوريانتس موضعاً : ها أنت ترى يا سيدي أن الشبه تام . ولذلك ، ولتحاشي كل التباس ، فإن إحداها ترتدي دائماً ثياباً بيضاء أو فاتحة ، بينما ترتدي الأخرى ثياباً سوداء أو قاتمة .

وقد بذل بومبيينان جهداً جباراً ليعود من تأثير الدهشة وبدأ يتكلم بما يناسب المقام وقد تبودلت الأحاديث السطحية طيلة عشر دقائق انسحبت بعدها الشقيقتان .

وبعد لحظات من انسحابها سمعت في الفناء الخارجي للقصر غارة جواد آت . ويظهر أن ذلك كان الإشارة التي ينتظرها الدوق لأنه صرف الزائر بتهديب ولياقة كبيرين ، فذهب هذا في أثر خادم يدلّه على الطريق ويشيعه بالإكرام نفسه الذي استقبل به .

وبينما كان الكونت يجتاز رواقاً مقفراً معتماً ظهر أمامه فجأة شبح امرأة لم يدر من أين طلع عليه . أهي ذات الرداء الأسود أم ذات الرداء الأبيض ؟ إنه لم يكن يستطيع الأجابة على ذلك لأن الشبح كان ملتغياً بعناية ما بعدها عناية برداء طويل ذي قلنسوة لالون يميّزه وقد رفع القلنسوة إلى رأسه الذي لم

يكن يظهر منه سوى العينين .

وقد همس الشبح بصوت لا يكاد يسمع قائلاً :

- إن الرجل الذي يجب عليك قتله يترجّل الآن أمام مدخل القصر .

وقبل أن يستطيع بوميينان ، الذي عادت إليه الدهشة من جديد ، أن يقول كلمة أو يأتي بحركة ، كان الشبح قد اختفى بالعموض نفسه الذي ظهر به . وكأنما أراد الخادم الذي يسير أمامه أن يمنع عن كل بحث ، فإنه استدار إليه ووقف جامداً كأنه يدعو إلى اللحاق به .

فلم يسع الكونت إلا أن يتبعه وهو ساخط نادم وكان يغمغم قائلاً في نفسه : « وحقّ جميع شياطين الجحيم هذا هو قصر الأسرار إلا إذا كنت قد فقدت صوابي دون أن أشعر » .

وقد رأى الرجل الذي دلوه عليه يترجّل فعلاً أمام المدخل وكان يبدو حزيناً منفعلاً وقد شك في منطقته ورقة كبيرة مطوية محتومة بالشمع الأحمر وكانت هرموزا وجوسلين تهرعان إلى ملاقاته وسمعه يقول لها :

- لقد جئت بوصيتي ...

فاعترى بوميينان ذهول شديد وغادر القصر وهو يقول في نفسه : « الأمير دي مونكابه ... إنه الأمير دي مونكابه الذي يريدون مني أن أقتله ! ... ماذا ؟ ماذا ؟ ! »

الإبنة بعد الأب

*

وعاد الكونت دي بوميينان إلى منزله وقد أرخى عنان الجواد على مدهاه ، وكان يأمل من وراء تلك السرعة الهائلة أن يخفف من همه الذي يكاد يشتعل فيعود إليه صفاء ذهنه تماماً في تلك اللحظة . ولكن النتيجة الوحيدة التي حصل عليها هي أنه زاد مطيئته المنهوك إرهاقاً على إرهاق .

ولقد لبث مدة طويلة يتمشى في منزله بخطوات مشوشة وهو يحاول حل تلك القضية العويصة التي تكاد تفقده الصواب الأروهي :

« لماذا يُطلب منه قتل الأمير دي مونكابه ؟ » ولفرط ما بحث ودقّت في ذاكرته انتهى به الأمر إلى أن يتذكر بعض كلمات سمعها فقال في نفسه :

« لقد سمعت أن السيدتين دي هوففور ، ولم أكن قد رأيتها بعد ، تعيشان بما يقدمه لها الأمير لأنها قريبته الوحيدتان ، ولذلك فإنها سوف ترثانه بعد موته » .

ولكنه سرعان ما ردّل هذه الفكرة العقيمة فهز كتفه وتابع يقول في نفسه :

« ولكنني أنسى على ما يظهر وجود رولاند ابنة الأمير الوحيدة ووريثته الشرعية ... وإذن فإن فارسيتي التي أمرتني بقتل الأمير لا تستطيع وراثته الثروة الهائلة إلا إذا اختفت

رولاند من عالم الأحياء بدورها .

ويظهر أنه تعب من مثل هذه الأبحاث فصاح قائلاً بغضب :
- إلى الشيطان ! ... يجب عليّ أن أقتل الأمير لأنه حجر
عثرة في سبيل حبنا ، إذ أنها تحبني وأقسم على ذلك ، وقد
صرحت لي بحبها ولست غيباً ... ولكن لماذا يشكل الأمير
تلك العقبة ؟ وكيف لا يهم ! إنه عقبة فعلاً لأنها قالت ذلك ...
وسوف يموت الأمير دي مونكاييه ! أقسم بالله أو بالشيطان أنه
سوف يموت !

وفي الوقت نفسه الذي قرر فيه الكونت دي بومينيان قتل
الأمير دي مونكاييه ، كان غاسبار بنياكل يجلس على قاعدة عمود
من عواميد الكنيسة الصغيرة المهذبة ، كما فعل في الليلة السابقة
أو مقتل الأستاذ لوران ديزارشيل ، ويتنظر .

وفجأة ظهرت أمامه ، كالليلة السابقة ، امرأة ملتفتة بمعطف
فضفاض رمادي اللون وقد ردت قلنسوته على رأسها ، دون أن
يعلم ، هذه المرة أيضاً ، من أين طلعت عليه . وكان في إصبعها
الخاتم الذهبي البسيط ذو الياقوتة نفسها التي أشرنا إليها أكثر من
مرة .

وقد قالت له بالصوت الموسيقي واللهمجة المتعذبة الآمرة
نفسها :

- لقد دقت الساعة ، وغداً بعد حفلة العيد التي سوف تقام
في القصر يجب أن يتفقد كل ما اتفقنا عليه فيما بيننا .
فقال بنياكل :

- كنا قد اتفقنا يا سيدتي على أن أجيئك بصورة عن وصية
الأمير دي مونكاييه ، وقد جئتك بتلك الصورة . ثم اتفقنا
على أن أتكفل بالأميرة الصغيرة رولاند وقد فهمت أنه يجب
قتل تلك الطفلة . ولكن من الممكن أن أكون قد أسأت فهم
نواياك فآلتبس باحترام كلي أن تكبدي نفسك عناء تحديد
أوامرك في هذه القضية بجلاء .

- لقد فهمت جيداً . وغداً بعد حفلة العيد ، يجب أن تكون
الأميرة الصغيرة رولاند قد فارقت الحياة وأن تحتفي جثتها حيث
لا يستطيع أحد أن يجدها .

- حسناً يا سيدتي . غداً بعد حفلة العيد سوف تكون
الأميرة الصغيرة رولاند قد فارقت الحياة وسوف تحتفي جثتها
ولن يجدها أحد أبداً .

عيد مولد رولاند

*

وكان الثاني عشر من أيار عيد مولد رولاند وقد وجه والدها
الدعوات إلى جميع نبلاء القرى المجاورة فلبى الجميع تلك
الدعوات بحماس منقطع النظير وأخذوا يتوافدون منذ الصباح
الباكر على قصر مونكاييه . وكان الفناء العام كأنه معرض
للجمال والأناقة ، وكان بعضهم يأتي في العربات والبعض الآخر على
الخيول ، وكانوا يتجمعون كلهم في الدهليز الكبير الرطب حيث

ووضعت الطاولات لأجل الوليمة التي ستقام بعد عهنة صاحبة العيد والدعا .

وكانت رولاند عندئذ في غرفتها بين أيدي مربيتها ووصيفاتها وهن يزيتها ويلبسها ثيابها بعناية فائقة .
ولما انتهين تقدمت الطفلة إلى مرآة بلورية كبيرة فتأملت نفسها هنية وقالت :

— إنني أبدو جميلة حقاً وسوف أذهب بعد قليل إلى الكنيسة الصغيرة المهذمة ليراني صديقي الطيب هويبر ، ولا بد أنه سيكون مسروراً جداً عندما يشاهدني بهذا الجمال .

فانحنت المربية وقالت بلهجة صارمة : إنك لن تذهبي إلى ذلك المكان . لا ، لا ... لن تذهبي إليه أبداً !

فقهقت رولاند ضاحكة وانحنت تقلدت مربيتها بمهارة وتقول :

— لا ، لا ؟ ولكنني سوف أذهب مع ذلك !

— لن تذهبي من الآن فصاعداً إلى الكنيسة الصغيرة أبداً . وهي أوامر مولاي لأن هذين الأخوين راكستان لا قيمة لهما مطلقاً ، وخاصة الفارس الصغير هويبر الذي تجرئين على أن تسميه « صديقك الطيب » إذ أنه يبدو أقرب إلى المشردين بغدادته الكبيرة التي يشكتها في وسطه وسيفه العتيق الصدى ، وسترته الممزقة عند الكوعين . وقد بلغت الآن عمراً تستطيعين معه أن تفهمي واجباتك كسيدة عظيمة من أسرة مونكاييه . وهكذا فلن ...

فقاطعتها رولاند قائلة بعناد : سوف أذهب !

ثم مدت لها لسانها ، فرفعت المربية ذراعها إلى العلاء وهي تهتمهم بكلمات غير مفهومة .

ولكن رولاند معذورة في تصرفها رغم كل شيء فهي لا تزال فتاة صغيرة وقد بدأت سنتها الثامنة في ذلك اليوم ، الثاني عشر من أيار ١٥٦٥ .

وفتح الباب عندئذ ودخل الأمير دي مونكاييه فركضت إليه رولاند وهي تصفقت بيديها الصغيرتين بفرح لا يوصف وطوقت عنقه بذراعها وألصقت خدها الوردى النضر بخده وقالت بحنان عميق مؤثر :

— آه يا أبي الطيب اللطيف . ألا تزال تفكر في أمي المسكينة التي هي الآن في السماء ؟

فاغرورقت عينا الأمير بالدموع وقال بصوت مرتجف : نعم يا طفلي العزيزة ، ولن أنساها أبداً !

وقال في نفسه : « واحسرتاه ! أنا لا أبكي أمك في هذه اللحظة بل أبكيك أنت وأتساءل عما سوف يحل بك بعد موتي يا طفلي المعبودة المسكينة ! »

وكان الأمير يحس دائماً ذلك الإحساس الغامض الرهيب الذي جعله يكتب وصيته كما ذكرنا . ولكنه تمالك نفسه الآن وقال متظاهراً بالسرور :

— ولكن البكاء لا محل له في هذا اليوم السعيد يا صغيرتي المحبوبة ، ولذلك فأنا لا أريد أن أثير حزنك بدموعي .

ثم بدل لهجته وقال : لقد حان الوقت فتعالى أيتها الأميرة
لأقدمك إلى ضيوفنا العظام الذين ينتظرون ظهورك ليتهنؤوا لك
ويهنؤوك .

وقد طابت نفس رولاند عندما رأت ابتسامة أبيها وقلدت
لهجته الرسمية هذه قائلة :

— ها أنا أتبعك يا مولاي !

وكان الرواق في تلك اللحظة يعج عجيباً والناس يروحون
ويجيئون ويضحكون ويتبسطون منتظرين الحدث العظيم الذي
ما برح يشغل المقاطعة كلها منذ ثمانية أيام .

وفجأة خيم الصمت والجمود على الجميع وانجهدت الأنظار
كلها إلى قرص درج المدخل الكبير ودوت الهتافات تشق عنان
القضاء وكأنها هزيم الرعد يتردد صدها في كل مكان .

وكان الأمير دي مونكايه قد ظهر عندئذ على قرص الدرج
وهو يسك بيد ابنته ، ثم وقف وراءها وانحنى فأمسكها من تحت
إبطها ورفعها على مدى ذراعيه وانتصب بكل قامته الطويلة
يقدمها للجمهور الصامت المنتبه وهو يقول بصوت قوي :

— أيها السادة النبلاء والسيدات النبيلات ، أشرف بأن
أقدم إليكم صاحبة السمو والنبيل والقوة الأميرة رولاند دي
مانكايه ابنتي المحبوبة التي أورشها ابتداءً من هذا اليوم جميع
ألقابى وحقوقى وممتلكاتى .

فعمدت الهتافات بحياة الأميرة والدعوات ترتفع من جديد .
ونزل الأمير الدرج الرخامي بخطوات بطيئة جلية وهو

يسك مجدداً بيد ابنته ، وسار خلفه ابنتا عمه التوأمان دليّة دي
هوتفور أو هرموزا وهي ذات الرداء الأسود ، وجوسلين دوقة
دى سورياتنس ذات الرداء الأبيض وهي تستند إلى ذراع زوجها
السامي الشرف رودريك دوق دي سورياتنس . ولم يكن أحد من
الحاضرين أشد سروراً من الشقيقتين والدوق .

وانتظم المدعوون في صفين متقابلين فمرت رولاند بينها ،
يقوها والدها ، بخطوات موزونة رصينة وهي تجيب بالابتسامات
والقبلات على سيل التهاني المتدفق عليها من كل جانب .

الوردة البرية

★

وبعد انتهاء مراسم التقديم أقيمت وليمة اسطورية ضمت
بضع مئات من المدعوين وكانت رولاند تجلس قبالة أبيها على
عرش مماثل لعرشه وهي تترأس طاولة الشرف . ولما كانت الوليمة
ستمتد طيلة ذلك النهار والنهار الذي يليه للمدعوين الذين أتوا من
أمكنة بعيدة ولا يستطيعون العودة إلى أراضيهم عند حلول
المساء ، فقد كان مقرراً أن تجلس الأميرة الصغيرة ساعة ، أو
ساعة ونصف الساعة ، بين المهنيين ، وبعد ذلك تأتي مربيتها
للعودة بها إلى جناحها .

ولم تكن رولاند تجهل هذا التدبير وقد سرّت كثيراً في
بأدى الأمر بما يجري أمامها ولكن الملل اعترأها بعد قليل

وتذكرت ذلك الذي تدعوه صديقتها الطبيب هويبر دي راكستان
فاستبدت بها رغبة قاهرة في أن تربه نفسها بكامل زينتها مع تاج
الإمارة الذي يعلو مفرقها .

وكانت الخمرة قد بدأت تقعمل فعلها في الرؤوس وسيطر المرح
والضحيج ولم يعد أحد ينتبه إليها . وقد رأت ذلك جيداً
فاغتنمت الفرصة وتسللت إلى خارج الرواق فاجتازت فناء القصر
وباب السور وبدأت تركض في اتجاه الحرج حيث تقع الكنيسة
الصغيرة .

وكانت تتمتع بذلك وفطنة يفوقان عمرها ، فحللت قضيتها
جيداً وأيقنت بنجاحها دون أي شك ، إذ أنها عندما ابتعدت
عن القصر وأصبحت وحدها قهقهت ضاحكة وهي تقول :

- سوف يعتقد سيدي الوالد أن المربية أخذتني ، بينما تعتقد
هذه أنني لا أزال على عرشي قبالة سيدي الوالد ... وهكذا
أستطيع أن أتصرف بربع ساعة كما يحلو لي .

ووصلت إلى الكنيسة المهذمة وكان هويبر ينتظرها هناك
وهو يتقلد سيفه الطويل الذي يضرب بطبتيه ، ويشك في
منطقته غدارته الكبيرة . فتقدمت رولاند منه بخطوات بطيئة
رصينة وقالت له بلهجة رصينة :

- نهارك سعيد يا سيدي الفارس !

فلبت الغلام صامتاً مذهولاً وهو يحملق فيها بعينين واسعتين
ومن المؤكد أنه لم يعرف في هذه « السيدة الجميلة » صديقتها
الصغيرة التي كان يركض وإياها في الأحراج حيث يتسلقان

الأشجار ويبحثان عن الأعشاب .

وكانما عرفت رولاند ما يحول في خاطره فدارت على نفسها
أمامه وقالت بدلال :

- ألا تراني جميلة ؟

فلم يجب أيضاً ، ولكنه ضم يديه وأخذ يتأملها بعينين يختلط
فيها الإعجاب بالدهشة ، وقد فهمت جيداً أنه يراها جميلة فظهر
عليها السرور ، كما أنها عرفت سبب ارتباكها فتقدمت منه هذه
المررة بخطواتها التي يبعدها وطبعت على خديه قبلتين رناتين
وهي تقول :

- ليس في ما ترى سبب يمنعك عن ردة تحيقي !

فزال جموده وكانما زال بفعل السحر ورد لها بكل براءة
قبلتها ثم أخذ يديها بيديه وتأملها لحظة بإعجاب صادق طاهر
وهو يقول :

- ما أجملك !

- لقد عرفت جيداً أنك ستراني جميلة ولهذا أردت أن أريك
نفسي بكامل زينتي .

- ولكن لماذا كل هذه الزينة الرائعة ؟

- وهل نسيت أن اليوم هو عيد مولدي ؟

فتبادلا النظرات بحنان صادق بينما تتشابك أيديهما بقوة ، وقد
رأها مرتجفة مرتبكة فحاول تغيير مجرى تفكيرها فقال :

- الأجل عيد مولدك زينوك بكل هذه الحلى ؟

- ولأجل شيء آخر أيضاً ، ألا ترى تاج الإمارة على رأسي ؟

لقد أصبحت أميرة من الآن فصاعداً .

— أميرة ؟ !

— وأنت ، ماذا أصبحت ؟

— أنا لست إلا فارساً ... فقيراً !

فصفت بيدنيا وقالت بمرح :

— سوف تكون فارسي وأكون أنا سيدتك . وأريد منذ

الآن أن أعطيك عربوناً على أمانتي كما تفعل أميرات كتابي الجميل

تجاه الفارس الذي يخترنه .

وكان إلى قريها مجموعة كثيفة من شجيرات الورد البري

فقطعت أجمل زهرة وجدتها فيها ووضعتها في عروة سترته المرقمة

ثم تراجعت قليلاً تتأمله وتظهر إعجابها بقولها :

— والآن ، إن زينتك أجمل من زينتي وأنت أجمل مني !

— من المستحيل أن أكون أجمل منك ، ومن الصعب جداً

أن أضاھيك جمالاً .

— سأذهب الآن بعد أن رأيتني بكامل زينتي .

فقال بأسف ظاهر : الآن !

فقالت بلهجة جدية :

— يجب أن أذهب لأنني جئت إلى هنا خفية وقد يكونون

شعروا بقيابي وبدأوا يبحثون عني مع العلم بأنهم لا يريدون ،

بعد أن أصبحت أميرة الآن ، أن آتني إلى هنا لأراك !

— وكذلك أنا ! لقد منعني أخي عن الهجاء إلى الكنيسة

المهدمة .

— لماذا ؟

فقال بسذاجة : لا أعلم .

— وبماذا أجبت أخاك ؟

— أجبته بأنني سوف أجيء رغم كل شيء وعندما يحلو لي .

وأنت بماذا أجبت ؟

وقد قال جملة الأخيرة بقلق خفي ، ولكنها أجابت قائلة :

لقد أعطيتهم جوابك نفسه !

فانفجرا ضاحكين ، ثم تابعت قولها ساهمة : ولكنني أتساءل

لماذا لا يريدون أن نرى بعضنا ؟

وتطلعت إلى الأفق بعينها المشرقتين وقالت بعزم :

— الآنني أصبحت أميرة ؟ ! ولكن ساء فألمهم لأنني سوف

أظل دائماً بالنسبة لك صديقتك الصغيرة رولاند ، وستظل أنت

دائماً بالنسبة لي صديقي الطيب هويير !

ثم تعانقا عناقاً أخوياً وافترقا وكان قد أعطاها عشا فكانت

تضمه إلى قلبها وهي تعود في طريق القصر . أما هو فإنه توجه

صوب منزله الحقيق وهو ينظر بحنان بالغ إلى الورد البرية التي

وضعتها في عروة سترته .

وقد سار ما يقارب المائة خطوة ثم توقف عن السير وأخرج

الوردة من عروته فقرأها من ناظريه وجعل يتأملها لحظة وهو

حالم ساهم ، ثم أنزلها ببطء إلى شفتيه ولامسها بها بلطف زائد ،

كأنما يخشى عليها أن تنقرط ، وبخشوع أقرب إلى العبادة . ثم

فك أزرار سترته ووضعها في صدره فوق القلب تماماً وعاد فرزراً

سارته عليها وهو بغمغم قائلا :

— وأنا أيضاً سأظل وفيّاً لها حتى الموت . وأفضل أن يراق
دمي إلى آخر قطرة على أن أفرط في عربون الأمانة هذا الذي
أعطتني إياه وهي تقول إنها ستكون سيدتي .

وقد قال هذه الكلمات بصوت مرتفع ولهجة رصينة كأنما هو
يعاهد نفسه عهداً لا يجب أن ينساه أو ينقضه . وفجأة ضرب
جبهته بيده وهو يصيح قائلاً :

— هذا ما كان يجب عليّ أن أقوله لها عندما أعطتني العربون
وهو ما أريد أن أقوله لها فوراً . إنها لم تبتعد كثيراً وسوف
أدركها إذا أسرعت في الركن .

وكان مخلصاً جداً تجاه ضميره وهو يقول ذلك ولكن الحقيقة
أنه كان يكذب على نفسه دون أن يشعر ، وكان مثل كل
العشاق في الماضي والحاضر والمستقبل ، يريد أن ينظر التي يحبها
مرة أخرى . وقد كان سعيداً جداً بالذريعة التي تذرعه بها لنفسه
للحاق بها ، فأسرع يعدو بكل قواه صوب الجهة التي سارت
فيها .

هووير

*

عندما كان الولدان يتحدثان على ما ذكرنا ، كان غاسبار
بنيال كل تحتبناً بين العليقّ الثابت في وسط الكنيسة المهذّمة وهو
يراقبها ويسمع حديثها . ولما رأى رولاند قد افرقت عن

صديقها وسار كل منهما في جهة ، خرج من تحتبه وجعل يسير
وراء الطفلة مستتراً بالشوك وشجيرات الورد البري ، إلى أن
أدركها عند أحد المتعطفات فانقض عليها وحملها بين يديه وانطلق
يعدو بها في الاتجاه المعاكس .

وعندما عاد هووير راکضاً ليرى صديقه مرة أخرى ، لمح
رجلاً ينطلق هارباً بين أشجار الغابة وهو يحمل شيئاً بين يديه ،
فلبت الغلام لحظةً كأنما أخذ وهو يقول في نفسه :

« ولكنها رولاند التي يحملها ! وهو ليس من خدم الأمير لأنه
يسير في الجهة المعاكسة لطريق القصر ! » .

وعندئذ نادى بأعلى صوته قائلاً : رولاند ! ... رولاند !
فلم يتلق أي جواب إلا أنه رأى الرجل الهارب يزيد من
سرعته . وقد لبث لحظة أخرى فريسة للدهشة ، ولكنه سرعان
ما تمالك نفسه وانطلق دون أي تردد في أثر الرجل وهو يقول
بعزم :

— أقسم بالله أنها خير فرصة لإظهار مهارتي في استعمال هذه
الغدّارة المشوّة بالرضاص ... ويا لسعادتي لأنني لم أطلقها على
بعض العصافير !

وانطلق يعدو بخفة ولكنه كان قد أضاع بضع دقائق قبل
أن عاد من ذهوله ودهشته ، فسبقه بنيال كل بمرحلة قصيرة .

وكان المجرم يضم الطفلة إلى صدره بعنف وقد وضع يده على
فمها بقوة فانقطع نفس الصغيرة المسكينّة وأغمي عليها دون أن
تطلق صرخة واحدة .

وسمع بنياكل نداء هوبير فبدأ يركض بأقصى سرعته ، وبعد أن قطع ما يقارب الميل على تلك الحالة توقف وأصاح بسمعه ليتأكد من أن أحداً لا يتبعه . ولما لم يسمع نائمة ولا حركة اطمان باله وعاد يتابع طريقه ولكنه لم يكن يركض الآن بل يسير بخطوات واسعة واثقة شأن الرجل الذي يعرف وجهة سيره . وقطع على تلك الصورة مسافة طويلة إلى أن بلغ أخيراً الجسر الخشبي فسار عليه إلى حيث كان الماء تحته أعمق منه في أي مكان سواء ، وهناك امتدت يده تبحث عن الخنجر في منطقتة وقد ألقى على الطفلة نظرة هائلة ، ولكنه لم يرَ عليها أية علامة من علائم الحياة فأعاد يده ومخفم قائلاً :

- ليس من الحكمة أن نُرقيق الدم دون فائدة .

ثم رفع الطفلة على مدى ذراعيه وألقاها بكل قوته في النهر حيث ابتلعها اللجة . وقد انحنى الشقي على حاجز الجسر ليتأكد من نجاح جريمتة الهائلة ولم يلبث أن أشرق وجهه وانتصب قائلاً :
- لقد تم الأمر على ما يرام وسوف يحمل التيار الجثة إلى مكان بعيد بعيد ... حتى إذا اكتشفت فلن يعرف أحد أنها جثة الأميرة الصغيرة .

وفي تلك اللحظة لمع أمام عينيه بريق خاطف ودوتى في رأسه انفجار أشبه بقصف الرعد وأحس كأن وجهه قد شوي شيئاً فسقط على الجسر فاقد الوعي وكانت أعجوبة أنه لم يتدحرج في النهر .

إنه الفارس الصغير هوبير دي راكستان الذي أدركه أخيراً

وأفرغ في وجهه ، على قيد بضع بوصات ، غدأرتة المحشوة بالبارود . وكان هوبير الصغير لاهثاً منقطع النفس يتصعب منه العرق بغزارة ، ولكنه لم يكن يحس بالتعب ، وكان كل همه موجهاً في تلك اللحظة إلى إنقاذ رولاند مها كلف الأمر حتى ولو دفع حياته ثمناً لذلك . وكانت كل قواه تدفعه الى تلك الغاية ، فلم يطل تردهه بل ألقى بغدأرتة في النهر لأنها تضايقه في ما سوف يفعل ، ووثب إلى الماء في المكان الذي ألقى فيه رولاند وغاص يبحث عنها في قاع اللجة الرهيبة . وقد لبث تحت الماء إلى أن كاد ينقطع نفسه وعندئذ عاد يطفو ويجذب نفساً على نفس ، ثم حل منطقتة ونحلى عن سيفه الذي كان يضايقه هو أيضاً .

وبعد أن غاص وطفأ مرتين أو ثلاثاً لمح الفتاة على بضعة أمتار منه وكان التيار يتقاذفها يميناً وشمالاً ، فأدركها بسرعة فائقة وأمسكها بإحدى يديه فأخرج رأسها من الماء وأخذ يسبح بيده الأخرى بقوة جدّدها اليأس في اتجاه الضفة .

ولكن نهر الواز كان سريع التيار وكان الغلام قد حل به التعب ولم يعد يستطيع المقاومة إلى أبعد من ذلك ، ولكنه لم يفقد رباطة جأشه بل ترك نفسه ينزلق مع التيار وجعل كل همه في إبقاء رأس رولاند خارج الماء وقد أخذها التيار بعيداً ، بعيداً جداً إلى حد أن الفارس الصغير عندما تمكن أخيراً من بلوغ الضفة بجملته الثمين ، لم يكن يعرف المكان الذي خرج إليه من الماء .

ولكنه لم يبالي بشيء من ذلك بل كان أول ما فعله هو أنه

الصلق أذنه فوق قلب رولاند ولم يلبث أن أطلق صيحة فرح
طاغ وقال بصوت متقطع :

- لك الحمد يا ربي ، إنها حية !

وخرّ مغشياً عليه ويده لا تزال متشبثة بيد صديقه الصغيرة
كأنه يريد أن يحميها ويدافع عنها حتى وهو فاقد الشعور .

إننا لا نستطيع أن نحدد مدة إغمائه ولكننا نقول إنه
بعد أن عاد إلى رشده التفت إلى حيث كانت رولاند فلم يجدها ،
ففرغ عينيه بقوة وهو يظن نفسه حالماً أو أنه لم يرَ جيداً ،
ولكن الفتاة الصغيرة لم تكن هناك ... فظن أنها عادت إلى
رشدها واختبأت في مكان ما لتفاجئه ، على عاداتها ، فتضع يديها
الصغيرتين البيضاوين على عينيه وتقول له بصوتها المرح :

- « هو هو ! ... هل تعرف من أنا ؟ » .

وقد قوي في نفسه هذا الاعتقاد حتى أنه أغمض عينيه ولبث
ينتظر . ولكن اليدين العزيزتين لم تحجبا عينيه والصوت المرح لم
يرن في أذنيه .

وعندئذ عاد يفتح عينيه وقد حطمه اليأس والتعب وهام على
وجهه ينادي بصوت تخنقه الغصة : رولاند ! ... رولاند ... !
وكان يخوض وسط العليق والشوك ويبحث بيديه ورجليه
ورأسه هنا وهناك ، وكانت ثيابه المبتلة قد التصقت بحسده
فتجلدت أطرافه وارتعشت أعضاؤه برداً وأذى الشوك والعليق
يديه ورجليه ووجهه ولكنه لم يشعر بشيء من الألم .

وبعد أن بحث في العليق والشوك عاد يبحث خلف الصخور

وجذوع الأشجار ولكنه لم يجد أثراً لروولاند .

وكان لا ينفك عن مناداتها بالصوت المخنوق نفسه ، ولكنه

لم يكن يبكي بل كانت عيناه جافتين ثابتتين قاسيتين .

وقد لبث على تلك الحالة أكثر من ساعة ، وفجأة قال في نفسه :

« يا لي من أحمق ! ... قد يكونون أتوا للبحث عنها ...

ووجدوها ... وأخذوها إلى القصر » .

وانطلق راكضاً وهو يقول : سوف أجدها في القصر ..

هذا مؤكد !

قدر محتوم

*

ولبت يركض في عناد وإصرار إلى أن بلغ قصر مونكابه

فدخله كأنه يدخل منزله .

وكان الأمير والمدعوون وسائر سكان القصر قد علموا باختفاء

رولاند فانقلبت أفراحهم أتراحاً ، وكانوا قد بحثوا عنها في القصر

وجواره وفي الكنيسة القديمة ، ولا لزوم للقول بأن أتعابهم قد

ذهبت أدراج الرياح .

ولما وصل هوبير أحاط به الجميع وأخذوا يرهقونه بمختلف

الأسئلة وقد فهم فوراً أنه أخطأ في ظنونه وأن رولاند لم تعد إلى

القصر ، فهي قد اختفت حقيقة وقد لا يراها أبداً . فكانت الضربة

قاصمة بالنسبة لهذا الغلام الذي ما أنفك يبذل ، منذ ساعتين ،

جهوداً تحطم أشد الرجال بأساً فضلاً عن الهزات العاطفية التي
كابدها وهي أشد خطورة من التعب .

ولكنه مع ذلك قصّ عليهم ما حدث وما رآه وفعله
فلم يقتنع السامعون بكلامه إذ أن الأعمال المعجبية التي قام بها
كانت تتخطى حدود سنه ، ولكن أحدهم نبّه إلى أنه مبتلّ
الشياب ، فانبرى آخر يقول : إنه ربما يكون قد سقط في الماء
عفواً .

وكان هوبير قد سقط على الأرض في تلك اللحظة وانتابته
قشعريرة خفيفة فأخذ يهذي هذياناً متواصلاً مما جعل الجميع
يعتقدون بأن القصة التي رواها لم تكن إلا وليدة أعراض حمى
خبيثة أصابته فحملوه إلى منزله حيث تركوه في رعاية أخيه
الكونت دي بوميينيان .

واستمر البحث عن رولاند طيلة بضعة أيام وقد وسع
الأمير نطاقه فكان يطوف ، بصحبة الدوق دي سوريانقس وبعض
الخدم ، الأحرار والوديان ضمن دائرة يتجاوز قطرها بضعة عشر
ميلاً . وكانوا لا يدعون علية أو حفرة إلا ويفتشونها تفتيشاً
دقيقاً حتى أنهم ذهبوا إلى الجسر الخشبي الذي تكلم عنه
الغلام رغم اعتقادهم بأن كلامه كان هذياناً من تأثير الحمى .
وقد باءت جميع أبحاثهم بالفشل ، فلم يجدوا على الجسر جثة
بنياكل كما أنهم لم يجدوا أي أثر لولاند التي يلوح أنها اختفت
إلى الأبد .

ولكن شيئاً واحداً لم يلاحظه أحد من سكان القصر ، أو

بمعنى أصح لم ينتبه إليه الأمير دي مونكابيه ، وهو أن غاسبار
بنياكل قد اختفى هو أيضاً حسب الظواهر على الأقل .

وبعد أن تعب الجميع من البحث والتفكير انتهى بهم الأمر
إلى الاعتقاد بأن رولاند ذهب مع صديقها الصغير هوبير إلى
الجسر حيث سقطت في النهر ، وأن الغلام رمى بنفسه إلى الماء
بشجاعة وحاول إنقاذها من الفرق ففشل في محاولته . أما ما تبقى
من قصة الصبي فقد اختلفوا كما قلنا بأنها من تأثير الحمى . والنتيجة
أن الجميع اعتقدوا في النهاية بأن الأميرة الصغيرة اللطيفة قد غرقت
وجرفها التيار إلى مكان بعيد .

وكان أقارب الأمير وخدمه يلهبون بذلك وهم يذرفون
دموع الأسى واللوعة . أما الأمير فإنه كان يأبى الاعتقاد بأن
طفله المعبودة قد ماتت وأنه لن يراها أبداً .

ولم يكن غمطاً ، لأن رولاند لم تمت في الحقيقة ، وإليك
بيان ذلك :

قبل نصف ساعة تقريباً من وصول بنياكل وهو يحمل
رولاند ، إلى الجسر حيث وقعت الحوادث التي رويناها ، وقعت
على ضفة الواز ، غير بعيد عن ذلك الجسر ، عربة كبيرة قديمة
بالية يجرها جواد هزيل ، وقد خرج من تلك العربنة ثلاثة رجال
وامرأة يبدو من مظهرهم أنهم من فلة العجر الرحل وكانوا رجلاً
وامرأة وابنيها .

وجلسوا يستريحون في مكان ظليل يخفيهم عن العيون ، وبينما
هم على تلك الحال سمعوا دوي طلق غدارة هوبير فتسلطوا بين

الأعشاب وهم يزحفون في اتجاه الجسر ، ولكنهم لم يروا شيئاً لأن بنينا كل كان في تلك اللحظة طريقاً على ذلك الجسر بينما كان هوبير يغوص تحت الماء للبحث عن صديقه الصغيرة .

وفجأة نادت عن الأب صيحة تعجب مكنومة وأشار لابنيه بطرف عينيه إلى جهة معينة ، فالتفت هذان إلى الجهة التي عينتها لهما فأبصرا هوبير يغالب التيار وهو يجير رولاند إلى الضفة كما وصفنا .

فتبادل الرجال الثلاثة النظرات وكان يبدو جلياً أنهم يفهمون بعضهم بعضاً بتلك الطريقة لأنهم بدأوا على الأثر يزحفون على بطونهم بين الأعشاب النامية الكثيفة في اتجاه المنفذ الصغير ، ولم يطل بهم الوقت حتى وصلوا فوقه تماماً .

وعندما رأوا الولدين منظرين جنباً إلى جنب وهما لا يبديان حركة ، بطل حذرهم وترددهم فاقتربوا منها ، وقد تكون غايتهم من ذلك في تلك اللحظة مساعدة الصغيرين المسكينين ، ولكنهم جمدوا فجأة في مكانهم ولبثوا مأخوذين منقطعي الأنفاس تلعع عيونهم بريق الطمع والجشع ... وذلك لأنهم رأوا ما تتحلى به الأميرة الصغيرة من النفائس .

ثم انقض الثلاثة بمجرد واحدة ومدوا إلى تلك الحلى أيدي قدرة فاستولوا على كل شيء بأسرع من ارتداد الطرف وعادوا على أعقابهم مسرعين .

وقد ساروا بضع خطوات ووقفوا كأنما لا يصدقون بوجود تلك الثروة بين أيديهم ، فقال الأب بصوت خشن :

- لقد باتت ثروتنا مؤمنة على ما أرى !

وقال أحد الابنين : إنها ثروة كبيرة دون شك .

فقال الآخر وهو لا يعرف إذا كان قد أحسن في القول أو لم

يحسن : إنها أميرة بكل تأكيد !

وكادوا يتابعون سيرهم تاركين الصغيرين لمصيرهما ، ولكن

الكلمات الأخيرة التي سمعها الأب جعلته يفكر بعض الوقت ثم

يقول :

- صبراً يا ولدي ! ليس من عادة بنات الأسر الكبيرة أن

يتزهن وحنهن في الغابات وهن متحليات بمثل هذه النفائس .

وما أظن تلك الصغيرة إلا أميرة على الأقل ، وسوف تدركها

حاشيتها وترى أن حلالها قد سرقت . وأن جوادنا الهزيل المسكين

من جيادهم الظافرة السريعة العدو ، فإنهم سوف يدركوننا لا

محالة وينتهي أمرنا نحن الثلاثة إلى الشق .

وقد قال العجري - أو النوري - ذلك ، وعاد وولديه إلى

رولاند فحملها أحدهما وهي لا تزال غائبة عن الرشد ، وأخذوها

إلى العربة حيث أخفوها وأخفوا كذلك آثار نزولهم في ذلك

المكان . ثم ابتعدوا بعربتهم البالية وجوادهم الهزيل بأقصى

سرعة استطاعوها . وقد أدرتهم الأمير مونتكايبه ورجاله كما

توقع النوري البدهية في جوار بوتتواز ، ولكن النور كانوا قد

سمعوا غارة الجياد من بعيد فاتخذوا احتياطاتهم ، وعندما وصل

الفرسان إلى العربة رأوا المرأة تصنع سلاخاً صغيرة والرجل يضرب

حديداً حامياً انتزع من قرن نقتال بينما كان الولدان يبيضان

الآنية . وكان الجميع يحلسون حول العربية وقد حلوا الجواد الذي كان يرعى غير بعيد .

ولم يكن في هيئة هؤلاء الفجر ما يدل على أنهم يفرون أو يهربون ، وقد أجاب الأب وحده على جميع أسئلة الأمير باطمئنان الرجل النقي الضمير الطاهر الذليل وبلطفه ، ولم يخفَ عليه أن الأمير لا يزال يرمقه ، رغم ذلك ، بنظرة شك ، فقال وهو ينحني باحترام :

— أرى أنك تشك في* يا مولاي ، ولذلك أرجو أن تتنازل وتتفضل بالدخول إلى عربتي المتواضعة وهكذا تقتنع بنفسك بأن الطفلة التي تبحث عنها غير موجودة فيها .

وكان يقول ذلك يهدوء واطمئنان مما جعل الأمير يرفض العرض . ولكن الفجري ألح يقول :

— أرجو أن تتفضل يا مولاي بزيارة عربتي ، أتوسل إليك أن تجعلها منة منك لشخصي الحقير .

فقام الأمير بتلك الزيارة ولكنه لم يجد أثراً لروланд ... وعندما ذهب مع أتباعه وابتعدوا عن المكان عاد النوري يشد جواده إلى العربية ويبتعد بأقصى سرعة .

وكانت رولاند ممددة في إحدى الصناديق وهي تحت تأثير هذيان شديد ، تماماً كما حدث لهوبير ، أصابها على أثر عودتها إلى رشدها ، وكانت النورية تفسر ذلك وهي تهز رأسها قائلة :

— إنها حتى خبيثة !
ولكن تلك المرأة الفجرية لم تكن شريرة رغم كل شيء

فبدأت العناية بروланд بعطف وحنان كما لو كانت ابنتها ، وكانت فوق ذلك على علم ببعض قواعد الطب .

يوم ١٨ أيار عام ١٥٦٥

*

وبعد أربعة أو خمسة أيام كان الجميع قد اقتنعوا تماماً بأن الأميرة الصغيرة رولاند غرقت في نهر الواز وأنها الآن بين ملائكة السماء .

ولكن الوالد المسكين بقي مصرّاً على عدم الاعتقاد بمصيبته وكان يتابع وحده ، أبحاثه بعناد فيمتطي جواده كل صباح وينطلق إلى الغابات فلا يرجع إلا عند المساء وقد بدا حزينا متجهاً محطماً كأنما قد تقدم به العمر عشر سنوات دفعة واحدة .

وكان الكونت دي بومبيين خلال تلك المدة منهمكاً في العناية بأخيه هوبير إلى حدّ أنه لم يفكر مطلقاً بالفارسة الجميلة والأمير دي مونكابه ، أي بالشخصين اللذين يتلان حبه وبغضه . مما يدل على تعلق الكونت الصادق بأخيه .

وكان هوبير متعباً جداً ولكن حالته مع ذلك لم تكن من الخطورة بما يضاها حالة رولاند الصغيرة المنكودة . وقد استدعى الكونت طبيباً لعلاج فطمأنه هذا وتعهده له بأن يشفي أخاه ، ولكنه قال إن زمن العياش سوف يطول وإن التقاه ستكون

وفي ذلك اليوم ، أي في السابع عشر من أيار ، كان الكونت قد اطمأن قليلاً إلى حالة أخيه الصغير فذهب يتنزه سيراً على الأقدام ، ووصل في سيره إلى الكنيسة المهذمة دون أن يشعر . وفجأة انتصب أمامه شبح امرأة عرف فيها فارسته المعبردة وكانت ملتفة على عاداتها بالمعطف الرمادي الطويل ومعتمرة بالقلنسوة التي تخفي رأسها ووجها ، ولكنه عرفها مع ذلك من دقات قلبه الذي كان يقفز في صدره بعنف ، ومن الخاتم الذهبي البسيط الذي تلبسه في إصبعها والذي تحلته الباقوتة الكبيرة السداسية الشكل .

وقد خاطبته فوراً قائلة بصوت موسيقي ولهجة باردة مهددة:

— ماذا تنتظر ؟ ! لقد دلوك على العقبة ومع ذلك فهي لا تزال قائمة... وتقول إنك تحبني فإذا كنت تحبني حقيقة فيجب أن تتفقد الأمر قبل مضي يومين وإلا فانك سوف تفقدني إلى الأبد . ودارت على عقبيها وأكملت جملتها الأخيرة وهي تنساب بين الشوك والعليق عائدة إلى القصر كأنها سر من أسرار الطبيعة . فأراد الكونت أن يكلمها مها كلف الأمر ، وكان يراها جيداً ، وكانت المسافة تقصر بينه وبينها وهي لا تغيب عن نظره . ومدّ يده أخيراً وهو يظن أنه أمسكها ، ولكن يده أطبقها على الفراغ . لقد انزلت من بين أصابعه دون أن يشعر أنه يلمس جسماً واختفت أمام نظريه دون أن يعلم كيف اختفت وقد ظن أنه تبع ظلاً شيطانياً وليس امرأة من لحم ودم .

واعتراه خوف شديد من تلك الرؤيا التي عدّها من الحوارق فانطلق هارباً وعاد إلى منزله حيث قضى ليلة هائلة رهيبة وكان ضميره يثور ضد الجريمة الشائنة التي يُفرض عليه ارتكابها بينما يحاول هو خنق صوت هذا الضمير الذي رجحت كفته في بادئ الأمر ولكن الغرام انتصر أخيراً ومات ضمير الكونت .

وفي الصباح كان قد حكم على الأمير دي مونكابه بالموت للمرة الثانية ولكنه هذه المرة ، قرر أن ينفذ حكمه في ذلك النهار نفسه ، فتقلد سيفه الطويل وشك في منطقتة سكيناً كبيرة من سكاكين الصيد ، ثم امتطى جواده وذهب وهو متقلص الملامح أشعث الشعر مشتمل العينين إلى قرب قصر الأمير حيث اختبأ يراقب خروجه .

وخرج الأخير وحده ، كعادته منذ مدة ، وانطلق بجواده في الأحرار على غير هدى . وكان الأب المنكود يأمل دائماً في اكتشاف أثر يقوده إلى ابنته رولاند . وكان بومبينيان يتبعه عن بعد وهو يراقب جميع حر كاته وسكناته ولم يكن يستتر ، وقد سنحت له الفرصة ليرديه أكثر من عشر مرات ولكنه لم يفتنمها لأنه أنف أن يضربه من وراء فلبث ينتظر فرصة أكثر ملائمة . وقد سنحت تلك الفرصة بعد مضي أكثر من ساعتين وكان الرجلان قد توغلا بعيداً في الأحرار دون أن يشعر أن الأمير كان يسير مع وجهه مباشرة ويظهر أن التعب أدركه أخيراً فوقف في فسحة حيث ترجل عن جواده وجلس على حجر . فترجل بومبينيان بدوره وتقدم منه بوجه كالح يفيض حقداً

وعينين دمويتين وقد تأهب لضربه الضربة القاضية .

ولكنه لم يضرب بل وقف على قيد خطوات منه حيث لبث جامداً مضطرباً . وكان الأمير دي مونكاييه في تلك اللحظة يدفن وجهه بين راحتيه ويبيكي بدموع غزيرة وهو لا يلقي بالأى إلى كل ما حوله ، وكان بومبينيان يتابع حركات كتفيه اللتين يهزتما الشهيق المتواصل بعينين تلتصق فيهما بوارق التأثر وهو يقول في نفسه :

« لا أستطيع ضربه أثناء بكائه على ابنته ... لنتنظر ... »
وانتظر أيضاً . ولكن خيل له أنه يسمع في داخله صوت السيدة ذات الياقوتة الدموية ، صوت هرموزا على حد ظنه ، يعيد عليه هذه الكلمات : « بعد يومين ، سيفوت الأوان وتفقدني إلى الأبد » . فعصف الغرام بكيانه وسيطر عليه من جديد وتفجّر حقدّه وطغى على الشفقة التي تولدت في أعماق قلبه .

وتردّد مرة أخيرة ثم نادى الأمير قائلاً بلهجة جارحة :
- « هوّلا أيها السيد ! هيه أيها السيد !
فرغ الأمير نظره إليه وهو متعجب فأردف الكونت يقول : نعم ، إنني أكلّمك أنت .

فتأمّل الأمير من لهجته وقال باحتقار : ماذا تريد مني ؟
- أريد أن تعلم أنني أبحث عنك منذ مدة طويلة لأقول لك إنني أكرهك ... أكرهك ، أسمع ؟ وأحقد عليك حقداً قاتلاً : والآن وقد وجدتّك ، فأعلم أنني أريد قتلك . فجرد سيفك ودافع عن نفسك .

- أنا لا أعلم إذا كنت أحقّ أو معتوها ، ولكن من المؤكد أنك لست مهذباً أيها الفقى .

فزأر بومبينيان قائلاً بصوت مبجوح : أنا ما يحلو لي أن أكون ولست مستعداً أن أتلقّى دروساً من أحد ... وبصورة خاصة منك أنت !

فقال الأمير ببرودة : إنك مخطيء ، ويلوح لي أنك بحاجة شديدة إلى درس ...

فقاطعه بومبينيان قائلاً : جرد سيفك أيها السيد ، جرد سيفك ... ألم تسمع ما قلت لك من أنني أريد قتلك ؟

- أنت مجنون أيها السيد فإن الرجال لا يقاثلون الأولاد .
- إنك تقول هذا القول لأنك تخافني . فلا تطلّ الشرح وجرّد سيفك وإلا أصفّك لأوقف فيك الشجاعة .

وتقدّم رافعاً يده ، فجرد الأمير سيفه بأسف ظاهر وكان هذا ما ينتظره بومبينيان . كان يريد أن يرى سلاحاً في يد خصمه ليبرّر بينه وبين نفسه الفعلة القبيحة التي قرّر الإقدام عليها ولذلك فإنه لم يدع للأمير الفرصة ليوقف وقفة الحذر بل جرد سكتين الصيد الكبيرة بسرعة البرق وأغدها في صدره حيث غاصت إلى قبضتها .

فسقط الأمير على ظهره كتلة واحدة دون أن يطلق صيحة أو أنّة . لقد قتل فوراً وكان موته صاعقاً .

فتأمّل الكونت لحظة بعيني مذعور ثم أخرج سكتينه من صدره ومسح شغرتها بالعشب الميت وقفز إلى صهوة جواده

واختفى .

وقد خدمته الصدفة فلم يره أحد لا عندما كان يقتفي أثر الأمير ولا في عودته الى منزله .

ووصل الى المنزل فدخل فوراً قاعة السلاح وأقفل الباب وراه ثم غسل السكتين بعناية وعلقها في مكانها المهود وهو يفكر قائلاً في نفسه :

« لقد أزلت العقبة وأصبحت هرموزا لي . »

ووجدت جثة الأمير في اليوم التالي وجيء بها الى القصر وقد أحدث موته على تلك الصورة ، بعد ستة أيام من اختفاء ابنته ، حزناً عميقاً وتأثيراً شاملاً في المقاطعة كلها . ولكن أحداً من الناس لم يشبهه في أن الأمير المنكود قد قتل غيلة وغدراً لأن يده عندما وجدوه ، كانت لا تزال متشبثة بمقبض السيف مما جعل أهل المقاطعة يفترضون أنه بارز نبيلاً مجهولاً وشاء سوء حظه أن يُقتل في تلك المباراة .

وقد أظهر كل من هرموزا وجوسلين والدوق دي سوريانتس ، في ذلك الظرف ، لوعة وألماً عميقين يضاحيان اللوعة والألم اللذين أظهرهما عندما اقتنعوا بموت رولاند . وقد خُذع الجميع بتلك المظاهر فقدموا لهم التعازي بإخلاص وصدق . وبعد شهرين من تلك الحوادث فُتحت وصية الأمير دي مونكاييه التي كتبها قبل اختفاء ابنته المحبوبة بثمانية أيام ، وعدها بعد بضعة أيام من اختفائها ، فوجدوا الأمير المنكود يوصي بثروته العظيمة الى ابنتي عمه الطيبتين دليّة دي هوتفور وجوسلين دي هوتفور دوقة دي

سوريانتس .

وبعد بضعة أشهر من امتلاك السيدتين دي هوتفور لتلك الثروة الأسطورية ، أعلنتا أنها لم تعودا تستطيعان رؤية الأمكنة التي انقضت عليها فيها المصيبة تلو المصيبة ، ونزحتا مع الدوق دي سوريانتس الى باريس حيث قرّر الجميع أن يقيموا نهائياً .

وكان هوبير خلال تلك المدة قد أبلّ من مرضه فتركه أخوه الكونت في رعاية الخادم الوحيد الذي بقي أميناً لها في بؤسها ولحقّ بالسيدتين والدوق الى باريس .

أما غاسبار بنياكل فقد قلنا إنه اختفى على أثر الطلقة التي أصابه بها هوبير في وجهه ومن الممكن أنه لا يزال في المقاطعة . ورولانّد المسكين ، ما تراه حصل لها ؟

إن الأميرة الصغيرة نجت من الحتمى بفضل عناية النورية العجوز . وقد عادت الى نفسها بعد شهرين طويلين قضتها في الهذيان والغبوبة وكان أول ما فعلته ، عند عودة وعيها إليها ، أنها تأملت المكان الموجودة فيه والأشخاص الذين يحيطون بها بدهشة شديدة وقالت بصوت ضعيف :

— أين أنا ؟

فأجابتها النورية العجوز قائلة :

— ولكنك في بيتك ... ألعنك نسيبتك النقتال ؟

ثم تأملت الطفلة لحظة بكل انتباه وهي تقول في نفسها :

« لنزّ إذا كانت تتذكر . »

ولكن ، للأسف ، لم يظهر على رولاند أنها تذكرت شيئاً

بل عادت تتأمل المكان الحقيق كأنها تراه لأول مرة ولكن ليس بالاحتمار الذي يتم عن أنها تتذكر قصرها الفخم وعيشتها المترفة وقالت بلامبالاة :

- أنا في بيتي إذن ؟ وأنت ، من تكونين ؟
فقال النورية بتأثر :

- أيتها العذراء القديسة ! أتألين من أنا ؟ ولكني أمك !
وقالت في نفسها :

« إنها لا تتذكر ! ولا بد أن في ذاكرتها صدعا . »

ولم تكن العجوز غخطة في ظننها لأن رولاند بدت كأنما بدأت حياتها منذ اللحظة التي استعادت فيها وعيها فقالت :

- وأنا ، من أكون ؟

- أنت ريون دور .

فابتسمت قائلة : اسم جميل !

فقال العجوز مغلصة : ولكنه ليس أجمل من الذي تحمله .
وكان الجهد الذي بذلته رولاند قد أتعبا فنامت وهي تغتمم

قائلة بإبتسامة لطيفة :

- إنني ريون دور .

وحيدة

*

ونجت رولاند الصغيرة اللطيفة من الموت بفضل عناية النورية

العجوز وخبرتها وعادت تتابع سيرها في ركب الحياة وقد ساعدتها بنيتها القوية في استعادة صحتها ونشاطها المهودين .

ولكن الصدع الذي في ذاكرتها لم يلتئم ، فلبثت لا تتذكر شيئاً من ماضيها كأنما حياتها قد بدأت منذ اللحظة التي نجت فيها من الحمى الخبيثة ورأت نفسها في عربة النور .

وقد علمتها العجوز ماتالينا حياكة القش فبدأت مهنتها الجديدة تحت إشرافها ولكنها تفوقت بسرعة على معلمتها نظراً لحسنها الفني الدقيق المرهف ، فكان يطلع من بين أصابعها الصغيرة الماهرة أشياء هي غاية في الجمال ودقة الصنع . وتعلمت أن تبيع إنتاجها أيضاً وقد وجدت صعوبة في ذلك في بادئ الأمر ولكنها كانت ظريفة لطيفة لبقة الى حد أنها تفوقت ، هنا أيضاً ، على معلمتها .

ومضى الزمن وانصرمت الأيام والأسابيع والشهور والأعوام ولم تعد الذاكرة الى رولاند ، وكانت ماتالينا تسألها دائماً بطريقة غير مباشرة ، عن أمور تتعلق بماضيها فكانت تجيبها أجوبة تستدل منها العجوز على أنها لا تتذكر شيئاً مما جرى لها قبل أن تصيبها تلك الحمى الخبيثة التي نجت منها بأعجوبة ، وكان جلياً أنها صادقة في ما تقول . ولما كانت تعتبر هؤلاء النور الرحل أهلها ، وكانوا من جهتهم يتحاشون الإشارة الى ماضيها ، فلم تكن تشبه في أي شيء من ذلك الماضي وكان ممكناً جداً أن تضحك بملء فيها فيما إذا قيل لها إنها كانت أميرة صغيرة وإحدى أغنى أميرات المملكة الفرنسية إن لم تكن أغناهن .

وطافت ريون دور مع عائلتها الجديدة فرنسا كلها من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب . ولما كانت ، فيما يتعلّق بحياتها الجديدة ، متمتعة بذاكرة ممتازة ، فانها أصبحت تعرف فرنسا كلها معرفة وثيقة ماعدا باريس لأنها لم تدخلها أبداً ولم تكن عائلتها تقترب من تلك المدينة لسبب مجهول .

ومضت شهور وأعوام أخرى ونزلت المصائب بعائلة النور فقتلت شملها وهرب بكر الأخوين في أحد الأيام وحمل معه جميع الحلوى التي سرقوها من رولاند وكان يأمل دون شك أن يكون أسعد حظاً من أبيه فيستطيع تصريفها ولكنه لم يعد أبداً .

وذهب الأخ الأصغر بعد مدة وقد ألقى القبض عليه في إحدى الليالي ، وكان يقوم بعمل نخل بالقانون ، فلم يُعرف ما إذا كان قُتل أثناء توقيفه أو حُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم أو ألقى في بعض السجون أو أرسل للتجديف في سفن الملك . وفي جميع الأحوال فانه ، كأخيه ، لم يعد أبداً .

وبعد مدة أصيب النوري العجوز بجرح أثناء ممارسته الحدادة فأهمل أمر العناية به فقسّم دمه ومات . ولبثت ريون دور مع العجوز ماتالينا وكانت تبكي من كل قلبها على هؤلاء الذين تظنّتهم أباهم وأخويها . ولم تر العجوز من المناسب أن تطلعها على حقيقة أمرها ، ولكنها لم تَرَ نفسها وحيدة مع تلك التي كانت تدعوها ابنتها ، قرّرت فجأة أن تذهب الى باريس وكاننا موجودين آنذاك في البروفانس ، فتوجّهتا الى العاصمة ببطء وعلى مراحل صغيرة .

وفي أحد الأيام سقطت ماتالينا العجوز فجأة وشعرت بالنهاية الرهيبة تزحف نحوها وقد استولى الرعب والألم على ريون دور فارتمت على تلك التي كانت تدعوها أمها وهي تبكي وتشهق قائلة :

– أمي ، أمي ! أتريدن أن تتركيني دون كلمة وداع ! إنك لن تموتي يا أمي العزيزة ... قولي إنك لن تموتي ...

فرفعت العجوز رأسها واستطاعت بمجهود يائس أن تحلّ عقدة لسانها لتقول بصوت واضح :

– إنها النهاية يا ريون دور ، إنني أموت ! فشهقت ريون دور قائلة :

– سوف أعطني بك وأنقذك من الموت يا أمي العزيزة . فظهرت على وجه المنازعة شفقة عظيمة وقالت لاهثة :

– أمك ، يا للطفلة المسكينة ! ... لتساعدك السماء وتجعلك تجدين والديك ...

فغمغمت ريون دور تقول بتأثر :

– يا له ! إنه هذيان الموت ! عودي الى وعيك يا أمي العزيزة ، ألعنك لم تعودي تعرفين ابنتك ؟ ... صغيرتك ريون دور ؟

فقالت المنازعة بمشرجة هائلة :

– أنا لست أمك ... ولست ابنتي ... إنك لا تُدعِين ريون دور ...

فقالت ريون دور وهي تنتحب : يا ملائكة السماء ، أشفقوا على أمي وعليّ !

فقال المنازعة يجهد كبير :

– تذكري ... جسر نهر الواز ... هناك بين أوفير وإيل
آدم .. تذكري .. إنك لست ابنتي .. الجسر .. تذكري ..
وسقط رأسها وفارقت الحياة وفي هيتها ما يقول أيضاً :
« تذكري » .

وكانت ريون دور تكرر كلام الميتة قائلة بلهجة آلية :
– أنا لست ابنتها ! ولا أدعى ريون دور .. جسر الواز ..
بين أوفير وإيل آدم ... تذكري ...

ودفنت ماتالينا العجوز بالإكرام اللائق وحزنت ريون دور
حزناً عظيماً على تلك التي كانت تصرّ دائماً على أن تدعوها أمها
ورأت الفتاة نفسها الآن رحيدة في هذا العالم دون قريب أو
صديق .

وبعد أن قامت بجميع واجباتها تجاه العجيرة العجوز تخلت
عن العريفة التي لم تعد ذات فائدة بعد أن باعت الجواد وأنفقت ثمنه
على دفن « أمها » ، وسارت في الطرقات الكبيرة قاصدة باريس .
ولم تكن قد فهمت جيداً كلمات العجوز ماتالينا الأخيرة ،
ولذلك فانها لم تقتنع بها بل كانت تظنها نتيجة طبيعية للهديان
الذي يسبق الموت . ولكن تلك الكلمات أثرت فيها ، مع
ذلك ، تأثيراً كبيراً ولبثت محفورة في ذاكرتها وكانت تفكر
فيها غالباً وتأخذها بصورة جدية في بعض الأحيان ، فكانت
تطرح على نفسها أسئلة لا نهاية لها ولكنها لم تكن تستطيع
الإجابة عن أي من تلك الأسئلة . وكانت تحلم أحياناً وهي سائرة

في الطرقات فتقول في نفسها :

« من يعلم ؟ فربما أكون أميرة حقاً ! ... »
ثم تهزّ رأسها وتنفجر ضاحكة هازئة بنفسها وبالفكرة
الطائشة التي عننت لها .

رفيقان في المحنة

*

وكانت تسير في طريق باريس ببطء شديد وهي تحمل على
ظهرها بعض القش الذي تستعمله في صناعتها وبعض المون .
ولكن باريس بعيدة جداً ، وكانت ريون دور على تمام اليقين من
أنها لن تصل إليها قبل شهور وشهور لأنها لم تكن تستطيع السير
طوال الوقت ، بل كان يتحتّم عليها أن تكسب شيئاً يقوم
بأودها فكانت تقضي هنا وهناك بعض الوقت في صنع السلال
الصغيرة وبيعها . وكانت كبرياؤها تأبى عليها التسوّل لتعيش ،
كما أنها كانت أشرف جداً بطبعها من أن تلجأ الى بعض السرقات
كما كان يفعل في بعض الأحيان « أبوها وأخواتها » ولم يكن يلزمها
الكثير لقوت يومها فكانت تبيع ذلك القوت من شغلها . ولكل
تلك الأسباب كان سيرها الى العاصمة على مراحل صغيرة وقد
بدأت تعتقد أنها لن تستطيع الوصول إليها قبل بضعة أعوام .
وفي أحد الأيام كانت جالسة على حافة خندق بجانب الطريق
الكبير ، وكانت تحسّ في ذلك اليوم بالتعب والحزن أكثر من

أي يوم مضى ، وكانت عينها المبتلستان بالدمع تجولان على مدى الطرف في الطريق الذي قطعه ، وإذا بها تلمح في البعيد البعيد نقطتين سوداوين تتحركان ، فأثارت رؤيتها اهتمامها ونزلت بها من عالم الأحلام الى عالم الواقع وقد تنبهت فيها الحذر فجعلت تراقب هاتين النقطتين اللتين كانتا تتجهان نحوها بدقة كبيرة وهي على تمام الاستعداد للاختباء فيما إذا كانتا تشكلان خطراً يهددها .

وقد نفذت احتياطاتها فعلا فارتفعت الى الخندق حيث أصبحت على يقين من أن أحداً لن يراها في غيبها وتابعت المراقبة بنظرها الفتي الحاد ولم يطل عليها الوقت حتى عرفت ما تريد فقالت بصوت مرتفع :

- ماذا يفعل هذان الكلب والحمار بعيدين عن كل عمران ؟ وماذا يخفيها ؟ إن القلق يظهر عليها بوضوح ... أما ضالان يا ترى ؟ يا للحيوانين المسكينين !

ولم تكن ريون دور مخطئة في ملاحظتها فان تصرف الحيوانين لم يكن طبيعياً . وقد أشفقت عليها وتأكدت من أنها أمام كائنين شقيين مثلها وربما يفوقانها تعاسة .

ووصل الحيوانان إليها فوقاً أمامها جامدين كأنما يطلبان منها المساعدة . فتأثرت ريون دور وأخذت تداعب الكلب وفهمت أنها يتصوران جوعاً فأخرجت من صرتها بعض الطعام وقاسمته مع الحيوانين اللذين ساقتهما إليها الصدفة .

ولما انتهت الثلاثة من الأكل أرادت ريون دور أن تتابع

طريقها فتبعها الحمار والكلب وهما يظهران سرورهما بمختلف الحركات .

وكانت ريون دور سعيدة بتلك الرفقة ولكنها لم تكن مطمئنة وكانت تخشى أن يأتي صاحب الحيوانين فجأة فيتهمها بسرقتها مما يؤدي بها الى التورط في مشاكل هي في غنى عنها . ولكنها كانت مخطئة في قلقها وكانت قصة الحمار والكلب تتلخص بأنها كانا ملكاً لرجل فظة الطباع قاسي القلب فكان يضربها ويسومها العذاب ليجعلها يقومان ببعض الحركات الهلوانية التي تستأثر باهتمام الناس ، وكانت غايته من ذلك أن يطوف بها المدن والقرى ويكسب من ورائها رزقه . ولكن الرجل كان قد أوقف منذ ثمانية أيام لارتكابه عملاً يخلا بالقانون وحكم عليه بالنجذيف في سفن الملك مدة خمسة أعوام ، وكان في ذلك خلاص الحيوانين المنكودين من الاستبداد والظلم .

ولكن أتسى لريون دور أن تلم بتلك التفاصيل ؟ فكانت رغم سرورها لوجودها برفقة هذين الصديقين ، ورغم محبتها لهما ، تخشى أن تحتفظ بها خوفاً من ظهور صاحبها فلبثت مترددة في قرارها وكانت تريد الاحتفاظ بها ولا تجرؤ على ذلك .

وقد حفزها الكلب والحمار على اتخاذ القرار النهائي فتقدم الأول منها وحمل بقمه إحدى الصرر وجعل يمشي بلطف وروصاة . ورأى الحمار ما فعله الكلب فاقرب بدوره من الفتاة وقدم لها ظهره بعد أن أسسها برأسه بلطف كأنما يقول لها : «ماذا تفتنرين؟ ضعي كل ما تحمليه على ظهري وامتطيني بدورك فإني لن أحسن

بأي تعب من جراء ذلك .

وكان من البديهي أنها يقومان ببعض الحركات التي درّجها عليها مالكمها السابق ، فعمدت ريون دور الصدفة التي ساقَت إليها حيوانين مدرّبين يستطيعان أن يؤدّيا لها خدمات ذات قيمة ، ولكنها لم تكن تفكّر في تلك اللحظة إلا في شيء واحد وهو أن هذين الحيوانين يريدان أن يرتبطا بخدمتها ، فطابت نفسها وصاحت قائلة :

— إذن أنتم تريدان أن أكون سيدتكما ؟

فوضع الكلب الصرّة التي يحملها على الأرض وبدأ يدور حولها وهو ينبس بصرور بينما أطلق الحمار أدواراً من النهيق ردّت صداها الجبال والأودية ، فقالت ريون دور :

— حسناً ، لقد قبلت بما تريدان فاسمعا الآن : أنا أدعى ريون دور ومن المؤكد أن لكما اسمين أنتم أيضاً ولكنني أجهلها كما أنكما لا تستطيعان أن تقولاً لي إياهما ، فيجب إذن أن أعطيكما اسمين آخرين .

ثم فكرت قليلاً وقالت :

— أنت يا صديقي الكلب ستدعى بولو ! وأنت يا رفيقي الحمار ستدعى فرنغو .

الفرقة تزدهر

*

وسار الثلاثة في طريق باريس وكان بولو يشي في الطبيعة فينطلق طوراً إلى الأمام كالسهم المارِق ويعود تارة إلى الوراء ليقفز حول ريون دور وهو ينبس بمرح . أما فرنغو فإنه لم يكن يحسّ مطلقاً بالصرر التي يحملها ، وكان يشي في هدوء إلى جانب الفتاة وهو يرمقها بنظرات لطيفة .

ولم تعد ريون دور تشكو الوحدة فلها الآن صديقان أمينان مخلصان ، وقد بدأت تحبهما بكل ما في قلبها الطاهر من العواطف الصادقة . وكانا ، من جهتها ، يبادلانها هذا الحب بكل ما في طبيعتها الأليفة من الطيبة .

وقد اضطلعت الفتاة طيلة مدة من الزمن بأعباء إطعام صديقيها ، وكان يكفي لذلك أن تصنع بعض السلال زيادة عن المعتاد . وفي أحد الأيام اكتشفت ، بدهشة شديدة ، أن الحيوانين قد أغنياها عن كل عمل وبدأ يؤمّتان الطعام لها ولها بسهولة تامة .

وتفسير ذلك أنها كانت جالسة في أحد الأيام في ساحة إحدى القرى قرب عين ماء وهي منهمة في صنع السلال فلم تلاحظ اجتماعاً كبيراً عقد حولها . وكان الناس ينظرون إليها متعجبين ، فظنّت أن ذلك بسبب ثيابها المزركشة الكثيرة الألوان أو بسبب جمالها الذي يلفت النظر ، أو أخيراً بسبب بولو وفرنغو اللذين لا

يفارقانها قيد شعرة .
فرفعت رأسها فجأة ورأت جميع الأنظار مصوبة عليها
فحاولت النهوض والابتعاد عن تلك الساحة ، وعندئذ لبثت
جامعة مدهوشة كأنما سُمرت في مكانها وفهمت فوراً سبب
اجتماع الناس فانفجرت أسارىها بعد عبوس وأخذت تتابع
ما يجري حولها بإعجاب شديد . ومن الطبيعي أن يكون
الناس تلك الحلقة حولها وقد رأت في وسطها بولو يقف على قائمته
الحلفتين وهو يقفز ويرح ثم بدأ يدور في الحلقة ماشياً كما يشي
الناس ، وكان ينبج بلطف وظرف كأنه يتحجب إلى الجمهور .
وليس هذا كل شيء فإنه كان يدفع بقائمته الأماميتين هذا وذاك
من المتفرجين ويرغم الذين يتقدمون على التراجع ، وكان يفعل ذلك
بلطف وكياسة . وقد فهم الجمهور أنه يريد توسيع الحلقة فأجابوه إلى
ما يريد . ولما رأى الكلب التبيه أن الحلقة قد اتسعت بما فيه
الكفاية تقدم على قائمته الحلفتين ووقف في وسطها حيث استدار
في مختلف الاتجاهات وهو ينبج في لطف كأنه يحيتي الجماهير .
وقد فهم الجميع دون أي التباس أن التحية والنباح معناهما :
« إنتبهوا فسوف نبدأ . »

ومنذ ذلك اليوم بدأ بولو وفرنفو يؤمنان الطعام لريون دور
ولهما . وقد أدخلت الفتاة ، بما لها من الذوق المرفه ، بعض
التحسينات على تلك المهنة الجديدة ففصلت لفرنفو ثوباً جميلاً من
القطن ذا قبّة عريضة واسعة تتدلى على الصدر بطريقة يفهم معها
من يراه أنه يمثل «سيدة» يأخذ بيدها سيد . وكان السيد هو بولو
الذي ألبسته الفتاة قبعة يزيناها الريش وطوّقت خصره بحزام

يتدلّس منه سيف من الخشب كما شدّت الى «قدميه» قطعتين
من الخشب بشريط وردي اللون فأصبح يُسمع وقع خطواته
على البلاط بوضوح وجلاء مما خلغ عليه منظرًا هزلياً يُضحك
الشكلي .

ولما تم تجهيز الفرقة على هذا الشكل الرائع أخذت ريون
دور تتولّى بنفسها مهمة إدارة العرض وقد نالت نجاحاً منقطع
النظير فزاد دخلها زيادة ملموسة وذاع صيتها في كل مكان وعاشت
مطمئنة ناعمة البال .

باريس

*

وكانت تلك الأيام أسعد أيام الفتاة التي أصبحت النورية - أو
العجورية - ريون دور، والتي لا تتذكر أنها كانت الأميرة رولاند
دي مونكاييه .

ولكنها مع ذلك لم تنسَ الكلمات التي قالتها لها ماتالينا
العجوز وهي على فراش الموت ولم تنسَ أيضاً أن النورية كانت
تريد أن تذهب بها الى باريس .

وكانت الفتاة تسير في اتجاه العاصمة ولكنها لم تكن على
عجلة للوصول إليها فكانت تطوف هنا وهناك وتعود أحياناً على
أعقابها وتطيل الإقامة حيث يحلو لها وحيث يستقبلونها استقبالك
حسناً .

وقد أمضت سنتين على تلك الحالة الى أن وصلت فجأة الى
باريس دون أن تعلم وربما دون أن تقصد .

ودخلت الى العاصمة من باب مونمارتر في أحد الأيام الصحابة
وكانت السماء صافية الأديم والشمس ترسل أشعتها اللطيفة فتبعث
الدفء والنشاط في الطبيعة والكائنات الحية . وكان دخولها
حدثاً مدهشاً حقاً إذا أنها كانت قد ألبت رفيقها زيّ
الاستعراضات التي يقومان بها ، أي أن فرنفو كان يرتدي ثوبه
الجميل الذي يظهره بمظهر السيدة بينما كان بولو يرتدي قبّعة ذات
الريش ويتقلّد سيفه الخشيّ ويُسْمَع وقع حذائه الخشيّ على
بلاط الشارع .

ولم تكد الفرقة تسير مائة خطوة داخل المدينة حتى تألّب
حولها جمهور غفير وبدأ الاستعراض فوراً . وقد نال بولو وفرنفو
في ذلك اليوم نجاحاً كبيراً جداً تضاملاً أمامه كل نجاح سابق
وازداد دخل ريون دور ازدياداً لم تجرأ على التفكير فيه حتى
في أحلامها، فضلاً عن أنها رجحت من بيع السلال مبلغاً كبيراً جداً .
وعندل حلول المساء كانت الفرقة قد قدّمت أكثر من عشرة
استعراضات وكان التعب قد أنهك قوى الجميع ، ولكن كيس
ريون دور كان منتفخاً بالقطع الفضية التي يلتصق بينها بعض
القطع الذهبية ، وقد أعريت عن رضاها قائلة لرفيقها :

- أقسم بالعدراء القديسة أننا إذا تابعنا السير على هذا
المنوال في باريس الجميلة فسوف نصبح من الأغنياء قبل مرور سنة ،
وعندئذٍ نشترى بيتاً صغيراً مع حديقة جميلة ونعيش على هوانا

دون أن نقوم بأي عمل إلى آخر أيام حياتنا .

وفكّرت قائلة في نفسها :

« بيت في جهة أوفير سورواز وإيل آدم ... هناك حيث يوجد جسر خشبي يجب عليّ أن أتذكره ... » .

ولما رأّت أن بولر وفرنفو لم يعودا يستطيعان الوقوف من شدة التعب ، أسرعت إلى نزع ثيابها فعادا يظهران كسائر الحيوانات ، وتفرّق الجمهور شيئاً فشيئاً .

وكانوا عندئذٍ في شارع بدا لريون دور جميلاً جداً وهو شارع ترياندري . ولا لزوم للقول بأن الفتاة كانت تجهل اسم ذلك الشارع كما أنه لم يكن لديها أية فكرة عن ساكنيه وهم متشردون ولصوص ومومسات .

وكانت الحركة تتزايد في هذا الشارع كلما تقدّم الليل وهبط الظلام على عكس الشوارع الأخرى التي تصبح مقفرة . وقد قاد سوء الطالع ريون دور إلى ذلك المكان وازداد مصيرها سوءاً لأنها كانت تجهل كل شيء عن باريس .

ولم ينتبه إليها أحد في بادئ الأمر وكانت قابعة مع رفيقها في إحدى الزوايا المظلمة . ولكن ذلك لم يطل ، فقد خرج من البيت المقابل للزاوية التي كانت تحتمي فيها ثلاث فتيات جميلات يرتدين ملابس تمتاز بأناقة خاصة تم عن مهنتهن ، وكنّ يسرن ذهاباً وإياباً ويسير خلفهن ، على مسافة متوسطة ، رجل ذو هيئة مشوهة كبير الشاربين قاسي الملامح يتقلّد سيفاً طويلاً ويبدو عليه أنه يراقب الفتيات الثلاث خفية .

وقد اكتشفت الجميلات الثلاث مكان ريون دور فأخذن يراقبها من بعيد في بادئ الأمر ، ثم أتبن فوقفن أمامها على شكل نصف دائرة ، وتكلّمت إحداهن فقالت لها بصوت لطيف ولهجة ناعمة :

— من أنت ؟

فأجابت الفتاة قائلة ببساطة :

— أنا ريون دور .

وقد تعجّبت من لطف تلك التي ظنّتها « سيدة كبيرة » فأردفت تقول :

— وأنت من تكونين ؟

فأجابت الفتاة الجميلة قائلة باللهجة اللطيفة نفسها :

— أنا سافير ، وأما صديقتي فتدعيان موسكاد وبرغاموت . وقد وافقت موسكاد وهي ساهرة لامبالية بانحناءة لطيفة من رأسها ، أما برغاموت فلمّا أتت بحركة عنيفة تدلّ على الجفاء . فشمرت ريون دور بخوف لا يوصف وفي تلك اللحظة سمع صوت لطيف يقول :

— يا لقديسات الجنة ! أليس من الظلم أن تنام فتاة جميلة كهذه تحت النجوم ؟ ولكنني ذات قلب رقيق عطوف فتعالى يا جميلتي ، تعالي . ستنامين في بيتي وهو فندق شريف والحمد لله وسوف يقول الجميع إن فندق لابواس ، وهو اسمي ، هو أشرف وأتقن فندق في هذا الشارع .

وكانت المتكلمة عجوزاً لا يمكن لمن يراها أن يحده عمرها ،

وكان يبدو عليها اللطف والبشاشة . ولكن المتأمل البصير لا يخفي عليه ما في شفتيها الرقيقتين المزمومتين دائماً ، من القسوة والشدة . وكان بصرها تائهاً رجراجاً لا يصادف أبداً نظر محدثها . وقد أزاحت الفتيات الثلاث بإشارة أمرة فأطعنها كأنهن تلميذات أخذن بغلطة أمام معلمتهن . ثم اقتربت من ريون دور فقالت لها هذه متعجة :

— ولكتني هنا على ما يرام يا سيدتي .

— لا يا ابنتي ! لا يجدر بالفتيات الجميلات أن ينمن في الشارع في باريس فتعالي الى منزلي وسترين أنك لن تندمي .
وقد قالت العجوز تلك الكلمات وأمسكت بيد ريون دور وجذبتها بلطف ، فلم تقاومها الفتاة وأرادت الذهاب معها عندما سمعت سافير تهمس في أذنها قائلة :

— لا تنهبي !

وعندئذ استولى عليها الرعب فتملصت بعنف من قبضة العجوز ورفضت قائلة :

— لا أريد الذهاب !

فصاحت لابواس قائلة :

— ترومبافيور ، تعال الى هنا .

وكان ترومبافيور اسم الرجل ذي الهيئة المشبوهة الذي يراقب المومسات الثلاث ، وكان إسبانياً . وقد سمع ما دار من الحديث وفهم فوراً ما تريده منه لابواس فلم يرتد لحظة بل أسرع يلبسي النداء وانقض على ريون دور المذهولة فحملها بين ذراعيه القويتين

وسار بها الى بيت العجوز اللعينة التي كانت قد تركت بابها مشقوقاً . وقد تم ذلك بمرعة عجيبة الى حد أن الكلب بولو الذي كان نائماً في الزاوية لم يشعر بما جرى .

وقالت سافير وموسكاد مشفتين :

— يا للصغيرة المسكينة !

فقالت برغاموت بلهبتها القاسية الجانية :

— لماذا مسكينة ؟ إنها لا تستحق الرثاء أكثر منا .

ويظهر أن التحس الذي ما أنفك يلاحق رولاند هو الذي قادها الى ذلك الشارع الرهيب الخطر وتركها أمام بيت العجوز الشريرة لابواس ، فإنها بعد بضع ساعات من وصولها الى باريس وجدت نفسها سجيناً في ذلك البيت المشبوه حيث ينتظرها أشد المهن هولاً ونظاعة .

*

وخلال الإثني عشر عاماً التي انصرمت كان الفارس الصغير هوبير دي راكستان قد بلغ مبلغ الشباب مثل ريون دور ولم يكن أخوه البكر الكونت دي بومبينيان قد وجد الثروة في باريس على ما يبدو ، والدليل على ذلك أن هوبير وهو الآن شاب في الخامسة والعشرين من العمر ، لا يزال يرتدي الثياب الرثة البالية فكانت سترته المخملية وجزمته الجلدية مرقعتين في أماكن عديدة .

ولكنه كان كثير النظافة ، على عادته دائماً ، وكان يتغلب دائماً سيفاً طويلاً رائعاً وقد أصبح يجيد استعماله لإجادة تامة .

وكان رغم فقره ذا طلمة مهيبه حقاً : رأس مرفوع فخور يتوجه شعر طويل متواج ينزل الى كتفيه ، وشارب أنيق مفتول يسهم الى جانب بصراحة ثاقب في إكساب ملامحه المشرقة المرحة طابع رجولة قلّ مثيلاً . وكان طويل القامة عريض المنكبين رشيق الحركة تظهر عضلاته بارزة نافرة كأنما قدّت من الفولاذ . أما شجاعته فحدثت عنها ولا حرج لأنها كانت واضحة وضوح الشمس تظهر عفويّاً في جميع حركاته وسكناته . وقد لبث أعواماً طويلة يعيش في منزله الريفي الصغير ، وكان أخوه الكونت يرسل له في أوقات متباعدة مبالغ ضئيلة جداً من المال لا تسمن ولا تغني عن جوع . وظلّت ذكرى صديقه الصغيرة رولاند حية في قلبه مدة طويلة جداً كما ظلّت الوردة البرية التي أعطته إياها في مكانها المعهود فوق قلبه . وقد بدأت تلك الذكرى تفرق شيئاً فشيئاً في ضباب الماضي السحيق ، ولكنها لم تمحّ تماماً من ذاكرته . وفي أحد الأيام ، وقد تعب لكثرة ما « شدّ الشيطان من ذقبه » حسب تعبيره ، سار بدوره في طريق باريس ليلتحق بأخيه ويحاول البحث عن الثروة بمساعدته .

عند الملكة الأم

★

ذات صباح مشرق من عام ١٥٧٧ دخل الدوق دي سوريانتنس الى شارع فور حيث اتجه الى قنطرة مظلمة يقوم على جانبيها

برجان صغيران حسب هندسة ذلك العصر . وكانت تلك القنطرة المدخل الرئيسي لقصر الملكة الجديد وقد بنته كاترين دي مديس^(١) منذ ثلاثة أو أربعة أعوام وعاشت فيه متنحية عن أعمال الملكة .

فاجتاز الدوق سلسلة طويلة من القاعات الفاخرة الياش لم يعمرها أيّ اهتمام مما يدلّ على أنه يعرف القصر جيداً وأنها ليست المرة الأولى التي يدخله فيها .

ووصل أمام باب مكتب الملكة الكهله حيث وقف دقيقة واحدة لتعلن إحدى الوصيفتين المكلفتين بحراسة ذلك الباب قدومه لسيدتها .

وكانت القاعة التي دخلتها الرصيفة رحبة معتمة قليلاً ومفروشة ببساطة كلية تتنافى مع فخامة رياش القاعات الأخرى التي تحيط بها ، وكان يرى فيها خليط عجيب من كتب الديانة وأدوات التنجيم .

وكانت كاترين دي مديس في ذلك الوقت تحبب الى الستين من عمرها وهي لا تزال على ما عهدناه فيها من الهدوء والنشاط ، فكان لها ذلك الوجه الجامد ذاته الذي لا يسبر غوره ، والنظرة الثاقبة الباردة نفسها ، والمظهر الرهيب نفسه الذي يضيفه على وجهها

١ - صدر عن « دار الروائع » في المجموعة الكاملة لروايات ميشال زيفاكو، رواية باردليان الشيقة التي تتحدث عن فظائع هذه الملكة الشريرة . وأحداث تلك الرواية وتاريخها سابقان لاحداث « المغامرة الكبرى » وتاريخها ، فمن المستحسن الاطلاع عليها أولاً كما أشرنا في مقدمة هذه الرواية .

الشاحب وشفيتها المزمومتين وشاح الأرامل الأسود الطويل الذي كانت تلبسه دائماً .

وكانت في تلك اللحظة جالسة في مقعد عتيق من خشب السنديان وقد ألفت بكوعها الى طاولة صغيرة أمامها وأسندت رأسها الى راحة يدها وكانت تفكرّ قائلة في نفسها :

« لقد تحققت أخيراً الهدف الذي كرت له حياتي وجهودي وإرادتي وسعيت الى تحقيقه بصبر طويل ووسائل مختلفة . وقد أصبح ولدي المحبوب هنري ، الملك هنري الثالث بفضل الله ... وبإرادة أمه ! »

وفكرت لحظة أخرى وقالت تخاطب نفسها بصوت مرتفع :
- لقد عملت كل شيء في سبيله ... ومع ذلك فماذا كانت النتيجة ؟ ها أنا الآن وحيدة متنتحية مرذولة محصورة في هذا المسكن الكئيب حيث لا يأتي أحد لزيارتي حتى لقد يُخيّل لي أنني مت منذ زمن طويل ... إن الأولاد عاقون ناكرو الجميل ! وكانت تقول ذلك دون مرارة وتأثر ! ولم تكن الملكة كاترين دي مدسيس هي التي تتكلم في تلك اللحظة بل كانت الأم وهي ماثلة تماماً لجميع الأمهات اللواتي يعبدن أولادهن .
واردفت تقول بإبتسامة عذبة :

- وماذا يضيرني ؟ فالهم أن يكون هو سعيداً .
ولكن ذلك الخنول يدم طويلاً ، فعادت الملكة الى الظهور وقد تحّت شخصية الأم فقالت بغضب شديد :
- ولكن الضجر يقتلني هكذا ولا أريد أن أموت . إن

هنري شاب طائش متعطش الى الملذات ... فإلى من يستند هذا الولد المسكين إلا الى أمه ؟ لقد آن الوقت للتدخل في شؤون المملكة وقد تنحيت عنها مدة أطول مما يجب !

وفي تلك اللحظة دخلت الوصيفة الشابة تعلن أمامها أن الدوق دي سوريانتس يلتبس شرف مقابلة خاصة .
فلم تفكرّ كاترين في إخفاء حركة سرور بدرت منها وقالت بسرعة :

- ليدخل ، ليدخل !
ودخل الدوق فاستقبلته استقبالاً لطيفاً جداً ، ولا عجب في ذلك فإنها كانت تستطيع أن تكيّف نفسها كما تشاء وكانت تريد في تلك اللحظة أن تُسرّ الدوق .

فألحني دي سوريانتس على اليد التي مدتها له ولامسها بشفتيه ، فسألته كاترين باهتمام وقالت : ما وراءك أيها الدوق ؟
فأجاب مطمئناً بقوله : ليس ورائي إلا الخير . فإن مؤامرة الدوق دي كيز بدأت تنضح .

فصاحت كاترين قائلة برضى ظاهر : إنه حقاً خبر سار .
وأضافت تقول بقلق الأم وحنانها : ولكن بحق الله إسهر على ولدي ! إسهر جيداً أيها الدوق .
فطمأنها سوريانتس قائلاً : أنا المسؤول يا مولاتي عن سلامة

الملك لأنني أتبع دي كيز خطوة خطوة .
وقد بدا على كاترين أنها اطمأنت الى ذلك الكلام ، ولكن قلقاً من نوع آخر عصف بنفسها فقالت :

- نعم ، ولكن يجب أن تدع دي كيز يذهب بمؤامرتة بعيداً جداً الى حدّ يشعر معه الملك بحاجة إليّ ويستدعيني الى البلاط .

- لقد فهمت يا مولائي ، فكوفي مطمئنة . إنك تريد أن تقودي دي كيز الى شفير الهاوية ، وأن استدعوك في اللحظة التي يجب فيها اللقاء في تلك الهاوية .

فوافقت كاترين قائلة : هو ذاك .

ثم فكرت هنيئة وقالت : إن تدخل امرأة جميلة ذكية مخلصه يفيد فائدة كبرى في مثل هذه الظروف .
فقال الدوق :

- ربما ، وقد فكرت في ذلك فعلاً ، وسوف يتم الأمر على ما ترغبين . فان امرأة صاعقة الجمال مخلصه ذكية ماهرة ستسيطر على قلب الدوق دي كيز كما أوجّه أنا خطواته .

- إنها خطة ممتازة حقاً ، وأنت رجل ثمين جداً أيها الدوق .
وبعد أن امتدحته وعدته قائلة :

- سوف تكافأ أيها الدوق مكافأة تتعدى كل ما تستطيع أن تتصوره . وستجد ، كبداية ، عندما تعود الى منزلك ، شهادة صغيرة على امتناني لك لأن ملك إسبانيا الذي كتبت إليه بشأنك قد أجابني على رسالتي ... أما رسوله فانه ينتظرك في قصرك .

ثم أذنت له بالانصراف وهي تقول بألف لهجة عُرفت بها :
- إذ ذهب أيها الدوق وكن أميناً ومخلصاً لي وأنا المسؤولة عن وروتك ... أقصد وروتك السياسية لأن وروتك المادية لا تعاس

بها ثروة أخرى .

فأخنى الدوق باحترام عميق وقبّل يدها التي مدتّها له مجدداً وخرج بخطوات هادئة كلها زهو وخيلاء .

من هي من الاثنتين ؟

*

في شارع سان نيكيز ، بين قصر اللوفر الذي يقم فيه الملك وقصر التويلري الذي تقيم فيه كاترين دي مديسيس ، ينتصب قصر كبير فخم بناه الدوق دي سوريانسس على أثر امتلاكه ثروة الأمير دي مونكاييه عن طريق زوجته ، وكان يعيش فيه مع زوجته جوسلين وشقيقتها التوأم هرموزا .

وكانت جوسلين ، أو ذات الرداء الأبيض ، قد تجاوزت في ذلك الحين الثلاثين بقليل ، أي أنها بلغت العمر الذي تكون فيه المرأة في أوج جمالها وتألّقها ونضجها .

ومع ذلك ، والأمر غريب حقاً ، فإن هذين الزوجين الفتيين اللذين تزوجا وهما فقيران على أثر غرام عنيف ، واللذين يبدوان في المجتمعات كأنما يعبد كل منهما الآخر ، لم يكونا ينامان في غرفة واحدة ، بل كانت لكل منهما غرفة نوم خاصة به يأوي إليها عندما يحين وقت الرقاد . ومن المدهش أيضاً أن جوسلين قد جهزت باب غرفتها بمزاليج قوية ، وأنها لم تكن تأوي الى فراشها أبداً إلا بعد أن تثبت تلك المزاليج تشيئاً محكماً .

وعندما كانت الصدفة تجمع بين الدوق والدوقة منفردين ،
كان هذان العاشقان المزعومان يقفان من بعضهما موقفاً بارداً
رسمياً كأن كلا منهما غريب عن الآخر .

لماذا يتصرفان هذا التصرف؟ إنه سرّ قد يتأتى لنا أن نكتشفه
يوماً ما ، ولكننا في الوقت الحاضر لا نستطيع تفسيره .

أما هرموزا ، ذات الرداء الأسود ، التي تُعتبر بكر الشقيقتين
لأنها ولدت قبلها بنصف ساعة ، فإنها كانت دائماً رصينة منكشة
غامضة مقلقة ، وكانت تشغل جناحاً تطل نوافذه على مرفأ السين
حيث تُفرغ حوالة الزوارق الكبيرة التي تخمر النهر ، ولم تكن
تسمح لأحد بالدخول الى ذلك الجناح .

وعندما ترك الدوق دي سوريانتس كاترين دي مدسيس ،
توجه فوراً الى قصره هذا حيث وجد رسول ملك إسبانيا
ينتظره كما قالت الملكة ، وقد سلمه رسائل خاصة وأخذها
وصلا ثم غادر القصر يشيعه الدوق بنفسه الى الباب الخارجي .
وكان سوريانتس قد ألقى نظرة على تلك الرسائل ولكنه لم
يظهر ما يعتدل في نفسه أمام الرسول . ولما ذهب هذا لم يعد
الدوق يستطيع أن يكتم سروره فأسرع الى القاعة وهو ينادي
قائلاً :

— جوسلين اهرموزا !

فظهرتا ، وكعادتها دائماً ، كانت جوسلين خفيفة مرحة
ترتدي الثياب البيضاء ، وكانت هرموزا رصينة غامضة ترتدي
ثياباً من الخمل الأسود بسيطة وأنيقة في آن واحد .

فقال الدوق مغتبطاً :

— إن صاحب الجلالة فيليب الثاني ملك إسبانيا ، ملكي
الكثير العطف حفظه الله ، قد تفضل ووجهه إليّ هذه الرسائل
التي تعينني ممثلاً لجلالته في بلاط صاحب الجلالة هنري الثالث
ملك فرنسا .

فتلقت جوسلين ذلك النبأ بفرح صياني لم تحاول إخفاؤه
وأخذت تصفق بيديها قائلة :

— إنك الآن سفير ، سفير !

فقال سوريانتس وهو ينتصب بكبرياء :

— نعم يا عزيزتي ، إنني سفير لجلالته الكاثوليكية ، أي أني
مثل أقوى ملك في الكون لدى ملك أجمل مملكة للسيحية .
إنه أمر لا يستهان به !

فقالت جوسلين بمرحها المبهود : ولكنك لن تكتفي بذلك
على ما أظن .

فابتسم سوريانتس ابتسامة غامضة وأجاب قائلاً : لنأمل خيراً ،
ولا أظنني مخطئاً .

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً :

— إن صاحب الجلالة ملك فرنسا أعلمني بأنه سيستقبلني اليوم
في قصر اللوفر لأقدم لجلالته رسمياً أوراق اعتمادي .

وسكت لحظة أخرى وتابع يقول بغبطة شديدة :

— لقد لنا الثروة المادية وما هي الثروة السياسية تبسم لنا
الآن ، وإذا كانت هذه متضاهي تلك فلا أعلم عندئذٍ الى أية

ذروة سوف نبلغ .

وقد رفع الدوق والدوقة بذلك الحديث زاوية الستار الذي يغطي نفسها ومطامعها . أما هرموزا فقد لبثت صامتة لا يسير غورها ، إنها لم تنبس بكلمة ولم تُظهر سروراً أو استياءً بل كانت على عاداتها منكشمة شديدة الغموض لدرجة مقلقة . أهو بغض أم حسد ؟ من يعلم ؟

ولكن الشيء الوحيد الذي فعلته هو أنها انسحبت الى جناحها بخطواتها الجميلة الهادئة المتناهية في اللطف ، وعندما بلغت غرفتها كانت الدموع تسيل ببطء من عينيها الجميلتين اللتين لم تُخلقا للبكاء . لماذا تبكي ؟ من يعلم ؟

وفي تلك اللحظة 'سمع صوت البوق يعلن عن زيارة ، فانتفضت الفتاة وتخلصت من الحزن الذي كان يسيطر عليها . ويجب الاعتقاد بأن الزيارة التي يعلن عنها بواسطة البوق هي زيارة بالغة الأهمية إذ أن هرموزا أسرعت بإزالة جميع آثار الاضطراب الذي كان يعترها وعادت الى القاعة التي تركتها منذ بضع دقائق . وكانت الزيارة بالغة الأهمية فعلاً إذ أن الشخص الذي يقوم بها كان الدوق هنري دي كيز الذي بدأ الشعب يدعوه منذ الآن بهنري الكبير ، وقد أتى ، على عادته ، يزور الدوق دي سوريانتس صديقه العزيز الحميم .

وتسلك الدوق دي كيز درجات المدخل القصر الرخامية وكان يتبعه ثلاثة أو أربعة من رجاله فقط ، أما الباقيون فإنهم لبثوا ينتظرون في الفناء العام .

وكان من بين الذين يرافقون دي كيز شخص نعرفه جيداً هو الكونت دي بومبيينيان وكان قد بلغ الآن الواحدة والثلاثين من العمر فأصبح الفقى اليافع الطويل النحيل ، الذي وصفناه في أول هذه الرواية شاكلاً طويل القامة عريض المنكبين ممتلئ الجسم تتفجر ملامحه بجمال الرجولة الحقة . وقد بدت عليه مظاهر الثروة التي سعى في سبيلها واشتهاها بكل قواه حتى أنه لم يتردّد لأجلها في قتل الأمير دي مونكاييه .

وكان الكونت دي بومبيينيان يتحدث بودّ ظاهر مع شاب يضاويه في فخامة الثياب ويكبره ببضعة أعوام هو البارون دي مولستراك رجل الدوق دي كيز الأول ومنفرد مؤامراته وأوامره المشبوهة . وكان من إرثها يتحدثان على تلك الصورة يعتقد أن صداقة متينة مغلصة تربط بينهما ، ولكن الملاحظ البصير لا يخفى عليه أن كلا من هذين الرجلين يبغض الآخر بغضاً شديداً .

وكان الدوق دي كيز يتسلق درجات المدخل الرخامية بسرعة ووجهه يطفح بشراً وكان من المستحيل على أي كان أن يضاويه أناقته في ثيابه الخملية الفاخرة ذات اللونين الأبيض والأسود .

وكان البارون دي مولستراك يقترن رمز تلك الثياب وهو يتسم ابتسامة ذات معنى ويهمس في أذن 'صديقه' الكونت دي بومبيينيان قائلاً :

- الأبيض والأسود هما لونا الدوقة دي سوريانتس الجميلة

وشقيقتها الفاتنة هرموزا ... وأعتقد أن سيدنا هنري الكبير
- أي الدوق دي كيز - قد برّح به الغرام حتى كاد يقتله .
ولكن يا للشيطان ! إلى أي من اللوتين سوف يتحول اهتمامه ؟
إلى الأبيض أم إلى الأسود ؟ إلى جوسلين الجميلة أم إلى هرموزا
الفاتنة ؟ هذا ما لا يعرفه هو نفسه بعد ... وأنت ما تقول أيها
الكونت ؟

فسيطر بومبينيان على نفسه بمجهود جبار وأجاب بلهجة
المزاح نفسها التي يستعملها زميله قائلاً :
- لا يجدر بالصياد الماهر أن يركض وراء طريقتين في الوقت
نفسه ... ويجب على الدوق ألا ينسى ذلك .

وفي الوقت نفسه كان الدوق دي سورباتس يخف لاستقبال
الزائر الكبير عند باب المدخل وهو يظهر له من الحفاوة ما يليق
« بالصدقة » التي تجمع بين النبيلين .

ولما وصل الجميع إلى قاعة الاستقبال الكبيرة انبرت جوسلين
فوراً، وهي لا تخفي السرور الذي ولدته في نفسها تلك الزيارة،
وصاحت بلهجة تأنيب لطيف قائلة :

- لطالما ساءلت نفسي يا سيدي الدوق عما إذا لم تكن قد
نسيتنا ! لا تحمل كلامي على محل اللوم يا صاحب السيادة، ولكن
ها قد مضت ثلاثة أيام طويلة لم نرك خلالها .

فاحمر وجه الدوق ولمع في عينيه بريق الغرام الحادّ والمنحنى
بلطف ملكي حقاً على اليد البيضاء الرقيقة التي مدت بها له وقال :
- إن نسيانك مستحيل يا سيدي لأنك من اللواتي لا يستطيع

الإنسان نسياننّ ما لم ينزع قلبه ودماغه بيده ! أما بشأن غيابي
القاهر الذي سبّب لي كدرأ كبيراً فأنا لا أجرؤ على الاعتقاد حقاً
بأنك شرقتني أعظم الشرف بملاحظته .
فصاحت جوسلين قائلة بخفة :

- ولكنها الحقيقة ، لقد افقدناك كثيراً يا سيدي الدوق .
وصمتت لحظة ثم أردفت قائلة بالحقة نفسها :

- أليس كذلك يا هرموزا ؟

قرأت هذه أن لا مفرّ لها من الكلام فقالت :

- إن مولاي يعلم ، كما أرجو ، أنه يحل دائماً في هذا البيت
على الرحب والسعة .

وقد قالت ذلك بلهجة رصينة لم تتخلّ فيها لحظة عن شخصيتها
الغامضة ، ولكنها أرفقتها بنظرة نارية خلعت على الكلام الذي
تلفظت به معنى عميقاً مختلفاً عن المعنى السطحي الذي يبدو عليه .
فاضطرب دي كيز وتغلغلّت نبرات ذلك الصوت الدافئ
الرصين إلى أعق مشاعره ففسي لحظة تلك التي أعلن لها منذ قليل
أنه لن ينساها وانحنى أمام هرموزا مثلما أنحنى أمامها، وطبع
على يدها القبلة الحارة الطويلة نفسها التي طبعها على يد جوسلين .
وقد شعر بالسرور والغبطة وانتصب راضياً مرتاحاً إذ أنه خيل
له أن هرموزا أيضاً ضغطت بظاهريدها البيضاء الرقيقة على شفتيه
كما فعلت أختها .

وكان الكونت دي بومبينيان يراقب ما يجري بعينين
دمويتين يلتمع فيها بآرق الجريمة الوحشي، وكانت نظراته تنتقل

على التسوالي بين الدوق وجوسلين وهرموزا . ولا لزوم للقول بأنه لا يزال يجب تلك التي يسميها « فارسته » حباً قوياً عاصفاً لا يمكن أن يزول من نفسه طالما بقي فيه عرق ينبض ، ولكنه لم يكن يعلم من من الشقيقتين هي التي يجيها والتي له عليها حق هذا الحب لما فعله في سيدها . ويذكر القراء أنه كان يأمل أن يتزوج من فارسته ويرث بواسطتها جزءاً من ثروة الأمير دي مونكايه العظيمة بعد أن قتل ذلك الأمير غيلة وغدرأ كما وصفنا . وكان يعتقد أن فارسته هي هرموزا ، ولكنه لما أعرب لها عن رغبته في أن يجعل منها الكونتس دي بومينيان ، أجابته بلهجة قاطعة لا تقبل الجدل بأن ذلك مستحيل لأنها ليست حرة .

وعندئذ ظن أن فارسته ليست هرموزا ولكنها جوسلين وهي متزوجة ، فتخلصت عن حمله في الثروة ولكنه لم يتخل عن غرامه المستمر ولا عن حقه في المكافأة الموعودة . وتلك التي جعلت منه قاتلاً ، نفذت وعدها فاستسلمت له ، ولم يعلم إذا كانت تلك هي جوسلين أو هرموزا ، ذات الرداء الأبيض أو ذات الرداء الأسود ، وكل ما علمه هو أنها كانت تتخلصت بالحاتم الذهبي البسيط ذي الباقوتة الحمراء السداسية الشكل .

وكان يعيش منذ ذلك الحين على ذكرى تلك الساعة الجميلة التي قضاهما بين ذراعيها الى أن تجددت تلك الساعة فجأة وأصبحت تتكرر في فترات متباعدة ، فكان الكونت ينسى في لذة اللقاء عذاب الحرمان والغيرة خلال شهور طويلة .

وكان كلما تجدد اللقاء يزداد جهده لشخصية التي تسلمه نفسها ،

وكان مجرد تفكيره في أنه لن يعرفها أبداً ، يكاد يفقده صوابه . والآن ، وهو يرى الشقيقتين تتدللان على دي كيز ، فلن من الإثنتين يستطيع أن يوجه اللوم؟ وكان الغضب والخيرة يعصفان به الى حد أنه كاد يقدم على ما لا تحمد عقباه ، ولكن الدوق دي سوريانتس أنقذه مما يتخبط به . فإنه قطع حبل الهاملات وبدأ الحديث في الأمور الجدية فأطلع دي كيز على رسائل ملك إسبانيا ، فهناك هذا بما يناسب المقام وقال له :

— هيا بنا الى اللوفر ، وبصفتي سيد فرنسا الأكبر فأنا الذي سأدخلك على الملك .

فأخنى سوريانتس دلالة على الشكر ثم ضرب على لوح نحاسي وأصدر أمراً الى الخادم الذي لبس النداء .

وبعد أقل من دقيقة دخل الى القاعة رجل يضع على وجهه قناعاً أحمر لا يرى من خلاله سوى عينين تلوح فيها دلائل الذكاء الشديد وتقدم ينحني أمام رب القصر وزائره الكبير .

فنظر سوريانتس الى دي كيز نظرة ذات معنى وقدم له الرجل قائلاً وهو يضغط على الكلمات :

— السيد غاسبار بنياكل . إنه رجل ثمين جداً لي به ملء الثقة وتستطيع يا سيدي الدوق أن توليه ثقتك المطلقة أنت أيضاً . وقد تفضل بقبول وظيفة وكيلي العام ، وهي دور مؤهلاته بكل تأكيد ، واضطلع بأعبائها بذكاء وتفان . أرى من واجبي أن أشير اليها . إنه رجل يعتمد عليه بكل معنى الكلمة .

فأخنى قاتل ديزارشيل وخاطف رولاند دي مونكايه أمام

الدوق دي كيز بلباقه لا تظهر إلا من كبار النبلاء .

وقد نظر دي كيز بدوره الى سوريانتس نظرة تدلّ على أنه فهم كلامه ، ثم أجاب على تحية بنياكل المتأخرة بالحناءة لطيفة من رأسه وقال متعجباً :

— لماذا تضع هذا القناع ؟

فأجاب سوريانتس مفسراً بقوله :

— إن السيد بنياكل تعرّض فيما مضى لحادث شوّه وجهه وهو أمر مؤسف جداً لأن الطبيعة كانت قد خصّته بوجه من أجل الوجوه .

— ما هو هذا الحادث ؟ هل نستطيع معرفته ؟

وقد وجّه الدوق دي كيز هذين السؤالين الى بنياكل نفسه

فأجاب قائلاً :

— إنها طلقة غدارة يا مولاي . طلقة غدارة محشوة بالبارود فقط تلقّيتها عن بعد بوصتين أو ثلاث من وجهي الذي أحرّقه البارود . أضف الى ذلك أن الذي عالجني كان يجهل مهنته فأصابني نوع من الآكلة أكمل ما بدأ به البارود ، ولكن عينيّ سلطنا لحس الحظ . وهكذا فقد تحول الوجه الجميل الى كتلة لا شكل لها ، كتلة مشوّهة منفّرة ، وتحول الشاب الجميل الذي كنته الى مسخ لا يستطيع أحد أن ينظر إليه دون أن يقشعرّ بدنه هولاً . ولهذا فأنا لا أتخلّى عن قناعي أبداً .

فقال دي كيز مشجعاً :

— من الممكن أنك تبالغ لأن من كانت له بنتيك لا ...

فقاطعه بنياكل قائلاً بحدة :

— لا يا مولاي ، إنني لا أبالغ فانظر !

ونزع قناعه بحركة عنيفة كأنه ينهال بطعنة خنجر ، ولم يكن يبالغ أبداً فقد كان وجهه كتلة فظيعة لا يمكن وصفها ، وكان في القشعريرة التي انتابت جميع الذين حول ما يدلّ على ذلك .

ولكن غاسبار بنياكل لم يلاحظ تلك القشعريرة لأث كل انتباهه كان منصباً على الأختين اللتين تجلسان إحداها الى جانب الأخرى . ولم يكن بنياكل يُظهر للدوق دي كيز وجهه المسوخ الذي فقد كل معالم الانسانية ، بل لها ، أو بمعنى أصح لواحدة منها . ولكن من هي ؟ إنه لم يكن يعلم أكثر مما يعلمه الكونت دي بوميينيان في هذا الشأن . ولكن نظره البارق المعبر كان يقول بجلاء كلي :

« إن إحدا كما تعرف لماذا وكيف شوّهت هكذا . وسوف أعلم ، نعم سوف أعلم من هي شريكتي ! ... »
ولكن الشقيقتين تحملتا نظراته بهدوء تام ثم غادرتا المكان في الوقت نفسه فسارت إحداها بخطوات خفيفة رشيقة ، وسارت الأخرى بخطوات جليّة رصينة .

وعاد بنياكل يضع قناعه وهو يتنهد تنهد العاجز الكليل بينا كان سوريانتس يقول له :

— إذهب يا سيد بنياكل وضع ثوبك الرسمي لأنك سترافقني الى اللوفر .

فألحني بنياكل بصمت وخرج من القاعة . ولما وصل الى

رواق . مظلم اصطدم فجأة بامرأة لم تكن ذات الرداء الأبيض أو ذات الرداء الاسود ، بل كانت شبحاً ملتقاً من قمة الرأس الى أخمص القدمين بمعطف فضفاض لا لون يميزه ، يلبس في إصبعه الخاتم ذا الياقوتة السادسة الحمراء وقد رأى بنيماكل كل ذلك بسرعة البرق وفي الوقت نفسه كان الشبح الخفي يمس في أذنه جواباً على النظرة التي ألقتها في القاعة منذ قليل ، قائلاً :

— يجب ألا تعلم ! وإذا كانت وظيفتك هنا لا تحقق مطامعك فسوف تحصل على وظيفة أخرى تفوقها من جميع النواحي . فلازم الصمت وكفّ عن البحث ، إن ثروتك مؤمنة طالما أنت تجهل ... والزبل لك إذا عزمت يوماً !

ولم يكذب بنيماكل يعود من دهشته حتى كان الشبح قد اختفى دون أن يستطيع أن يعلم أين وكيف . ولما عاد الى القاعة ليضع نفسه تحت أوامر الدوق دي سوريانتس كانت هرموزا تدخل من باب وجوسلين تدخل من آخر في الوقت نفسه .

فاستأذن الدوق دي كيز من المرأتين وخرج متأبطاً ذراع سوريانتس وقد سار وراءهما بوميينيان وموليستراك والتبيلان الآخران اللذان رافقا دي كيز الى القاعة . وكان غاسبار بنيماكل يسير بين هؤلاء وهو يلبس ثوبه الأسود الفاخر ويضع قناعه الأحمر على وجهه . وبعد لحظات ركب الجميع الجياد وغادروا قصر سوريانتس .

وبعد ذهاب الدوق دي كيز مباشرة استقلت جوسلين وهرموزا عربة فضمة وذهبتا تردان الزيارة للدوقة دي كيز التي

تنتظرهما في قصرها الرحب الكائن في شارع شوم .

سفير إسبانيا

*

نحن الآن في اللوفر ، في القاعة التي زينها المهندس بيار ليسكو بمختلف التحف وركّز قناطرها على أربعة تماثيل حجرية رائعة من صنع المثال جان غوجون فسُميت لذلك قاعة التماثيل . وفي صدر تلك القاعة دكة فسيحة مستطيلة الشكل يُرقي إليها بوضع درجات وقد فُرشت بسجادة ملوّنة ثمينة وجلس في مقاعد صُفّت على جانبيها الوزراء وأمناء سرّ الدولة تحت قيادة الكردينال دي بيواغ المعجوز مستشار فرنسا العام .

وكان هنري الثالث ، وهو الآن في السادسة والعشرين من العمر ، يجلس منفرداً على عرش مذهّب أقيم تحت رف مزخرف وقد علتى سبحة في منطقتة وحمل كتاباً بيده وارتدى ثوباً قائم اللون بالغ الأناقة فكانت هيئته ملكية حقاً .

وفي ذلك الجو الرائع تقدّم الدوق دي سوريانتس ، يقوده الدوق هنري دي كيز ، فوقف أمام الدكة حيث المنحى باحترام عميق ثم انتصب ولبث ينتظر الى أن قدّمه دي كيز رسمياً بصوت قوي رتّان .

وقد استقبل الملك السفير الجديد بلطف لا مزيد عليه وقال مبتسماً :

- إن أخانا المحبوب فيليب الثاني ملك إسبانيا لم يكن يستطيع أن ينتقي سفيراً ينال إعجابنا ورضانا أكثر منك يا حضرة الدوق . لقد كنت من جملة بطانتنا وبسرنا أن نراك دائماً في عداد أصدقائنا المحبين فأرجو أن لا تنسى ذلك .

فأخنى سوريانتس وأجاب قائلاً :

- لقد شملتني جلالتك بعطف عظيم أشكرها عليه بكل إخلاص وسوف أفعل ما هو فوق طاقتي لأكون جديراً بما كلفني به جلالة ملكي ، وأهلاً للصدقة الجميلة التي تربطني بهذه البلاد الجميلة العظيمة التي أصبحت بلادتي تقريباً .

وبعد أن قدم الدوق دي سوريانتس أوراق اعتماده رسمياً نهض الملك هنري الثالث ونزل درجات الدكة بخطوات جلييلة ثم تقدم من السفير الجديد وأخذ يتحدث معه بودة ودون كلفة .

وعندئذ اقترب الدوق دي كيز وأخنى يحمي الملك باحترام ، فتنازل هذا وشرقه بإتسامة صفراء قائلاً :

- إنني لن أنسى يا ابن عمي أنك وافقت على القيام بدور تقديم السفراء المتواضع لتشرق الدوق دي سوريانتس الذي هو من أصدقائي .

وكان من الواجب أن يكتفي الدوق دي كيز بتلك الكلمات التي تدل على رغبة الملك في توسيع الشقة بينها ، فعرض شفقيه ورمق الدوق دي سوريانتس بنظرة طويلة تدل على ما يعاينيه من جراء التحقير الذي ناله . فأجابه سوريانتس بنظرة تعني أنه سوف يتأتى له أن يأخذ بثأره . ثم التمس من الملك مقابلة خاصة وقال :

- إن ما ألتسه يا مولاي لا يحتمل التأجيل لأن الأمر بالغ الخطورة وهو قضية حياة أو موت .

فأزعج هنري الثالث من جراء هذا الكلام ولكنه لم يكف عن الإبتسام وقد أجاب سوريانتس الى ما يلتمسه وسار أمامه الى قاعته الصغيرة الخاصة حيث دخلا وحدهما ، فتهاوى هنري الى مقعد وسأل قائلاً :

- ما الخبر ؟

فأجاب سوريانتس قائلاً بلهجة خطيرة أزعجت الملك :
- لقد كنت يا مولاي منذ قليل عند جلالة الملكة الأم وكانت قلقة جداً عليك .

فقال الملك : وما الذي تخشاه السيدة كاترين ؟

فقال سوريانتس دون مواربة :

- السم يا مولاي ! وحسب معلوماتي الشخصية أعتقد أنها بحقة في خوفها .

فوقع هذا الكلام على هنري الثالث وقع الصاعقة فاصفر وجهه وارتجحت مفاصله ولكنه حاول أن يتالك نفسه ، وكان سوريانتس يراقبه باهتمام فعمل أنه يرتعش في داخله عندما أجاب قائلاً بصوت هادئ :

- عندما يروق للديتان الأعظم أن يدعوني إليه فسوف أمثل أمام قضائه الرهيب دون خشية ودون تعب ضمير .

فقال سوريانتس بحدة : يجب أن تدافع عن حياتك يا مولاي .

فقال الملك بقوة : إن هذا ما أريده .

ثم هزّ رأسه وأردف يقول : ولكن كيف أناضل ضد السمّ ، هذا السلاح الفتاك الرهيب ؟

وقد أجال رغباً عنه نظرات خائفة في جوانب القاعة كأنه يحاول اكتشاف ما يربعه ولكن سوريانتس طمأنه قائلاً :

إن اكتشاف السمّ يا مولاي أمر سهل جداً على الذي يعرفه جيداً ، ويكفي أن تلتحق بخدمتك رجلاً درس السموم درساً عميقاً شاملاً وعرف سبل الوقاية منها ، فإذا كان مثل ذلك الرجل قرب جلاتك فسوف تكون مهمته أن يخلّل كل ما يريد الملك أن يأكله أو يلمسه وعندئذٍ تستطيع أن تعيش آمناً مطمئناً .

فقل الملك باهتمام كلي :

— على شرط أن لا يستخدم الرجل علمه ضدي وأن لا

يسمعي هو نفسه !

فأجاب سوريانتس قائلاً : هذا مفهوم .

فسأله الملك فجأة يقول : وأين نجد هذا الرجل ؟

— إنه تحت متناول يدي يا مولاي ، إنه لي ، وسأعطيك

إياه إذا أردت ... وهو هنا في اللوفر لأنني أحضرته معي ، فهل

تريد أن أدعوه ؟

فقال الملك دون تردد : ليحضر .

وبعد أقل من دقيقة كان غاسبار بنياكل يدخل القاعة وينحني

باحترام أمام الملك ، وكان قناعه المعبود دائماً على وجهه فأثار منظر

القناع قلق هنري فسأل قائلاً بحدة :

— ما هذا القناع ؟

ولم ينتظر الجواب بل أردف يقول :

— يجب أن تكشف جميع الوجوه أمام الملك فاتزع هذا

القناع أيها السيد .

فأطاع بنياكل وهو يقول بمرارة : لن يستطيع الملك أن

يتحمل رؤية وجهي .

وقد تراجع هنري الى الوراء عندما رأى ذلك الوجه وهو

يصيح قائلاً برعب شديد : خبيء ذلك بحق الله ، خبيء ذلك !

فأطاع بنياكل أيضاً وهو ينحني كمن يقول : « لقد أنذرتك . »

وقد أثار منظر الوجه المرعب تأثيراً شديداً على الملك فأخذ

يتأمل بنياكل باشمزاز ظاهر وقد بدا عليه أنه يتردّد في إلحاقه

بخدمته ، فلاحظ سوريانتس ما يعمل في نفس الملك فذكره

بالخطر الذي يهدد حياته وأكد له أن هذا الرجل هو وحده الذي

يستطيع إنقاذه من ذلك الخطر . وسئل بنياكل ، فتعهد مقابل

رأسه بأنه سيقي الملك من كل محاولة تسميم . فتردّد هنري أيضاً ،

ولكن خوفاً من الموت كان أقوى بكثير من قرفه من رؤية الوجه

المرعب فقال أخيراً :

— لقد قررت أن تبقى قربي على شرط أن لا ترفع هذا

القناع أبداً عن وجهك .

فأجاب بنياكل قائلاً ببساطة : لقد كنت على وشك أن

ألتبس هذا الأمر من جلاتك .

فوافق الملك بإشارة سريعة من رأسه وأدخل بنياكل فوراً

الى جناح صغير قرب جناح الملك وبعد أقل من ساعة أصبح

ذلك الجناح مليئاً بالقوارير والأنايب وكل ما يلزم للدرس والتحليل ، وبدأ ينيأكل عمله فأخذ يحلل كل ما يريد الملك أن يأكله أو يشربه أو يلبسه في مساء ذلك اليوم نفسه . وكان هذا الرجل الحقيير الذي رأيناه مساعداً للأستاذ لوران ديزارشيل ووكيلاً عاماً لسورياتنس ، يقوم بعمله الآن في اللوفر كأمر الكيائيين .

وفي ذلك الوقت كان الملك يقول لسورياتنس وقد تجهّم وجهه فجأة :

— ها إنني بفضل إخلاصك مطمئن من هذه الناحية ، ولكن ماذا تخشى عليّ من ابن عمي دي كيز ؟

— كل شيء يا مولاي إذا تركناه وحده ، ولا شيء طالما أنا صديقه !

وقد قال سورياتنس ذلك بإطمئنان الواثق . ففكّر الملك لحظة وقال بإبتسامة لطيفة :

— إيقّ صديقه إذن ما دامت هي الوسيلة الوحيدة لتظل صديقي . وامتدّت المحادثة الخاصة بضع دقائق أيضاً عاد الملك بعدها إلى القاعة العمامة برفقة سورياتنس وكان يظهر له لطفاً زائداً ويباطه ويمارحه مما جعل جميع الحاضرين يشعرون بأن سفير إسبانيا الجديد يتمتع برعاية خاصة من ملكهم فتألّبوا حوله وهم يتسابقون إلى خطب وده .

وغادر الدوران دي كيز وسورياتنس قصر اللوفر وكان يرافق الإسباني بضعة رجال فقط بينما كانت حاشية دي كيز

جديرة بملك ، وقد ضمت ما عدا بومبيينان وموليستراك والنبلاء المائتين والخمسين المنتقنين من أعظم عائلات فرنسا ، ضمت عشرين ضابطاً مرموقين ومشهوداً لهم بالكفاءة والشجاعة مثل شاموا وبوادوفين وسان بول وديشيفول ومنيفيل ومن إليهم . وكان سورياتنس يسير مع دي كيز جنباً إلى جنب ، فهمس في أذنه قائلاً :
— لقد تمكنت من وضع جاسوس قرب الملك وسوف نطلّع على كل ما بيننا ساعة بعد ساعة . قلت 'جاسوساً' ولكنه قد يكون أفضل من ذلك بكثير لأن أحداً لا يعرف السموم مثله .

فلبت دي كيز لحظة مفكراً ساهماً ثم ضرب بقوة على مقبض سيفه الثقيل وهو يقول :
— هذا هو السمّ الأفضل !

الدوقة دي كيز

★

لقد قلنا إنه بينما كان سورياتنس ذاهباً إلى اللوفر برفقة دي كيز ، سارت زوجته وشقيقتها هرموزا لرد الزيارة إلى كاثرين دي كليف دوقة دي كيز .

وكانت تلك الدوقة شابة جميلة خفيفة مرحة تنسجم طباعها في بعض النواحي انسجاماً تاماً مع طباع جوسلين دوقة دي سورياتنس ، وقد أدى انسجام الأذواق والميول هاتين المرأتين

الى الارتباط بصدافة وثيقة .

أما هرموزا فكانت دائماً كما عهدناها رصينة قليلة الكلام
تكنتفي في معظم الأحيان بأن تلاحظ ما يجري حولها بصمت .
وبعد أن تعانقت كاترين وجوسلين بحنان جلست هذه في
مقعد وصاحت تقول فوراً بخفتها المعهودة :

- لدي خبر سار" أيتها الدوقة العزيزة ! إن الدوق دي
سورياتنس قد عُيِّنَ سفيراً لإسبانيا وهو الآن يقدم أوراق
اعتماده للملك .

- وهل أنت سعيدة بهذا التعيين !

- دون شك .

- في هذه الحالة يا جميلتي أهنئك من كل قلبي .

وقد قالت دوقة دي كيز الجميلة هذا القول وهي تظ شفتها،

فلاحظت جوسلين ذلك وقالت :

- إنك تقولين لي ذلك بهيئة مضحكة .

- هذا لأنني لا أرى الفائدة التي تجنيها من ذلك التعيين الذي

يسعدك كل هذه السعادة ...

- كيف تقولين ذلك ؟ ألا تعلمين أنه عندما يكون زوجي

سفيراً لإسبانيا نصبح من أصفياء الملك هنري الثالث ونُدعى

بالتالي الى جميع الأعياد والحفلات ؟

- إذا كنت تحبين التملق والسير حافية على البلاط الناتئ

والشباب والجماع والمزاح والكلام الفارغ ، فهذا شأنك .

وقد قالت ذلك بلهجة أضحكت جوسلين فأسرعت تقلدها

قائلة :

- أنا لا أجمل وجود كل ما تقولينه في بلاط فرنسا ، ولكن
الدوق دي سورياتنس بصفته سفيراً في ذلك البلاط ، يستطيع
أن يؤدي خدمات كبيرة للدوق دي كيز زوجك .

فصاحت كاترين قائلة :

- أنا لا أحبذ تدخل المرأة في السياسة ولا أستطيع أن

أحدث فيها ، أما فيما يتعلق بالدوق زوجي فأنا ... أنا لا ...

وأرتج عليها ، فقهقتها المرأان قهقهة طويلة ، وكانت هرموزا

تسمع تلك السخافات بوجه رصين جامد القسما لا يُسبر غوره

فسألته كاترين قائلة وهي تضحك :

- وأنت يا جميلتي ، هل تهتمين بالسياسة ؟

فأجابت هرموزا قائلة باقتضاب : نعم . ثم خرجت قليلا عن

جمودها وتابعت تقول :

- إن السياسة مهنة شديدة الخطورة وهي أمتع مهنة في

نظري . فما أجمل دفع الرجال الى الخير أو الى الشر والتحكّم

بصيرهم ، كأن تربي رجلاً أجمعت الآراء كلها على نعته بالرجل

العظيم لعبة بين يديك تسيطرين على قلبه وتوجهينه وفق أهوائك

وممولك الى حد أنك لو أردت لأقدم ذلك الرجل والسيوف في

يده على احتلال الكون وطرحه تحت قدميك ، ثم إنك بواسطته

تسيطرين على الألوف والملايين من الرجال فيخضعون كلهم وفق

أوامرك . إن ذلك لا يستهان به على ما أعتقد . فلماذا إذن لا

تتدخل المرأة في السياسة ؟ يلوح لي ، أنا شخصياً ، أنها لم تخلق

إلا لذلك ... ولا بد أن يكون مخترع السياسة امرأة . ألقى نظرة على أحداث التاريخ من أبتازيا الى أنياس سوريل ، تري أن المرأة كانت دائماً شديدة الفعالية في السياسة ، ولطالما حلت وتتميت أن أكون واحدة من هؤلاء النساء !

- وإلام كنت تدفعين الرجال ؟ إلى الخير أم الى الشر ؟

- لا أعلم ، ولكن ...

وسكنت هرموزا فجأة وعادت الى الانطواء على نفسها فبدت جامدة مقلقة كما بدتها .

فقالت كاترين - الدوقة دي كيز - ضاحكة :

- لتذهب السياسة الى الجحيم ! لأن لدينا وشه الحمد وسائل

السيطرة على الرجال ! لدينا الحب يا جميلتي وهو السيد الوحيد المطلق الذي يسيطر ويتحكم بكل شيء ، وهو ليس مزعجاً كالسياسة لأنه يسعد الجميع ، التبناء والعامة ، سيدات المجتمع وبنات الشوارع .

وبعد هذا الكلام بدأت جوسلين وكاترين تنتقدان بلاط

هنري الثالث ، وقد أعلنتا أخيراً أنه مزعج كالسياسة .

وفي تلك اللحظة أتى خادم يعلن قدوم الكونت دي سان

ميغرين وقد دخل هذا على الأثر وكان مثال الرجل الأنيق حسب

مفهوم ذلك العصر ولكن كان في أناقته بعض التخنث والمبالغة .

إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يكون شجاعاً محبوباً .

وقد تقدم بلطف وحذر كأنه يخشى أن يفسد انسجام

لبسه البديع ، وانحنى فقبل أولاً يد الدوقة دي كيز ثم يد كل

من جوسلين وهرموزا .

وبعد أن تبادل الجميع الجاملات التي لا بد منها عادوا يتابعون

الحديث في الموضوع نفسه الذي كانت الدوقة دي كيز وجوسلين

تتبادلانه قبل وصول الكونت ، وقد اشترك هذا معها الآن

ويظهر أن الموضوع كان يلذه بمقدار ما يلذ المرأتين .

أما هرموزا فإنها عادت الى صحتها المعتاد مكتفية بالإصغاء

والتأمل . ولم يكن بين المرأتين وسان ميغرين أي أثر للكلفة ،

وقد بدا على الشاب أنه مقتبط جداً بقاء الأختين ولم يبدُ على ربة

الدار أي أثر للانزعاج أو ضيق الصدر ، ولكن جوسلين كانت

حساسة جداً وقد لاحظت أن وجودها ووجود أختها قد يضايق

الكونت والدوقة فكثت هنيئة أيضاً بمقدار ما تقتضيه اللياقة

ثم استأذنت بالانصراف وشعرت عندما ودعتها الدوقة وعانقتها

أن صديقتها شاكرة لها ذلك الصنيع .

وما إن خرجت الأختان حتى أقلت الدوقة دي كيز بنفسها

بين ذراعي سان ميغرين وتعاقت العاشقان طويلاً .

وقد لبثا متعانقين بضع دقائق لم يكن يُسمع خلالها سوى

كلمات منقطعة وتنهيدات وزقزقة قبيل ونسيان في تلك اللحظة

كل ما عداها حتى أن سان ميغرين لم يعد يلقي بالأل الى إفساد

ثوبه الفاخر الأنيق الذي حرص عليه كل الحرص منذ قليل .

وعادا من سماهما ولبثت اليدان في اليدين والعينان في العينين

وكانا يتأملان بعضها برضى وغبطة الى أن نهض سان ميغرين

وقد نجهم وجهه فجأة وقال بمرارة :

- إن الدوق يشكّ فينا ، وأنا على يقين من أنه قد كلّف بعضهم بمراقبتنا ! إن هذه الحياة التي نحياها لا تطاق ، ومن الظلم أن نرى بعضنا بضع ثوانٍ من بعيد لبعيد بينما لا تكفينا الحياة كلها لتنعم بكامل حبنا . لا يمكن أن يدوم الأمر هكذا وإلا فقد أجلب الويل على نفسي ... فما العمل يا ربي ، ما العمل ؟ وكان يطرح هذا السؤال على نفسه ولكن الدوقة فكرت قليلاً وأجابت قائلة :

- يجب أن ألتحق بخدمتي فتاة تكون لي فيها ثقة تامة . نعم هذا ما يلزمي ! وسوف أبحث عن تلك الفتاة وأجدما . ولما كان سان ميغرين يسألها بنظره عن غايتها ، فإنها تعلقت بعنقه وهمست في أذنه تقول :

- صبراً يا حبيبي صبراً وثق بي لأن ما تريده المرأة يريدك الله كما يقولون . وأنا أريدك بمقدار ما أنت تريدني ، فدعني أعمل وسوف ترى أنك لن تأسف في النهاية .

في ساحة غريف

*

بعد خروج دي كيز وسوربانيس من اللوفر أراد السفير الجديد أن يرافقه صديقه إلى قصره ، فسار الموكب على أرضفة النهر لغاية الشاتليه ، وكان الناس يهتفون لهنري دي كيز ويحيونه بتحية الملوك وكان هو يجيبهم بلطف يزيدهم حماساً وهاثافاً .

ولما أطلّ الموكب على ساحة غريف خفّف الفرسان من سرعة جيادهم لأن الساحة كانت غاصة بالجماعير وقد نصبت في وسطها محرقة كبيرة لم يكن ينقصها إلا الإشعال ، فأوقف دي كيز جواده وسأل قائلاً :

- ألعنهم ينفذون حكماً بالإعدام في هذه الساحة ؟ فأجاب نبيل من أتباعه قائلاً :

- نعم يا مولاي ، إنهم يريدون إحراق ساحرة !

فوجه دي كيز كلامه إلى سوربانيس قائلاً :

- يا لله ! بما أن الصدفة قد ساقتنا إلى هنا فما قولك في حضور هذه الحقة؟ لعلّ في ذلك ما يذكرك بمحارق إسبانيا الجميلة ! فانتصب سوربانيس بكبرياء وأجاب قائلاً :

- ومن أين لهذه الشعلة الصغيرة أن تذكرني بمحارق بلادي العظيمة الهائلة التي لا يمكن لأحد أن يكون فكرة عنها ما لم يرها ؟ ولكن لا يهم ، فإن فرصّ الله أصبحت نادرة جداً منذ وقت ليس بقليل ، قلنغتم إذن هذه الفرصة التي عرضت لنا دون أن نبحت عنها .

- إنك لن تنتظر كثيراً ... فما هي الساحرة اللعينة ! وكانت التي لقبها دي كيز بالساحرة اللعينة عجوزاً تعسة مهدّمة تنظر إلى ما حولها كالمحبولة وهي لا تفهم أبداً كيف أنهم يكافئون بالموت حرقاً على عمل بعض الخير في مجتمعا . وكانت فقيرة بائسة حزينة النظرات رثة الثياب ، ولكنها لم تكن تريد أن تموت ، فكانت تقاوم بأفضل ما عندها وبما

تستطيعه قواها الواهية ، وقد انبطح على الأرض وجعلت
تتقلب فكان المحيطون بها يجرّونها جرّاً وهي تطلق الصيحات
المتوسلة والنداءات المؤثرة وكانت من وقت الى آخر تصرخ قائلة :
- إليّ يا جيل ! النجدة يا ولدي !

وكان حول المحرقة ، في الصفوف الأولى وهنا وهناك بين
الجماهير ، وجوه رهيبية مقلقة كما يوجد دائماً في الظروف المائلة .
وفي الصف الأول ، أمام المحرقة تماماً ، كان يوجد أحد تلك
الوجوه وهو متشرد نحيف يُدعى « جيل الذئب » وهو ابن
الضحية التي تستحش على نجدتها بتلك الصيحات المؤثرة التي لم تكن
تصل الى مسامعه بسبب الضجة الهائلة التي تهدر حواليه وصيحات
الموت التي تشق عنان الفضاء .

وكان وجه « جيل الذئب » في تلك اللحظة ينضح بأسى مرير
ولوعة مؤثرة وكانت الدموع الغزيرة الحارة تسيل دون انقطاع
على خديّه المكسوبين بآثار الجراح وتضيق في حية كثنة قاسية
كأنها شعر خنزير بري ، وكان يتكلم بنوع من الهدوء المتشرد
المهترق قائلاً للذين حوله :

- ماذا ؟ أريدون أن تدعوا تشوى أيها الجبناء الأندال ؟
إنكم كلكم ما تزالون أحياء بفضلها لأنها اعتنت بكم وشغتك حين
لم يكن لديكم ما تدفعونه أجرة للطبيب ... أهذه هي معرفة
الجميل ؟ وماذا فعلت العجوز المسكينة طيلة حياتها إلا الخير ؟
قبل عمل الخير جريمة ؟

وصدف أن كان قرب « جيل الذئب » في تلك اللحظة شاب
تلوح في وجهه الجراءة النادرة بأجلى معانيها ، وقد سمع حديث

المتشرد المؤثر فظهرت على عيائه النبيل علائم الشفقة والرتاء .
وكان هذا الشاب الفارس هوبير دي راكستان ... وقد بدا
عليه أنه لم يحصل على الثروة في باريس فكانت ثيابه لا تزال رثة
بالية ولكنه كان يرتديها ، على عادته دائماً ، بفخر واعتزاز
ولامبالاة لم تكن تدع أحداً يفكر في انتقادها وخاصة بعد النظر
الى وجه صاحبها الذي يفيض شجاعة وثبلاً والى عينيّه المرحتين
اللتين تتحديان جميع الأخطار ، والى تلك القامة الطويلة الرشيق
التي تشبه نضلة من أصفى أنواع الفولاذ ، وأخيراً الى السيف
الطويل الماضي الذي يحبب جنبه إن مشى ، والذي لا يمكن أن
يتقلده إلا من كان طويل النجاد مثله .

ولما رأى هوبير أن جميع الذين خاطبهم جيل الذئب يلزمون
الصمت عصفت به النخوة فسأل قائلاً :

- أقول إنها لم تفعل الشرّ أبداً ؟

فارتعش جيل الذئب وقد شام من خلال لهجة الشاب بارقة
أمل وأجاب قائلاً ببساطة :

- إسأل هؤلاء .

وأشار الى الذين يحيطون به مباشرة وكان بينهم متشردون
مثله وبعض التجار والأغنياء .

فقال أحد المتشردين : إنني مدين لها بحياتي ، وأدعى بوتوا
لالتيس .

وقال ثانٍ : أنا أدعى ماكلو الصاعقة ، وقد شففتني من حمى
خبیثة .

وقال ثالث : وأنا أدعى ريبو لاردور ، وقد شفتني من طعنة
خنجر خطيرة جداً .

فقال الفارس دي راكستان بحزم : إذن ، يجب ألا تحرق ا
وقد قال ذلك وهو يضحك كأنما الأمر الذي يدعوه إليه من
أبسط الأمور ، فآثر هدوؤه في المحيطين به تأثيراً كبيراً حتى
أن جيل الذئب نفسه بدأ ينظر إليه بإعجاب وإكبار .

ولكن راكستان لم يبدِ ما يدلّ على أنه لاحظ التأثير الذي
أحدثه بل وقف على أصابع قدميه وألقى نظرة سريعة شاملة من
فوق الرؤوس فرأى المحكوم عليها بالحرق على بعد مائة خطوة
تقريباً من المحرقة ، فقال يخاطب نفسه :

— حسناً ، إنهم لن يبلغوا المحرقة قبل دقيقة أو دقيقتين فيما
إذا لبثوا سائرين بتلك الخطوات .

ثم استدار على نفسه وكان وراءه رجلان يرافقانه وقد سمعا
كل ما قاله . ولم يكن من لزوم للنظر مرتين للتحقق من أن
هذين الرجلين مبارزان رهيبان ، وكان أحدهما عملاقاً ضخماً الجثة
فوجه راكستان إليه الحديث قائلاً :

— ما قولك في ذلك يا ميلورد جندارم ؟ تكلم .

فقال العملاق وهو يلقي الى ما حوله نظرات هائلة :

— أنا لا أقول شيئاً ... ولكن ليأتوا وسوف نرى .

فابتسم راكستان قائلاً : هذا جليّ تماماً .

ثم التفت نحو الرجل المعتدل القامة وقال : وأنت يا

ماراسكين ، ما تقول ؟

فقال ماراسكين بلهجة ذات معنى : أقول إننا نتحدى الموت ؟
ثم أردف فوراً : ولكننا برفتك قد ننجو منه .

ولبت الرجلان متأهين للزوال ، وعندئذٍ سمع صوت يقول :
— أقسم بالسيدة العذراء أنني سوف أسحب أمتعاه كل من
تسوّل له نفسه أن يعترض طريق عدالة الملك بالسهولة نفسها التي
أدعى بها سبارتيموسكا .

وكان الذي نطق بهذا الكلام رجلاً أشبه بالمهرجين ، وكان
يتكلم وهو ييجيل حوله عينين بارقتين ويفتل شارباً طويلاً كثيفاً
ويضرب الأرض برجله فيحدث ضجة تفوق ضجة أربعة رجال
مجتمعين . ولكن سوء حظه شاء أن يكون قرب ميلورد جندارم
وقد مدّ العملاق ذراعه ليزيح المعطف عن كتفيه قليلاً فاصطدمت
قبضته الهائلة بقم ذلك الذي يدعوه نفسه سبارتيموسكا فسقط
المهرج على الأرض والدم يتدفق من أنفه .

فانتب راكستان العملاق قائلاً بلهجة صارمة :

— يا لك من فظة غليظ ! ما حاجتك بضرب هذا المهرج
الشجاع الذي يحافظ على عدالة الملك؟ وما إنك قد آذيته وجرحته .

فاعتذر العملاق قائلاً : ولكني لم أفعل ذلك قصداً يا سيدي .

لقد كنت أصالح من وضع معطفي ...

فقال راكستان بإسماً : إذن فأنت معذور .

ثم التفت الى جيل الذئب وقال له :

— سنحاول أن نخلص أملك من المحرقة ولكن لا بدّ أن

يكون لك بعض الرفاق الشجعان بين الجمهور ، أليس كذلك ؟

- إنك ولد يريد إنقاذ أمه البريئة وهذا يكفيني . أما ما يتعلق بموتي فلا يعني إن كان هنا أو في أي مكان آخر .
فظلّ المتشرد على تردّده . فقال راكستان بلهجة أكثر لطفاً:
- إذا كنت تريد إنقاذ أمك - كما فعليك أن تفعل ما قلته لك دون أن تهتمّ بأي شيء آخر .
فرمقه جيل الذئب بنظرة لا يمكن تحديدها فيها من عاطفة الامتنان والإعجاب ثم قال بصوت متهدج :

- حسناً ، هيا بنا !
وساد الصمت بين الفارس ورفاقه بضع ثوانٍ . وكانت العجوز التعمة قد وصلت في ذلك الوقت الى قرب المحرقة حيث كان راكستان ينتظرها .

وعندئذٍ انقضّ الفارس على الرجال المحيطين بالعجوز كأنه الصاعقة . ومن المدهش حقاً أنه لم يكن أحد يستطيع أن يعرف في هذا الأسد الوثاب المشتعل العينين ، ذلك الشاب المرح البسيط المتواضع الذي كانه في اللحظة السابقة .

وقد انقضّ على الحرس وفعل رفيقاه مثله وضحّ ما توقعه جيل الذئب فوراً فإنّ متشردين آخرين انضموا بسرعة الى الفارس عندما أروه يهاجم الحرس وهم سعداء في نفوسهم بالهجوم على رجال السلطة .

وكانت الصدمة هائلة بمقدار ما هي مفاجئة ، وقد اعترى الحرس ذهول شديد فتخلّوا عن فريستهم . وصحيح أن ذلك لم يكن لوقت طويل ، ولكنهم عندما عادوا الى نفوسهم

- لدي بوتوا لالتيس وماكلو الصاعقة وريبولاردور وم رجالي الأخصاء الذين يتبعونني دون أي تردّد ، وقد ينضمّ إليّ بعض الرفاق المخلصين أيضاً عند بدء المعركة .

فألقي راكستان على الذين سبّاهم جيل الذئب نظرة فاحصة فأشرق وجهه بابتسامة رضى وقال بلطف : لن تحرق أمك أبداً
فقال جيل الذئب بصوت مختنق : إذا فعلت هذا معي فإنني لن ...

فقاطعه راكستان قائلاً في هدوء : من عادتي أن أحافظ على وعدي .

فكرّر جيل الذئب قوله : إذا فعلت هذا معي ...
فابتسم راكستان وقاطعه قائلاً بلطف : لقد فهمت ما تريد قوله فلا تحاول المزيد ...
وأردف يقول بلهجة أمرّة :

- والآن هذه هي الخطّة : ستأخذ أنت رفاقك الثلاثة ويظلّ باقي الرجال معي . وعندما تصل أمك أمامنا ، وما هي تقرب ، نهجم نحن الحرس فلا تهتمّ بنا بل اجعل هدفك الوحيد أن تأخذها وتغادر الساحة وتكون نحن ذلك الوقت مشتبكين مع الحرس ولن يلقي أحد بالاً إليك ، وسوف نصمد الى أن تبتعدوا عن نطاق الخطر .

فتردّد جيل الذئب وقال متأزراً :
- ولكنك ستموت دون شكّ في سبيلي وأنت لا تعرفني يا سيدي .

وانتظموا في صفوف متراسة ليجاهروا السيوف التي تخترق أجسامهم بسرعة البرق ، كانت المعجوز قد اختفت ، وكان مساعدا الجلاء اللذان يسكنها مطروحين على بلاط الشارع دون حراك . وهناك ، في مكان بعيد عن المحرقة ، كان بوتوا لالتيس وماكلو الصاعقة وريبولاردور يطعنون ويضربون في صدور الجماهير وأقبيتهم ويفتحون طريقهم أمام جيل الذئب الذي كان يحمل أمه .

وقد حصل عندئذ ما توقعه راكستان ، فإن الحرس والجنود والجهور ساءم أن يتعرض بعض الرجال لعذابة الملك ... فأرادوا أن يسترجعوا فريستهم مها كلف الأمر ، فحملوا بدورهم على المهاجرين .

فتلقى راكستان الصدمة بمساعدة ميلورد جندارم وماراسكين وحوالي عشرين متشرداً ، وكان قد وعد بالصمود وقتاً يسمح لجيل الذئب أن يبلغ بأمه مكاناً أميناً ، فكان أهون عليه أن يقطع إرباً في مكانه من أن يخلف بوعدة ، فحمل حملة جبارة على رجال السلطة وكان يظهر بسيفه الطويل الماضي الذي أصبح الآن كأنه جزء لا يتجزأ من الذراع الفولاذية التي تظعن هنا وهناك فتخترق الصدور وتقلق الجماجم ، كان يظهر بسيفه هذا في كل مكان في آن واحد ! وكان المهاجرون كيفما توجهوا وأبنا حلوا يرون أمامهم ذلك الشيطان الرهيب الذي يلذعهم بذبالة سيفه ويحطم رؤوسهم بقبضة يده اليسرى .

وعندما رأى الفارس أنه قاوم وصمد وقتاً كافياً وقدر أن يجيل الذئب قد ابتعد بأمه عن الساحة بدأ عندئذ يفكر في

نفسه ورفاقه وعدل خطته من الهجوم الى القتال مع الانسحاب ، وكانت ثيابه قد تمزقت شذر مذر والدم يكسوه من رأسه الى قدميه ، وقد بدا رائعاً مخيفاً الى حد أن كل الذين كانوا في الساحة نسوا المحكوم عليها التي كانت قد ابتعدت الآن بحيث لا يمكنهم إدراكها وانقضوا عليه غاضبين ثاقمين وهم يصيحون صباح الموت .

وكان هوبير راكستان في تلك اللحظة ، قد انتحى في زاوية من الساحة ولم يبق معه إلا تابعاه فقط ، لأن المتشردين الذين ساعدوه هربوا في مختلف الجهات . ومع ذلك فقد ظل الرجال الثلاثة صامدين بشجاعة لا توصف وكان من الممكن أن ينجحوا في تحقيق أعجوبة نجحتهم لو لم يتدخل الدوق دي كينز في تلك اللحظة ويأمر رجاله بمساعدة الذين يهاجمونهم .

وكان أتباع الدوق يتحركون شوقاً لحوض المعركة فانقضوا ، شاهرين السيوف ، على الفارس وتابعيه وهم يصيحون قائلين :
- أقتلوا ! أقتلوا !

وكان الكونت دي بوميينيان راكستان - شقيق هوبير - في الطليعة والى جانبه البارون دي موليستراك ، فانقض الكونت على هوبير وتشابك السيف بالسيف وانزلت النضلة على النضلة الى المقبض وكادا يتطاعنان الطعن الميت عندما عرف كل منهما الآخر فانطلقت عندئذ صيحة هائلة خرجت من الفم المتقلبين في الوقت نفسه :

- أخي ! ... أخي ! ...

منزل لابواس

*

عرفنا أن ترومباقيور انقضت على ريون دور فعملها بين ذراعيه القويتين ووثب بها الى منزل تلك المرأة الرهيبه المدعوة لابواس ، وقد دخلت هذه وراه فأغلقت الباب بسرعة وأقفلته وخبأت المفتاح . وعندئذ فتح ترومباقيور ذراعيه وترك الفتاة التي كان يضمها بقسوة حتى تلك اللحظة .

ولم تكن ريون دور قد فقدت وعيها ، قرأت نفسها على ضوء سراج ضئيل في شبه مخزن كبير مكتظ بجميع أنواع البضائع من ثياب وأحذية ومقاعد وأسرّة وحلى وأسلحة وأشياء أخرى مختلفة الأشكال والأحجام ، وكان كل ذلك نظيفاً جداً ومصقولاً بترتيب وعناية .

ولكن تلك البضائع كانت جميعها مسروقة إذ أن جميع لصوص حيّ « الهال » كانوا يبيعون ما يسرقونه للابواس التي كانت تشتري البضائع بأجنس الأثمان وتبيع بأغلاها حتى ولو كان الشاري هو اللص نفسه الذي باع ما يشترهه ا

وكانت ريون دور لا تعلم شيئاً عن باريس ولصوصها فلم تشبه أبداً في حقيقة مصدر تلك البضائع المكذّبة بل ظنت أن لابواس تاجرة شريفة مستقيمة ، وبدأت تلوم نفسها على خوفها منها . ولكن ذلك لم يكن يعني أنها كانت تريد أن تبقى تحت تصرف تلك العجوز التي لا تعرفها ، فهزّت رأسها سلباً وقالت

بجزم :

— لن أذهب الى أبعد من هنا طالما أن الباب مقفل ، وإنك لا توضحين لي بصدق عن سبب إدخالني الى هذا المكان بالقوة .

— لقد أردت أن أجنبك رجال الشرطة الذين سيلتقطونك دون شك ، ويقودونك الى السجن . أما إذا كنت تفضلين ذلك فلإني أفتح لك الباب فوراً .

فقالت ريون دور بخوف : لماذا يسوقونني الى السجن ؟ إنني لم أرتكب أي عمل مخالف للقانون .

— أعرف ذلك ، ولكن القاتون في باريس يقضي بجبس النساء اللواتي يصرفن الليل في الشارع . فإذا دخلت السجن وجاء من يسأل عنك فإنك لن تلبثي فيه طويلاً ، أما إذا لم يكن لك أحد فإنك لن تخرجي منه أبداً . إن لك أقارب وأصدقاء دون شك سيقفون عليك ويخرجونك ، وبما أنك لا تريدن أن تبقي في منزلي فعلياً أن أفتح لك الباب .

وقد قالت العجوز تلك الكلمات ووضعت المفتاح في القفل وهي تراقب الفتاة من طرف خفي ، فحدث ما كانت تتوقمه إذ أن ريون دور صاحت تقول برعب شديد :

— ولكنني وحيدة في الوجود وليس لي أقارب أو أصدقاء ا
— إنك تشيرين شفتي ، ولذلك أكرّر ما عرضته عليك منذ قليل وهو أن تبقي في منزلي الى صباح الغد .

— إنك مثال الكرم يا سيدتي ، ولكن بولو وفرنفو ، وهما كلبتي وحماري ، قد يقع لهما ما يكدر فيما إذا لبثا وحدهما في

الشارع ، ولذلك فإني لا أريد أن أخلّسَ عنهما . إسمعي نباح بولو الطبيب يا سيدتي ، لقد شعر دون شكّ بأنني هنا وما هو يثنّ ويتألم في الجهة الثانية من الباب ، فآتمني جميلك واقبلي رفيقيّ الطيبين في ضيافتك أيضاً وإلا فأنا أفضل الذهاب الى السجن ولا أخلّي عنهما .

وقد قالت ذلك بعزم وتصميم ، ففهمت لآبواس أنها لن تتردد في تنفيذ قولها فأسرعت تطمئنئها قائلة :

- إن منزلي كبير ولدي زريبة صغيرة ثلاثم حمارك جداً فلا تقلقي .

وكانت السهولة التي قبلت بها العجوز أن تضيف الكلب والحمار قد أثّرت في ريون دور تأثيراً عميقاً فشكرتها وهي تكاد تطير فرحاً ، وعندئذ سارت ومبايهور فأدخل قرنغو الى الزريبة ، تاركاً ريون دور مع لآبواس .

وكان الخوف قد تبدّد في نفس الفتاة فلبثت هادئة مطمئنة ولكنها لاحظت في نهاية القاعة غرفة صغيرة تنام فيها مضيفتها ، وكان في تلك الغرفة درج ضيق يؤدي الى الطابق الأول الذي لم يكن له مدخل آخر سواه ، وقد لفت نظر ريون دور أمر غريب وهو أن سرير لآبواس كان موضوعاً عند أسفل ذلك الدرج بطريقة تجعل الصعود والنزول مستحيلين دون إزاحة ذلك السرير ، أي أنه عندما يكون أحد في الطابق الأول فإنه لن يستطيع الخروج إذا رفضت لآبواس إزاحة سريرها .

وقد لاحظت ريون دور ذلك الترتيب الخاص ولكنها لم

تعلق عليه أهمية كبيرة .

وحاولت لآبواس أن تضع بولو في الزريبة مع قرنغو ، ولكن الكلب الشجاع التنبه كان شديد الحذر وقد أبطل بهارقه حيل العجوز كلها فكفت عن محاولاتها خوفاً من إغضاب الفتاة ، وقد نتج عن ذلك أن بولو تبع سيدته الى الطابق الأول حيث يجب أن تنام وكان في هذا الطابق غرفة كبيرة مجهزة ببضعة أسرة ، فلم ترق الغرفة كثيرة لريون دور المتعذرة على العيش وحدها ، ولكن نظافة المكان جعلتها تتغاضى عن الاهتمام بمثل تلك الأمور ، فاندست بين الشراشف البيضاء في السرير الصغير الذي عينته لها لآبواس ولم تلبث أن استغرقت في النوم تحت حراسة بولو الذي عمّد بدوره عند أسفل السرير .

وقد أوت لآبواس الى فراشها في الطابق الأرضي وكانت ابتسامة الظفر تلوح على شفئتها المزمومتين وهي تفكّر في المبالغ الكبيرة التي سوف تدرّها عليها تلك التي بدأت تسميها «الأميرة» دون أن تدري أنها تقول الحقيقة !

حول منزل لآبواس

*

قلنا إن موسكاد وسافير وبرغاموت فتيات جميلات ، ولا بد لنا أن نضيف الى ذلك بعض الإيضاحات .

كانت موسكاد ذات عينين سوداوين جميلتين شديديتي المعان ،

وخدين بلون الدم القاني . وكانت فخورة جداً ببريق عينيها
وحمرة خديها وهي تجهل أنها من تأثير الحمى ، فإن الفتاة المسكينة
كانت مصابة بإحدى الحميات الحبيثة دون أن تعلم . وكانت
كثيرة اللطف رصينة حاملة ، وكانت خطيبة جيهان جيبي حفار
القبور في تربة الأبرياء .

وكانت سافير قصيرة القامة كثيرة الحيوية والدلال ، مرحلة
ثائرة طائشة لا تفكر إلا في الضحك واللهو ولكنها طيبة القلب
جداً تستخدم أصدقاءها بكل قواها .

أما برغاموت فكانت ممثلة الجسم قوية البنية تميل إلى
المشاغبة ، وهي شجاعة تجيد القتال حتى أنها تستطيع مقاومة
رجل ، ولكنها لم تكن فظة غليظة بل تستطيع عندما تريد أن
تكون متناهية اللطف والرفقة .

ويذكر القراء أن موسكاد وسافير قد نصحتا ريون دور بعدم
الذهاب مع لابواس وأنها أشفقنا على مصيرها عندما تدخل
ترومبافيور .

وقد أظهرت برغاموت وحدها جفاء شديداً تجاه ريون دور ،
وكان جليلاً أن الفتاة لم ترق لها وقد تكون وقفت منها هذا
الموقف لأن جماها الأخاذ ولد في نفسها شيئاً من الحسد والغيرة .
وبعد أن حمل ترومبافيور ريون دور إلى منزل لابواس
وأغلقت هذه الباب ورامها ليثت موسكاد وسافير تنتظران هنيئة
في الشارع كأنما تأملان حدوث أعجوبة تنقذ الفتاة المجهولة التي
استلطفناها جداً من برائن العجوز الرهيبة . فلم تحاول برغاموت

أن تدعوها لمغادرة المكان بل ليثت تنتظر معها وتصيح بسمعتها
كما تفعلان ، إلى أن قالت لها أخيراً بإبتسامة ساخرة :

- إنكما تضيعان وقتكما دون جدوى ، إنها لن تصرخ ...
ولن يفتح الباب ...

ولم تنطلق فعلاً أية صرخة أو ضجة تدل على المراك . وكان
يظهر أن ريون دور قبلت بسهولة عروض العجوز ، فقالت
موسكاد مدهوشة :

- من كان يعتقد ذلك ؟ !

فقالت سافير متعجبة :

- كان من يراها يظن أنها تستطيع المناولة دون اعتراف لما
يبدو عليها من مظاهر الطهر والبراءة ... فلتنحدر بعد اليوم أن
تثق بالظواهر !

فقالت برغاموت منتصرة :

- لقد قلت لكما إنها محتالة خبيثة وسوف نرى منها نحن
الثلاثة ولا يواس نفسها كل غريب مدهش . يا لله ! كأنها لم تكن
تريد إلا دخول المنزل !

ثم أعربت عن فكرتها ورغماً عنها عندما أردفت قائلة : سوف
تكون الحياة جسيماً مع مثل هذه الرفيقة .

فغيرت موسكاد مجرى الحديث وسألت قائلة : إلى أين
نذهب ؟

وأجابت نفسها قائلة : إلى حانة غراندوق ، عند موفيت
غول دور .

فاحتجّت سافير قائلة :

— لا ، إن موفيت غول دور مزعجة جداً ، فلنذهب الى حانة « تروي فيديل » عند ليونارد بانكال ، لأن هذه لا تخشى من أن تشرب كأساً مع زبائنها .

فأبتدت برغاموت اقتراح رفيقتها وقالت :

— نعم لنذهب الى تروي فيديل ، وإن لم يلائمنا الجو فإني يفوت الوقت للذهاب الى حانة غراندوق .

ثم انتجّحت الفتيات الثلاث صوب الهال ، ولكنّهن لم يذهبن بعيداً فعند وصولهن الى محل للفاكهة على مقربة من بيت لابواس ، سمعن من ينادين في الظلام ، فوقفن مدهوشات . وكان باب المحل مشقوقاً فسمعن امرأة تطمئنهن قائلة :

— لا تخفن ، أنا الأم بينيات بائعة الثمار .

فدفعمن الفضول الى الاقتراب ، وعندئذ فتح الباب على مصراعيه ، فرأين داخل الخزن المكتظ بسلال الفاكهة والبقول عجائز أربعمائة يجلسن في الظلام . ولما كانت صاحبة المحل قد سمعت نفسها الأم بينيات ، فإنها تابعت تسمي الثلاث الباقيات قائلة :

— جاراتنا الفضليات : السيدة كورج المرابية ، والسيدة بونيون بائعة اللبن ، والسيدة توماس الحائكة ، وكلهن من شارع ترياندرى مثلنا .

فحيّت العجائز الفتيات وقلن بصوت واحد :

— هكذا ... إذن ؟ !

فقالت الفتيات مدهوشات : ماذا ؟ !

فانطلق عندئذ سيل من الكلام الرخيص الحبيث فقالت السيدة كورج :

— لقد رأيتها منذ دخلت الشارع مع حمارها وكلبها وقد أتيت مسرعة الى هنا . هل نظرتن الى زيبا ؟ إنه من الحرير والساتان .

فقالت السيدة بونيون :

— لقد سمعت أنها أقامت شارع مونغارتر وأقعدته بواسطة حمارها وكلبها ، وقد خرجت مسرعة أذا أيضاً وتبعها لأرى الحرير والساتان عن قرب .

— أيها الآن عند لابواس ؟ أتريد أن تسكن معكن ؟

— إنه عار لا يمكن التفاوضي عنه فإذا بفعل رجال الشرطة ؟

— يا للصغيرات المسكينات ! إنني أرثي لحالكن مع مثل هذه الرقيقة !

— يا لها من حسناء لعينة ! سوف تستأجر جميع أصدقائكن ..

— إنها حسناء ، كما تقولين ... ولكنني لو كنت رجلاً لما اخترتها أبداً ...

— إنها مسألة ذوق ! أما أتنن يا صغيراتي ، فاصمدن جيداً .

— عجيبة لا يعرف أحد من أين أتت تريد السيطرة عليكن ! إنه أمر لا يُطاق .

وانطلقت بعدئذ سيول من الشتائم واللعنات والانتقامات .

ولكنّ ما أفرغن من تلك البضاعة انتهى الأمر بالفتيات الثلاث الى ترك المكان فجأة دون أية كلمة مجاملة ، مما هاج العجائز

الشريرات وحرك الغضب في أنفسهن .

وقد حدث لسوء الحظ أن كلامهن البغيض أثار في برغاموت تأثيراً كبيراً ، وكانت لا تحب ريون دور كما قلنا ، فلم تكف طيلة الطريق الى « تروى فيديل » عن القدح بحق الفتاة . وكانت موسكاد وسافير تتظاهران بأنها لا تسمعان شيئاً وتحرصان على عدم إثارها .

وما إن ابتعدت الفتيات عن محل الفاكه حتى انفجرت العجائز الأربع بتكلمتهن بحقهن ، فقالت بينيات :
- لقد أضعنا رؤوسنا في البحث عن الخير عند فتيات مثل هؤلاء .

فقالت السيدة كورج :

- إن هذا الكمك من ذلك العجين ، وقد أخطأنا في التحدث إليهن .

وقلن جميعهن بصوت واحد :

- هذا جزاء المعروف والطيبة !

فقالت كورج المرابية :

- إن تلك النورية الضغيرة ، على ما هي عليه من الجمال ،

سوف تدر الثروة على تلك الساحرة لابواس !

فغمغن جميعهن قائلات : إن تلك الثروة ليست لنا مع الأسف .

وقد افترقن بعد ذلك لأن مثل شارع ترياندري لا يكون آمناً في الليل ، وكن يعرفن ذلك جيداً ، ولكنهن نسينه في فورة أحاديثهن « الممتعة » . أما الآن فقد عادت إليهن الذاكرة

واستولى الخوف عليهن فانسحبن الى الشارع وانطلقن راكضات في ظلال الجدران .

سجينة

*

صرفت لابواس ترومباقيور بشيء من الحدة لتطمئن ريون دور ، فخرج الرجل غاضباً لأنه كان مقلساً وكان يريد أن يستلف من المعجوز بعض المال فلم تدع له الوقت للكلام في هذا الشأن . وقد التقى صديقه سبارتيموسكا في الطريق فاستقبله بوجه عبوس وسأله قائلاً :

- ألدبك شيء من المال ؟

- أنا ؟ إنني لا أملك درهماً واحداً .

فغمغم ترومباقيور قائلاً يباس : يا للشيطان ! أكاد أموت عطشاً .

فقال سبارتيموسكا باللهجة نفسها : إن نيران الجحيم تتأجج في

حلقتي ولا أفورع عن قتل رجل في سبيل كأس من الخمر .

ففكّر ترومباقيور لحظة ثم قال : هيتا بنسا نبحت عن

برغاموت وسافير وموسكاد لعلنا نجد معهن ثمن عشائنا على الأقل .

وسارا يقصدان حانة غراندوق حيث دخلنا الى القاعة العامة

يبعثان عن الفتيات الثلاث ، فاقتربت منها صاحبة الحانة وقالت :

- ماذا يريد السيدان ؟ أتعلمان أن الدفع مقدّم هنا ؟

فأجاب برومباقيور قائلاً: إننا نبحث عن برغاموت وموسكاد
وسافير ...

فقاطعت صاحبة الحانة قائلة: لسنا هنا .

وكانت علمت الغاية من ذلك البحث فأردفت تقول بلهجة
أمرية: سوف تعودان عندما يحضرن .

وأشارت بيدها الى الباب . ومن الغريب حقاً أن المشرّد بن
خرجا دون أن ينبس بكلمة . وعندما بلغا الشارع أطلقا العنان
لغضبهما فكانت لعنائها تنصب على صاحبة الحانة هادرة صاخبة .
وقصدا حانة « تروي فيديل » ولم يكن حظها هناك
أحسن منه في حانة غراندوق لأن الفتيات الثلاث كنّ قد غادرن
المكان . ولكنها لم يفشلا فشلاً تاماً إذ أن صاحبة الحانة ليونارد
بانكال دعته الى بعض الشراب وجلست تشاركها إياه بطريقة
أخوية .

وعند الفجر دخلت سافير وبرغاموت وموسكاد الى منزل
لابواس وكانت العجوز لا تزال في فراشها ، وقد قلنا إن سريرها
كان يسدّ مدخل السلم الوحيد المؤدي الى الطابق الأول . فلم
تبتض العجوز بل مدت يداً معروقة وهي تنظر الى الفتيات
الثلاث نظرة ذات معنى ، وكنّ يعرفن جيداً معنى هذه
الحركة وهذه النظرة ، فتقدّمت برغاموت ووضعت في تلك
اليّد بعض القطع الفضية ، فبتت العجوز في وجهها وابتسمت
لها ابتسامة لطيفة ثم تقدّمت سافير وكوفئت بدورها بإبتسامة
لطيفة .

أما موسكاد فإنها تقدّمت وهي مرتبكة ارتباكاً ظاهراً
وكانت العجوز ترمقها ببصرها التائه الرجراج وهي تقول بصوت
قاسٍ: إنك لم تسددي حسابك .

فاعتذرت موسكاد قائلة وفي لهجتها أثر الخوف. إنني لم أحصل
على شيء من المال .

— لقد قلت لي البارحة القول نفسه. إنك تعرفين ما ينتظرك ،
أليس كذلك ؟

فصمّت موسكاد يديها في حركة توسّل ، ففكرت العجوز
لحظة وهي ترمقها بقسوة ثم انفجرت قائلة: لملك تسرقيني
لتعدّي جهاز عرسك !

— لا يا لابواس ، لا تظنّي ذلك .

— إياك أن تلعب معي هذه اللعبة لأنها تكلفك غالباً ...
غالباً جداً .

وكان هذا التهديد ، على ما يبدو من غموضه ، خيفاً جداً
بالنسبة الى الفتاة المسكينّة ، فبدأت ترتعش وقد شحبت وجهها
حتى حاكى وجوه الموتى .
وثابتت العجوز قولها :

— ها أنا قد أنذرتك فلانسي ذلك. والآن أصغي إلي جيداً
واعلمي أنني ما كنت سلتقنك مرة أخرى لو لم أكن في حاجة
إليك. فإذا كنت لا تريدن أن أغضب فأخدميني جيداً في المهمة
التي سوف أكلفكنّ بها أتقن الثلاث وبصورة خاصة أنت ،
لأنك لطيفة جداً وراجحة العقل .

وقد أشارت إليهنّ فاقرن منها واخترن حتى كادت رؤوسهن تلامس رأساً فهمست قائلة :

— سوف تجدن باجملاتي رفيقة لكنّ فوق... وهذه الرفيقة الجديدة تبدو لسوء الحظ على قدر كبير من السذاجة ... إنكن تقهمني ، أليس كذلك ؟ وأنا أعتد عليكنّ في تحويل تلك الفتاة البريئة الساذجة الى فتاة ظريفة لطيفة مثلكنّ تماماً .

فقالت برغاموت بلهجة ساخرة : أنا أعتقد أنها لا تحتاج الى درس وأنا تعلم أكثر مما نعلم بكثير .

— أمتقدين ذلك أنتِ ؟ إنك غخطئة تماماً وأنا أخبر منك بهذه الأمور ، فيجب إذن إعداد الفتاة لهنة الجديدة ...

فوعدت برغاموت قائلة : حسناً ، سوف نعدّها للعمل ... فكوني مطمئنة .

أما سافير وموسكاد فانها اكتفتا بإحناء رأسها دلالة على الموافقة ، فاطمانت لابواس وسمحت لها بالمرور .

وأفاقت ريون دور في الصباح الباكر فرأتها ينمن نوماً عميقاً ، فنهضت من سريرها دون ضجة ، ولبت تنتظر أن يستيقظن وهي تعجب لتومهنّ الى ذلك الوقت المتأخر بينما تصحو هي دائماً قبل طلوع الشمس ، ولكنها ظننت أن هذه هي العادة في باريس .

وقد حاولت لابواس في ذلك اليوم أن تفصل بولو عنها ، ولكن الكلب الأمين أطلق زجيرة خفيفة جعلتها تنكص عن محاولتها . ولبت بولو سيد الموقف ، وقد سرّت ريون دور

بذلك وخاصة عندما رأت موسكاد وسافير قد بدأتا فوراً بملاطفته ومداعبته والتحبّب إليه وإطعامه .

وكان في حركات ريون دور وكلامها ما يوحى بالاحترام وبفرس الطاعة . وكانت الفتاة لا تشعر بذلك ، ولكن لابواس شعرت به فكانت تتبسّب غاطبتها باللهجة التي تخاطب بها برغاموت وسافير وموسكاد . وكان الفتيات الثلاث قد أحسن هنّ أيضاً بتفوق ريون دور الطبيعي عليهنّ فخفضت موسكاد وسافير الطيبتان وسلّمتا بذلك التفوق ، ولكن برغاموت لم تفعل فعلها وقد بدأت تشاغب قائلة بصوت ساخر قاسر :

— يا لله ! أنظرا إليها وقولاني ، ألا يظنّ من يراها أو يسمها تتكلم أنها أميرة ؟

فأجابت ريون دور قائلة وهي تبسم . وما أدراك إن لم أكن أميرة فعلاً ؟

ثم أضافت تقول بمازحة : وسوف ترين يوماً ما سيدة كبيرة تأتي للبحث عني لتأخذني الى قصرها .

وقد أضحك كلامها الفتيات الثلاث ، ولكنهنّ لبثن رغم ذلك يلقينها دائماً بالأميرة .

ومضت بضعة أيام ظلّت ريون دور خلالها سجيناً في منزل لابواس كأنها في أحد تلك السجون التي هدّتها بها العجوز .

وفي مساء اليوم الأول رأت برغاموت وموسكاد وسافير يتزيّن زينة كبيرة قبل الخروج ، فكانت تنظر إليهنّ بسذاجة وهي تعجب للعناية الدقيقة التي يمارسن بها تلك العملية . وكانت

الأصباغ والمسايق المختلفة التي يظن بها وجوههن تثير اهتمامها بصورة خاصة ، فقالت لمن :

— لماذا كل هذه الزينة ؟

ولما زاد عجبها في سكوتين وارتباكهن بادرت موسكاد ، وهي اللفهن وأرجهن عقلاً الى الجواب فقالت بلمحة طبيعية :

— يجب أن نتجمل للخروج ، فأني عجب في ذلك ؟

فقالت ريون دور بكل ما في نفسها الطاهرة من الصدق والإخلاص !

— ولكنك أجمل كثيراً دون هذه الأصباغ التي لم تتمكن من تبشيعك ! وما السبب الموجب للتجميل كما تقولين يا موسكاد ؟

— إننا نتجمل لنشتغل .

— ماذا تفعلن ؟

وكان السؤال محرراً جداً فارتبكت موسكاد والتفتت الى سافير بنظرة تدعوها فيها الى نجاتها فأسرعت هذه تجيب على

السؤال قائلة بشجاعة :

— إننا نشتغل في الخارج .

— أعلم ذلك ... ولكن أين ؟

— أحياناً في الشارع ... وأنا في الحانات !

— بماذا ؟

— بما ... بما ... سوف تفعلينه أنت !

— يا لله من هذه المناورات ! أنا كنت أصنع سلال القش أو أعرض بولو وفرغو على أنظار الجماهير . فلماذا لا تقولين لي بمثل

صراحتي عن نوع العمل الذي قمارسه ؟ ألا تريدن أن تقولين ؟

— يجب أن نؤمن معيشتنا وتدفع للسيدة لابواس مالاً لأنها لا تطعمنا وتلبسنا وتسكننا إكراماً لعيوننا الجميلة على حد قولها ...

وكانت ريون دور من الذكاء بحيث فهمت أنهن يخفين عنها شيئاً . ولكن ما هو ؟ ومن المعلوم أن فتاة بريئة طاهرة مثلها لا

يمكن أن تشبه في الحقيقة الرهيبية ، فكفست عن الإلحاح وهي على يقين من أنهن سوف يتكلمن يوماً ما .

وكان جفاء برغاموت يتزايد يوماً بعد يوم الى أن انفجر حقدتها أخيراً وأصبحت تلوم نفسها علناً على ضعفها تجاه فضيلة

تلك الفتاة الطاهرة . وقد بلغت الأمور حداً رأت معه موسكاد وسافير أن تتدخلوا قوراً قبل وقوع ما لا تحسد عقباها فقالتا لها

بصوت خفيض :

— لم نكن نعرفك شريرة الى هذا الحد .

فسمعت ريون دور قولها وكانت هي التي أجابت قائلة :

— إنها ليست شريرة بل عصبية لأنها تعسة جداً ولكنها طيبة

في قرارة نفسها .

فلبثت برغاموت هنيهة وكأنها فقدت صوتها وفعأةً زجرت قائلة :

— إنك مخطئة فأنا لست طيبة جداً ، إنني شريرة وشريرة

جداً ... وأنت أيتها الأميرة أقملي عن إظهار شفقتك عليّ ، أسمعيني ؟ لست بحاجة الى شفقة أي إنسان !

وبعد يومين سقطت برغاموت عن الدرج فجرح وجهها جرحاً
بليغاً ولكنه ليس خطراً ، ومع ذلك فقد كانت تبكي وتصرخ
وتندب حظها بياس خوفاً من أن يترك الشام الجرح أثراً يشوه
جمال وجهها النضر ، وكانت تقول ذلك ودموعها تنهل كالطرر .
فلم تقل ريون دور شيئاً بل أخذت تفتش في أمتعتها حيث
أخرجت مرهما غريب اللون فوضعت قليلاً منه على قطعة قماش
نظيفة ناعمة واقتربت من المومس الجريح وهي تبسم قائلة :
- دعيني أعالجك ، وخلال بضعة أيام لن يبقى أي أثر لهذا
الجرح !

وقد وضعت الضمادة على جرحها بهارة وخفة مدهشتين .
ولبت ثلاثة أو أربعة أيام تعالج برغاموت بدقة وعناية فائقتين ،
وكانت هذه تستسلم ليديها اللبقتين ، ولكنها ظلمت على جفاتها
وعبوسها . وعندما رفعت الضمادة الأخيرة لم يكن في استطاعة
أحد منها بلوغ من حدة البصر أن يلاحظ أثراً للجرح أو يعرف
مكانه من وجه برغاموت .

ومع ذلك فلم تُبدِ برغاموت شكرها لريون دور أو تلتفت
من تصرفها تجاهها . وبعد بضعة أيام أحضرت لابواس للفتاة ثوباً
مماثلاً لأثواب الفتيات الثلاث واقتربت تضعه أمامها وهي تبسم
إبتسامة ذات معنى ، فقالت ريون دور .

- لن ألبسه .
- بل تلبسينه رغم أنك ، وإذا كنتِ تظنين أنني سوف
أحتفظ بك هنا وأقدم لك الطعام والمسكن دون أن تفعلي شيئاً

فأنت مخطئة . وقد روضت فتيات أشد منك بنية وعناداً ، فإما
أن ترضخي لما أريد أو أحطمك تحطيماً .
واقتربت من الفتاة حتى كادت تلامسها وكان الغضب قد عصف
بها فرفعت يدها وحاولت أن تنقض بها على وجهها ، وإذا
ببرغاموت قد وقفت فجأة بين الاثنتين قبل أن تهوي الصفعة على
خد الفتاة وقالت بغضب شديد :

- لقد طفح الكيل يا لابواس فدعي هذه الطفلة وشأنها وإياك
أن تلمسيها .
فدهشت لابواس وتراجعت خطوتين الى الوراء وهي تقول
لبرغاموت :

- وإذا راق لي أن ألمسها فماذا تفعلين ؟
- لا أعلم ، ولكنني أنصحك بأن لا تلمسيها... وهي نصيحة
لصالحك .

- أتحذرين على تهديدي ؟ إحدري لنفسك يا جيلاتي .
- أنا لا أهددك بل أحذرك وهذا كل شيء . إنك تستطيعين
أن تفعلي في ما تشائين وذلك لا يهمني . ولكن هذه الطفلة ...
هيا يا لابواس إذهي من هنا . صدقيني واذهي فوراً . قبل أن ..
وكان الغضب قد أعماها فاشتعلت عينها ببريق رهيب وأخذت
الكلمات تخرج من فمها كحمم البركان ، وقد فهمت لابواس أن
حياتها معلقة في تلك اللحظة بخيط من القطن ، ومن جهة ثانية
كانت برغاموت قد بدأت تسير نحوها وهي تتكلم وكان وجهها
محتقناً خفيفاً الى حد أن العجوز تراجعت وهي تقول : يا يسوع !

أظنني مائتة لا محالة ! ثم تدرجت على الدرج وهي لا تصدق
بالنجاح .

ولما اختفى وجه العجوز الكالح التفتت برغاموت الى ريون
دور وقالت لها بصوت لم تعرفه رفيقاتها فيها أبدأ :
- لا تخشي شيئاً ، فطالما أنا هنا أقسم لك أنه لن ينالك
أي أذى .

فاقتربت ريون دور منها وقبّلتها في خديها رغم ممانعتها
وقالت لها بابتسامتها اللطيفة :
- لقد قلت لك إنك لست شريرة ... وها أنت ترين أنني
لم أخطئ !

النموه

*

ومنذ ذلك اليوم أصبحت برغاموت شديدة التعلّق بريون
دور فكانت تبدي نحوها من اللطف والإخلاص والمحبة ما فاق
كثيراً جفاهها وبغضها السابقين .
وانصرفت أيام أخرى ، وطلب من ريون دور في إحدى
الأمسيات أن تخرج برفقة الفتيات الثلاث ، وكانت على وشك أن
ترفض الطلب عندما أشارت لها برغاموت إشارة خفية فهمت
منها أنه يجب عليها القبول ، فنزلت الى الشارع بصحبة رفيقاتها .
ومن المرجّح أن هدف برغاموت من تلك الإشارة كان

ينحصر في أن تفتنم الفرصة في إحدى تلك الأمسيات لتنقذ الصبية
من براثن العجوز الرهيبة .

فاعتادت الفتاة على الخروج بصحبة رفيقاتها الطيبات ولم تكن
المسكينة الصغيرة ترتكب خطأ ، ومع ذلك فقد كان من الممكن
لومها على ظهورها في الشارع مع هؤلاء الفتيات السيئات السبعة ،
ولكنها كانت معذورة حقاً لأنها لبثت تجهل تماماً مهنة رفيقاتها
المتكودات الطالع وكان عملها ينحصر في السير معهن ذهاباً وإياباً
في شارع ترياندرى . ومضت بضعة أيام وهي مواظبة على الخروج
برفقتين فلم تسنح الفرصة لبرغاموت لتنفيذ خطتها طيبة تلك
الأيام .

وفي مساء ذات يوم ، وكان ذلك قبل معركة ساحة غريف
بأسبوع ، قرّرت لابواس اللعينة أن تنتهي من أمر الفتاة .
فدعت ترومباقيور وأعطته تعليماتها سرّاً وكانت ريون دور قد
خارجت الى الشارع مع رفيقاتها الثلاث ، فسار ترومباقيور
وسبارتيموسكا وراءهنّ وسارت العجوز وراء الجميع لتراقب ما
سوف يحدث . ولا لزوم للقول بأن بائعة الثأر والمرابية وبائعة
اللبن والحانكة كنّ في مركز المراقبة المعتاد وكنّ يتابعن ما
يجري باهتمام قد يفوق اهتمام لابواس نفسها .

وفجأة وجدت ريون دور ورفيقاتها أنفسهن أمام جمهور من
الأشقياء السكارى وقد أحاط هؤلاء ببرغاموت رغم احتجاجها
وهم يعرّيدون ويضحون ، ثم قبض بعضهم عليها فحملها واختفى
بها بأسرع من ارتداد الطرف ، وتبعه باقي الجمهور . فوجدت

ريون دور نفسها مع موسكاد وسافير وقد ذهبت رقيقتها الوحيدة التي تستطيع الدفاع عنها .

فحاولن أن يتابعن طريقهن ، وعندئذ ظهر ترومبافيور وأمهرن بالسير الى حانة « تروي فيديل » ولم تكن رقيقتا ريون دور تستطيعان مجابهة ذلك المتشرذ الشجاع فأطاعت الأمر وأخذتا معها الفتاة .

ووصلن الى باب الحانة وكان الليل قد أرخى سدوله فأشار ترومبافيور الى موسكاد وسافير إشارة خاصة مهددة ، فخافت الفتاتان وأسرعتا تحاولان إدخال رقيقتها الى الحانة . وقد رفضت ريون دور الدخول بدافع غريزي وهي لا تدري لماذا ، فأثار رفضها المتشرذ الشرير فانقض عليها وحلها بين ذراعيه وهو يزجر قائلاً :

— وحق قرون الشيطان سوف أدخلك رغماً عنك ما دمت ترفضين الدخول بمطلق إرادتك .

فتخبّطت ريون دور في قبضته وحاولت أن تتملص ولكنها أدركت فوراً عدم الجدوى من المقاومة فكفّت عنها وصاحت بكل قواها :

— إني ! إني !

وقد فتح باب الحانة في تلك اللحظة وظهر على عتبة شاب نبيل الطلعة ، ولتقل فوراً إنه الفارس هوبير دي راكستان ... وكان وراءه العملاق ميلورد جندارم الذي كان يتخطاه برأسه كله ، وقف الى جانب رفيقه ماراسكين .

وافق أن ظهور راكستان حدث في اللحظة نفسها التي كانت فيها ريون دور تطلق استغاثتها اليائسة ، فوثب الفارس وثبة هائلة تخطى بها درجات المدخل كلها ، ونزل وراءه ميلورد جندارم . أما ماراسكين فإنه لبث مكانه على عتبة الباب المفتوح وكان النور يتسرب الآن من داخل الحانة الى الخارج فينبير الفسحة التي أمام المدخل ، وكان راكستان قد بلغ بوثيته مكان المتشرذ فرأت ريون دور ذلك الوجه الذي يطفح جراحةً ونبلاً وصاحت تقول بصوت يهزه الأمل :

— أيتها كنت يا سيدي ، ساعدني وأنقذني من هذا العين .
وشامت الصدفة أن يكون رأس ريون دور في الظلمة فلم يبرأ الفارس وجه الفتاة التي تستنجد به مباشرة ولكنه أحس برعشة عنيفة تهزه من قمة رأسه الى أخمص قدميه وقد أخذ قلبه ينتفض سحق كاد يخرج من صدره فكان يحاول أن يرى تلك التي أثار صوتها فيه هذا التأثير الغريب ولكنه مع ذلك لم يتأخر عن نجاتها قبل أن تتاح له رؤيتها فقال بصوته الجهوري الساخر مخاطباً ترومبافيور :

— ألم تسمع ؟ أترك هذه الفتاة وشأنها !

فزأر ترومبافيور قائلاً :

— يا للشيطان ! بماذا يتدخل هذا المخلوق ؟

— إنني أتدخل في ما يروق لي ، فاترك هذه المرأة أيا السافل الحقير !

وقد قال راكستان ذلك ببرودة وصوت خفيض ، ولكنه

قبض في الوقت نفسه على ذراع ترومباقيور فأحسن المشرد
بالأصابع الفولاذية تكاد تحطم ذراعه وفهم فوراً أنه أمام خصم
لا يُستهان به ، فترك ريون دور ليحرر يديه ، وعندئذ رأى
راكستان وجهها ف شعر مجدداً بالتأثير العنيف نفسه الذي ولده
فيه صوتها ولكنه لم يحول مع ذلك انتباهه عن المشرد وكان
هذا قد جرد خنجراً هائلاً عريض النصلة وانقض عليه وهو
يهدر قائلاً :

— سوف أقتلك !

فلم يتنازل راكستان الى تجريد أي سلاح بل لبث ينظر الى
المشرد وهو يبتسم ابتسامة رهيبة . ولما أوشكت نصلة الخنجر
أن تخترق صدره وصرخ ميلورد جندارم وراهه صرخة يائسة ،
صاح هو يقول بصوت ساخر :

— خذ هذه على الحساب !

وفي اللحظة نفسها وبسرعة البرق كانت قبضته الفولاذية
تهوي كأنها الصاعقة على خد المشرد المجرم الذي طاش صوابه من
شدة الألم وسقط الخنجر من يده وقد عاجله راكستان بضربة
على خده الآخر ثم قبض عليه من وسطه ورفعته كأنه الريشة
وقذفه على مسافة بضعة أمتار حيث سقط على الحضيض مغيباً
عليه .

ولما انتهى الفارس من مهمته استدار بسرعة صوب تلك التي
أظهر في سبيلها تلك الشجاعة النادرة فاعتزته دهشة شديدة لأنه
لم يجدها لاهي ولا رفيقتها كأنها تبخرت بسحر ساحر .

ووعندما بدأ البحث عن ريون دور كان الوقت قد فات .
وبيان ذلك أن لايواس اللعينة التي كانت تتبع المشرد والفتيات
عن بعد ، اغتتمت فرصة انهاك راكستان بتأديب خصمه فأخذت
الفتاة بمساعدة موسكاد وسافير اللتين كانتا ترتجفان من الخوف .
وسار النساء الثلاث بها في اتجاه منزل العجوز . وعندما انطلق
راكستان يطاردهن كن قد دخلن المنزل وأقبل الباب عليهن ،
وقد مرّ الفارس أمام ذلك الباب دون أن يشبّه في أن التي يبحث
عنها كانت وراهه .

ففتش شارع ترياندري كله ، وكان ميلورد جندارم
وماراسكين يتبعانه على بضع خطوات ، ووصل الى شارع سان
دينيس حيث وقف وأخذ يلوم نفسه قائلاً :

— لقد أضعت صوابي دون شك ! ماذا ؟ أطوف الشوارع
لا شيء إلا لأنني ظننت أن صوت تلك الفتاة غير مجهول لدي ،
وأريد مها كلف الأمر أن أراها وأجعلها تتكلم ؟ !
ولكنه مع ذلك تابع سيره وهو منشغل البال . وكان يقف
بين وقت وآخر وهو فاته البصر كمن يفتش في ذاكرته ويتساءل
قائلاً :

— هذا الصوت ! ... أين سمعته يا ترى ؟ ... إنني على يقين
تام من أنني سمعته فيما مضى ... ولكن أين ؟ ومق ؟
وفجأة ، وكان حجاباً كثيفاً قد انزاع عن غيخته ، صاح
قائلاً وهو يرتجف :

— رولاند ! ... إنه صوت رولاند !

وقد لبث وقتاً طويلاً مسمراً في مكانه وهو غارق في تفكيره المولم الى أن قال أخيراً وهو يكاد يبكي :

- ولكن رولاند ماتت .. ماتت منذ اثني عشرة سنة ..
فلأفزع عن التفكير فيها !

غير أنه لبث مع ذلك دائم التفكير فيها . وبعد ساعتين من التفكير المضي ضرب جبهته بيده وهو يقول :

- لقد ماتت رولاند ... وقد سبق لي أن قلت هذا ! ...
ولكنها كانت حية عندما خرجتُ بها من الماء ومدتها على ضفة الواز ... وبعد ذلك ... لم يعثر عليها أحد !

وبعد أن قال ذلك لاحظ فجأة بعض الأمور فتابع يقول :
- لم أرَ جيداً تلك الفتاة التي أنقذتها ، ولكن يلوح لي أنها في السن نفسها التي كان المفروض أن تبلغها رولاند فيما إذا بقيت في قيد الحياة ... أما شعرها فإنه يشبه تماماً شعر رولاند الذهبي ... وعيناها اللتان تحاكي زرقتهما زرقة السماء في يوم صحو جميل ! ... وإذا كانت رولاند نفسها ...

وانتفض كأنما لسعته أفعى وأخذ قلبه يدق بعنف لأنه بعد أن قال : « وإذا كانت رولاند ؟ ... شرع يقول » إنها هي نفسها ! « وعندما عاد الى منزله محطماً حزيناً كان قد أقسم على أن التي أنقذها هي رولاند نفسها ، وبدأ غرامه الطاهر بتلك التي كان يدعوها « صديقتي الصغيرة » يستيقظ من سباته أشد عنفاً مما كان عليه في ذلك اليوم البعيد عندما أعطته رولاند الطفلة وردة برية وهي تقول له : « سوف تكون فارسي وأكون أنا

سيدتك . »

وعاد في اليوم التالي محبوب شارع ترياندرى فلم يرَ ريون دور لأنها لم تخرج في ذلك اليوم ، وكان الحجل المعهود في العشاق الصادقين يقعده عن الاستسلام عنها . وقد لبث طيلة ثلاثة أيام متوالية يقوم بالعمل نفسه دون جدوى ، فقررَ في نهاية اليوم الثالث أن يستعلم عنها مها كلف الأمر ، فطرح خجله جانباً واستجمع شجاعته بكلتا يديه ودخل الى محل الأم بينيات ليشترى بعض الفاكهة في الظاهر ويستعلم عن ريون دور في الحقيقة . وقد فرحت بائنة الثائر بالصدقة السعيدة فقالت له قبل أن يتم سؤاله :

- إن حسن طالعك هو الذي قادك إلي يا سيدي النبيل
لأنني أعرف ريون دور أكثر من أي شخص في باريس ، فإن محلي ملاصق لمزل لابواس حيث كانت تسكن .

فقال راكستان بحزن :

- أتقولين إنها تدعى ريون دور ؟

- إنها كانت تدعو نفسها هكذا وأنت ترى جيداً أن اسم ريون دور ليس اسماً مسيحياً ومن المرجح أنها لا اسم لها فهي غجرية !

وكان راكستان يسمع قول المعجوز باهتمام كلتي وهو يقول في نفسه :

« إنها رولاند دون شك ! إن رولاند لم تمت والمفروض أن النورَ خطفوها وذهبوا بها الى بلاد بعيدة ... وأنا أتذكر جيداً أنني سمعتهم يقولون ، عندما اختفت رولاند ، إنهم

رأوا عائلة من النور الرحل تروء في جوار بوتتواز وهي تعيش في عربة . ولا شك في أن هؤلاء الرحل قد خطفوا رولاندا... ، وأفاق من تفكيره على صوت العجوز وهي تقول :

— أما بصدد القضية التي تمك يا سيدي فيؤسفني أن أقول لك إن الحظ قد خاذك ، واعلم أن سيدة كبيرة قد جاءت أمس الى منزل لابواس وأخذت ريون دور معها . وقد قيل لي إن الفتاة قد تنبأت بذلك وكانت تقول إنها أميرة وأنه سوف تأتي في يوم من الأيام سيدة كبيرة لتأخذها الى قصرها . وأنا أعتقد أنه يوجد سحر في هذه القضية .

فأصاعت الضربة صواب راكستان وأراد أن يعلم اسم السيدة الكبيرة والمكان الذي أخذت إليه تلك التي كانوا يسمونها ريون دور ، ولكن العجوز لم تستطع أن تجيب على هذين السؤالين ، فذهب الفارس يائساً حزينا لا يلوي على شيء .

وكانت الأم بينيات صادقة في كلامها إذ أن سيدة صغيرة كانت قد أتت نهار أمس الى منزل لابواس وأخذت معها ريون دور ، وإليك بيان ذلك :

بينما كان ترومبافيور وسبارتيموسكا في حالة سيئة جداً من جراء الضربات التي كالمها راكستان للأول ، والضربة التي أصابت الثاني من قبضة ميلورد جندارم عندما كان يصلح من وضع معطفه ، رأَت لابواس أن محتاط للأمر فتمت ريون دور من الخروج خشية أن تقتم برغاموت فرصة غياب الرجلين فتساعد الفتاة على الفرار .

وفي اليوم التالي أعلن ترومبافيور ورفيقه أن حالتها قد تحسنت وأنها يستطيعان أن يتابعوا المراقبة ، فخرجت الفتيات الأربع وسرن الى شارع ككونت دارتوا المتفرع من شارع مونتورغويل وشاءت الصدفة أن تمر في ذلك الوقت من زاوية الشارعين عربة فخمة يخفرها ستة من الخدم ، وكانت تلك العربة خالية من الشعارات ولم يكن في ملابس الخدم ما يدل على السيد الذي يخدومونه ولكن تلك الملابس كانت ثمينة جداً بحيث يتبين أن سيدهم من أهل الغنى .

وقد وقفت الفتيات الأربع يظهرن إعجابهن بالمشهد الجميل ، وهنا شاءت الصدفة أيضاً أن تقف العربة على بضعة خطوات منهن ، فالتفتت ريون دور الى رفيقاتها وقالت بلهجة بين الهزل والجد : — من الممكن أنها السيدة الكبيرة المفروض أن تأتي لتأخذني معها .

ولم تكن الفتاة تدري أنها نطقت صواباً ، فقد كان في العربة فعلاً سيدة كبيرة ، كبيرة جداً لأنها لم تكن سوى كاترين دي كليف دوقة دي كيز ، وكانت قد رأَت ريون دور فبهرها جالها ولطفها وأنفتحت الطبيعية فأعطت أمراً بإيقاف العربة وأخذت تتفحص الفتاة من وراء ستار مقعدها بعد أن رفعت زاويته قليلاً ، بنظرات رصينة عميقة تتناقض مع خفتها المبهودة التي أشرنا إليها في غير هذا المكان . وفجأة وضعت نقابها على وجهها ونزلت من العربة وتوجهت رأساً الى الفتيات الأربع .

فشعرت ريون دور بقلبها يشب في صدرها والتفتت اني

رفيقاتها الثلاث المشدوهات إعجاباً وقالت بإتسامة لطيفة :

- ماذا قلت لكن : إنها آتية لتأخذني !

واقتربت الدوقة منهن وأشارت إشارة أمرّة ومتناهية اللطف في آن واحد ، ففهمت برغاموت وموسكاد وسافير فوراً معنى تلك الإشارة وانتحن جانباً ، فانتظرت الدوقة الى أن ابتعدن ثم خاطبت ريون دور قائلة بلطف جذاب :

- ما اسمك يا ابنتي ؟

- ريون دور يا مولاتي .

فابتسمت الدوقة وقالت : إنه اسم جميل ولبيق بك جداً . ولكنه ليس الاسم الذي أريد أن أعرفه .

- أنا لا أعرف لي اسماً سواه يا مولاتي !

- ولكن أباك وأملك كانا يميلان اسماً على ما أظن ، أليس

كذلك ؟

وكانت الدوقة تعلقت أهمية كبرى على هذا السؤال إذ أنها كانت تنتظر الجواب بلهفة شديدة .

- ليس لي أب ولا أم يا مولاتي .

فلاحظت إتسامة رضى على شفتي الدوقة وبدأت تستعجب الفتاة استجاباً دقيقاً عرفت بعده كل شيء عنها من حين استفاقت في عربة ماتالينا العجوز لغاية التقائها بها في هذا الشارع . ولا بد من القول بأن تصرفات الفتاة والمعلومات التي أعطتها عن نفسها قد جاءت طبق مرام الدوقة ، فقالت :

- لقد أعجبت بك منذ أول نظرة . أما الآن وقد عرفتك

فقد ازداد إعجابي أيضاً . فهل تقبلين أن تأتي معي ؟

فصمت ريون دور يدها بطريقة تثير الرثاء وقد اختنق صوتها فلم تستطع جواباً ، فظهر السرور جليلاً على وجه الدوقة وقالت :

- انتبهني جيداً فإنني أعرض عليك الثروة والجاه . أنت

لا تعرفين عائلتك ولكنني أرى بوضوح أنك فتاة كريمة المحند

ومن الممكن أن تكون كبرياؤك الطبيعية تأبى عليك الانخراط

في خدمتي . فإذا كان ذلك فاعلمي أنني من هؤلاء السيدات

الكبيرات اللواتي تتشرف بنات أعظم الأسر بالانخراط في

خدمتهن . وبما أنك تعجبينني أكثر فأكثر كلما تأملت فيك ،

فإنك لن تكوفي من وصيغاتي بل ستكونين رفيقتي وصديقتي

وصفتي .

فقالت ريون دور :

- تقي يا مولاتي بأنني أتبعك حتى ولو كنت تريدن أن

تجعلي مني مجرد خادمة بسيطة ، ولكن لدي بولو وفرنفو اللذان

لا أتخلسى عنها في سبيل مال الدنيا فاعذريني يا مولاتي فإنك

كريمة الى حد أنني ...

فقاطعتها الدوقة قائلة :

- بولو وفرنفو ! هما الكلب والحمار اللذان كلستيني عنها ؟

- نعم يا مولاتي ، إنها الصديقان الوحيدان لي !

- وإذا رفضت أن أجيء بمحارك وكلبك الى عندي فهل

ترفضين الثروة التي أعرضها عليك ؟

- نعم يا مولاتي ، وءوف أكون آسفة جداً ليس على

الثروة بل على عدم تشرّفي بخدمتك .

وكانت الدوقة تتفحصها بدقة متنامية فرأت عينها مبعثتين بالدمع ، ولكنها رأت أيضاً أنها لن تراجع عن قرارها ، فقالت في نفسها :

« حقاً لقد وضعت يدي على جوهرة نادرة المثال . فإذا كانت هذه الفتاة تقدم على التضحية بنفسها في سبيل حيوانين ، فأني شيء لا تفعله في سبيلي عندما تحبّني ؟ ولكن المهم أن تحبّني ، وسوف أحملها على أن تحبّني ! »

ثم قالت بصوت مرتفع وهي تضحك :

« لو لم نكن في الشارع لقبيلتك لأجل ما قلته . إن رفض الثروة في سبيل عدم التخلّي عن رفيقي شقاء ، ليس إلا حيوانين ، عمل جميل جداً فلا تخشي شيئاً وسوف يتبعك صديقاك وأقسم أنها سيُعاملان معاملة جيدة ، فهل يوجد عائق آخر ؟ - نعم يا مولاتي ، إن لابواس لن تتركني هكذا .

فقالت الدوقة بحزم :

« أين هي تلك العجوز اللعينة التي تسيء معاملتك ؟ خذيني إليها لأنني أريد أن أنهي هذا الأمر .

ولم تكن لابواس بعيدة عن موقف المرأتين بل كانت تتابع ما يجري بدهشة تفوق دهشة الفتيات الثلاث المنتحبات جانباً .

ولكنها عندما رأت السيدة الكبيرة تتوجّه نحوها مع ريبون دور أسرعت لملاقاتها وقد انفرج فيها عن ابتسامة تكاد تبلغ أذنيها وانحنى الخناء عميقاً وهي تدعو السيدة لتشرّفها بزيارة

بيتها المتواضع القريب من ذلك المكان ، فتردّت الدوقة لحظة ولكنها دخلت أخيراً مخزن العجوز حيث طرقت الموضوع رأساً فقالت بلهجة متعالية :

« لقد أعجبتني هذه الصغيرة وقررت أن أحقها بخدمتي وقد قبلت وسأخذها .

فقالت لابواس وهي تنتحب :

« أيتها العذراء القديسة ! ولكن في ذلك خرابي يا مولاتي .

فقالت الدوقة باحتقار هائل :

« سأعوض عليك .

وأخرجت كيساً مليئاً بالقطع الذهبية ألقت به على الأرض بغير اكتراث ، فانقضّت عليه العجوز وأخفته في صدرها وهي تقول بإبتسامة عريضة :

« تستطيعين بهذا الثمن أن تأخذي مع الفتاة جميع ما في المخزن .

فقالت الدوقة من أطراف شفيتها :

« لقد ذكرتني بأمر فانظري إذا كان لديك ثوب بلاثم فتاة جميلة من عائلة محترمة .

والتفتت الى ريبون دور وقالت بإبتسامة لطيفة : أنظري بنفسك يا حلوتي .

فانتقت ريبون دور بسرعة ثوباً أبيض بسيطاً أنيقاً يلائم تماماً الفتاة التي وصفتها الدوقة . وغابت لحظة ثم عادت وهي ترتديه .

وكانت الدوقة تنتظر واقفة في وسط المخزن فتأملتها قليلاً

وقالت بمتدحة :

- إنه ممتاز ، وأرى أن ذوقك يضاهاى جمالك . ولكنه ثوب للطريق من هنا الى قصري فقط وستجدن هناك كل ما يلزمك . فلنذهب .

وعندما بلغت الدوقة عتبة الباب استدارت نحو لابواس وقالت منذرة مهددة :

- إذا كانت حياتك تهتك فاحفظي لسانك ولا تحاولي ابدأ أن تتظاهري بمعرفتنا لا أنا ولا هذه الفتاة .

وقد قالت ذلك بلهجة شرعت معها لابواس بالعادة تسري في بدنها .

وكانت برغاموت وموسكاد وساقير ينتظرن أمام البيت ، فتوجهت ريون دور نحوهم وقبلتهن على التوالي وهي تهمس قائلة : لا تخشين شيئاً فسوف أعود لآخذكن .

وهكذا تحققت نبوءة ريون دور التي كانت تقول دائماً إن سيدة كبيرة لا بد أن تأتي يوماً وتأخذها الى قصرها .

وفي قصر دي كيز اختلت الدوقة بالفتاة ريون دور فوراً وأفهمتها ما تريد أن تجعل منها في ذلك القصر ، وقالت لها :

- سوف تُدعين من الآن فصاعداً الآنسة دوربيريف . إن أرض دوربيريف هي ملكي الخاص وقد وهبتك أياها وبذلك ستكونين آمنة غوائل الدهر الى آخر أيام حياتك . ستجدين جميع ألقاب الملكية في غرفتك . إنك الآن قريبتى يا سيدة دوربيريف ، قريبة الدوق دي كيز ، أي أنك أصبحت تعادلين

أكبر السيدات . أما ما يتعلق بقواعد السلوك والمصطلحات التي تفرض عليك مكاتك الجديدة أن تتقدي بها ، فأنا لا أخشى عليك من هذه الناحية . وفي جميع الأحوال ، إذا لم تكوني واثقة من نفسك في أي شيء فلا تخشي أن تستشيريني فأنا ابنة عمك وأكبر منك سناً .

وكانت ريون دور تعتقد أنها تحمل حلاً أسطورياً ، فاستوضحت قائلة :

- وماذا يجب أن أعمل يا مولاتي ؟

- لا شيء أبداً . ستعيشين هنا كما تعيش قريبة عند قريبة لها أكبر منها سناً .

- وكيف أظهر امتناني تجاه كرمك ومروءتك ؟

- بأن تحبيني كما أحبك .

نأخذت ريون دور يد الدوقة المجدبة الحريية المس وقبلتها بخشوع وهي تقول : إذا أتى يوم يجب عليّ فيه أن أريق دمي قطرة قطرة في سبيلك يا مولاتي ، فسوف أموت عندئذٍ مسرورة قريرة العين .

وقد قالت ذلك بتأثر وانعطاف صادقين عن قلب نبيل لا يعرف الرياء والمداهنة . فسرت الدوقة بما سمعت وتنهت ارتياحاً وهي تقول في نفسها :

« أعتقد أنني وجدت في شخص هذه الفتاة من كنت أريدها . ولنعد الآن قليلاً الى الراء فنقول إن الدوقة دي كيز لم تكن وحدها في العربة عندما جاءت ريون دور الى القصر ، بل كانت

هرموزا وشقيقتها جوسلين ترافقانا. ولم تمر الشقيقتان الفتاة التي جلست قبالتها أي اهتمام في بادئ الأمر ، ولكنها بعد قليل ركزت انتباهها كله عليها دون أن تتظاهرا بذلك ، وكانتا بين وقت وآخر تبادلان النظرات المتسائلة خفية .

والمفروض أن تكون ذات الرداء الأسود وذات الرداء الأبيض قد ظننا ، كما ظنّ الفارس دي راكستان ، أنها تريان في ملامح الفتاة الجميلة الدقيقة ما يشبه ملامح شخص عرفناه جيداً . فبدأنا تبسّطنا في ذاكرتها ، وفجأة ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، نطقت كل منهما في حديثها مع الأخرى بهذين الإسمين : الأمير دي مونكاييه ... زولاند دي مونكاييه !

نهاية معركة ساحة غريف

*

- أخي ... أخي !

يذكر القراء أن هاتين الصيحتين اللتين انفجرتا كأنها صيحة واحدة ندتا عن الأخوين : ريشار كونت دي بوميينيان راكستان ، وشقيقه هوبير الشيفالييه دي راكستان ، عندما اشتبك سيفاهما في ساحة غريف وعرف كل منهما الآخر بعد ذلك .

وقد تراجع كلاما في الوقت نفسه بدافع غريزي ولبث الكونت هنية مذهبولا قلقاً من تأثير تلك المصادفة . وكانت

المركة في ذلك الوقت قد بلغت ذروة العنف . فإن الطعنات الرهيبة كانت تتساقط من كلا الجانبين وكان راكستان قد اشتبك الآن مع موليستراك واثين أو ثلاثة من أتباع الدوق دي كيز الذين كانوا يهاجمونه دون هوادة . ومن الإنصاف للكونت دي بوميينيان أن نقول إنه لم يعد يفكر في تلك اللحظة إلا في إنقاذ أخيه من الموقف الرهيب الذي يتردى فيه وهو يراه محاطاً بالرجال من كل جانب ، فانقض يدفع عنه موليستراك ورفاقه وارتمى عليه وهو يردّ عنه الضربات بسيفه ويصبح قائلاً :

- دعوه ، دعوه فإنه لي . لا يلمسته أحد أو يكون لي معه شأن وأي شأن .

وكان في الوقت نفسه يحتضن أخاه ويهمس في أذنه قائلاً :

- سلمي سيفك يا هوبير لكي أتمكن من إنقاذك من موقفك

الخرج .

وكان يتحتّم على الشيفالييه هوبير دي راكستان ، أن يجابه مائة نبيل من أتباع دي كيز وقد أطبقوا عليه من كل جانب ، فضلاً عن الجمهور الذي كان يساندهم وهو يطلق صيحات الغضب والحقد والموت ، ورجال الشرطة والحرس الذين كانوا يهاجمونه بدورهم . كان ينبغي على راكستان أن ينتصر على كل هؤلاء لينجو مع رفاقه ... وقد شعر بخطورة الموقف وأحس بقرب النهاية الرهيبة .

وفجأة رأى الدوق دي كيز يتقدم نحوه واضعاً يده على خصره . وكان المنشردون العشرون الذين ساعدوه في إنقاذ والده

جبل الذئب وهربوا بعد ذلك قد عادوا إليه الآن وقد تبيّنوا
فضاعة عملهم وكبر عليهم أن يتركوه وحده بعد الذي فعله في
سيل زعيمهم ، ورأى الشيفالييه ذلك أيضاً فالتمعت عيناه وطلعت
على شفّته ابتسامة دهاء تدلّ على أن خطة ناجحة قد ومضت في
ذهنه بسرعة البرق ، فألقى ببضع كلمات الى ماراسكين الذي
كان يقف الى جانبه ثم احتضن أخاه بدوره وهو يقول له بصوت
ساخر :

- أنتطلب من رجل من آل راكستان أن يسلم سيفه ؟ لا
شك في أنك لا تعني ما تقول يا سيدي !

وفي الوقت نفسه جذب أخاه إليه بقوة هائلة ودفعه الى ذراعي
ميلورد جندارم اللتين أطبقنا عليه كالقضاء والقدر ، فشمّر
الكونت بنفسه يرتفع في القضاء كأنه الريشة ثم تناقله الأيدي
بسرعة وقوة الى خارج نطاق المعركة حيث وضعتّه جانب الجدار
وراء ريفيتسي أخيه .

وكان دي كيز يتقدّم دائماً وإذا برجال كأنهم الأبالسة يحيطون
به من كل جانب على شكل حلقة فولاذية محكمة عزلته تماماً عن
رجالها وجعلته في مواجهة راكستان الرهيب الذي كان ضمن تلك
الحلقة بدوره ، والذي كان ينظر إليه ويتسمم . وكان الشجعان
الذين فعلوا تلك الأفعال العجيبة هم المتشردون العشرون . ولا
لزوم للقول بأنهم فعلوا ذلك بناء على أمر راكستان الذي نقله
إليهم ماراسكين كما أشرنا .

وقد استدار هؤلاء الشجعان فوراً فأصبحت ظهورهم الى دي

كيز ووجوههم الى المهاجمين وقد أشهروا السيوف والخناجر
ووقفوا متراصين تقدح عيونهم شراً ، وكان تصرّفهم هذا يدل
بجلاء على أنهم يمنعون أيا كان من الاقتراب من الدوق .

فلم يفهم دي كيز ما وقع له ، ولكنه رأى نفسه وجهاً لوجه
أمام راكستان الذي كان يتسمم بدهاء من غير أن يكون في
ابتسامته ما يدل على الشر . وقد رفع الفارس يده وصاح قائلاً :

- لا يتحرك أحد !

وعندئذ فقط عرف الدوق دي كيز أنه تحت رحمة هذا
الشاب الذي كان ينظر إليه وقد أشرق وجهه بنور الشجاعة التي
لا مثيل لها ، فطغى إعجاب الدوق به على كل شعور آخر وقال
له بمدحاً :

- إنك حقاً رجل شديد البأس يا سيدي !

فانحنى راكستان بذلك اللطف الفخور الذي لم يكن يجاربه
فيه أحد وأجاب قائلاً :

- كلام ثمين سوف يبقى مغفوراً في ذاكرتي ما حييت !

فزاد إعجاب الدوق به عندما رآه يخاطبه بتلك اللهجة التي
يفتخر إليها الكثيرون من نبلاء البلاط وابتسم له ابتسامة لطيفة ،
فتابع راكستان يقول بابتسامة ساذجة :

- إن هذا العطف الذي تتنازل لإظهاره يا مولاي لشقي
مثلي ، يشجعني على أن أعرض عليك بكل احترام شرطاً معقولاً
جداً ألا وهو أن تتنازل وتشرّفنا ، رفيقي وأنا ، أعظم الشرف
بمرافقتك إيانا لغاية شارع المورتيليري ... إنه على خطوتين من

هنا يا مولاي .

- أي أنك تريد أن أوصلكم الى حيث تتمكنون من

الحرب ؟

فابتسم راكستان قائلاً : يا لله ! ضع نفسك مكاني يا مولاي ..

فابتسم دي كيز بدوره وانتصب بعظمة وهول يقول :

- لا حاجة لرافقتك فأنت حرّ في الانسحاب وأعطيك كلّمني

على ذلك .

- أعتقد أن كرمك يشمل رفيقي أيضاً ، أليس كذلك

يا مولاي ؟

فتردّ دي كيز لحظة ثم قال ضاحكاً :

- لن أهبك باعتقادي في أنك تتخلّس عن رفيقك في

المركة ، فلك ما تريد .

ثم رفع صوته وأمر رجاله قائلاً : دعوا هؤلاء الشجعان

ينهبون .

فدقّ راكستان كعبيبه وحيّا الدوق بسيفه تحية لائقة

ثم أغمد سيفه واقتدى به رفيقاه وما لا يصدقان ما يريان

ويسمعان .

وعندئذ اجتمع رجال الدوق حول سيدهم وكان بوميينيان

في أول صف فرآه راكستان ولكنه تظاهر بأنه لا يعرفه ، وقد

انحنى الفارس أمام الدوق وذهب على مهل يتبعه رفيقاه ، وما إن

استدار على عقبه حتى قال دي كيز بصوت مرتفع :

- إن لم ير هذا الشجاع نفسه أكبر جداً من أن ينخرط في

خدمتي ، فإن ثروته أصبحت مؤمنة !

وسمع راكستان كلامه فابتسم ولكنه تابع سيره دون أن

يلتفت الى الوراء . ولما وصل الى شارع المورتليري قرب دير

الهودريات وقف ينتظر . ولم يطل الوقت حتى ظهر الكونت دي

بوميينيان فتعاقب الاخوان بجمرة وقال الكونت :

- لقد خشيت أن تكون ذهبت !

- كنت أعلم أنك ستأتي للبحث عني وما أنا أنتظر لك كما

تري .

فقال الكونت وهو يتأبط ذراع أخيه : لنبتعد أولاً

وستحدث أثناء السير .

ولم يكن الشيفالييه راكستان يريد أن يظهر عليه أنه يفرّ

مها كلف الأمر ، ولكنه قبيل أن يسير مع أخيه البكر وهو

يتنهد تنهد الارتياح . ومشيأ في شارع مونسو وكان الشيفالييه

أول من تكلم فقال :

- كيف اتفق أن أجدك تمارس تلك المهنة الحقيرة وأنا الذي

كنت أظنّ أنك حصلت على الثروة بشرف ؟

- فانتفض بوميينيان قائلاً : أية مهنة ؟

فقال الشيفالييه وهو يبتسم ابتسامته الساذجة :

- مهنة الشرطي ! ولا تحمل كلامي على عمل اللوم يا عزيزي

فقد أردت أن تضع يدك في طوقي ... وأنا أعلم أن هذه المهنة

غير جديدة برجل من آل بوميينيان - راكستان !

فقال الكونت دي بوميينيان مقتظاً ؟

- ولكنك أحق يا هوير ، فكيف تلومني على قيامي بواجبي
كسيد نبيل بينما أجدك أنا على رأس عصابة من المشردين ترتكب
عصيانا مسلحا ؟ ألا تقدر أيها الشقي عاقبة عملك ؟

- وهل الأمر خطير الى هذا الحد ؟ .. وتقول إنه عصيان ..؟
عصيان ضد من ؟ قل لي ، أرجوك ..

- عصيان ضد الملك !

- يا للشيطان ! لقد كنت أعتقد أنني قمت بعمل شريف
عندما منعت زبانية قائد الدرك من شيء عجوز مسكينة لم تقبل
في حياتها إلا الخير ، وما أنت تقول إن عملي عصيان مسلح .
فقال بومبينيان بجدّة :

- إسمع يا هوير ، يجب أن أتحدث معك في غير هذا المكان ،
لما قولك في أن تتغدى وتتحدث الى الطاولة ؟

- أريد ذلك من كل قلبي ولكن على شرط أن أكون أنا
صاحب الدعوة .

فتردد الكونت بومبينيان لحظة ولكنه خشي أن يغيظ أخاه
إذا رفض ، فقال بصراحة :

- ليكن لك ما تريد . أنت تدعوني غداً وسوف أذكرك
أنا بعد ذلك ، فأين أجدك ؟

- غداً في الساعة العاشرة صباحاً في حانة تروي فيديل بشارع
ترياندري .

- سوف أكون هناك في الوقت المعين .

وتعانق الأخوان وافتراقاً ، أو بمعنى أصح ، انطلق بومبينيان

بخطوات واسعة ولبت راكستان في مكانه يتابعه بنظرة طويلة
ساهرة وقد شابته وجهه المرح سحابة من الحزن وغغم قالاً :

- إنه أخي ... ومع ذلك فقد شاء سوء الطالع أن يشتبك
سيفانا ! ولكنه لم يقل لي كلمة في هذا الموضوع .

وكان بومبينيان من جهته يسير وهو يقول في نفسه :

- « إن أخي أحق بما يفعل ، وهو مملق دون شك . وسوف
يصبح سعيداً جداً بالدخول في خدمة مولاي ، وسأساعده بكل
قواي ... إنه أخي ... وسوف أجد به الى جانبي إخلاصاً حقيقياً
وسيفاً ربما لا يوجد مثله في المملكة كلها ! ... »

الذئب والكلب

*

وحافظ بومبينيان على الموعد بدقة متناهية ، وعندما دخل
القاعة المنخفضة السقف العابقة برائحة الخمر الرخيص ، المتلبدة
بسحب الدخان حيث يسود جوّ معتم غامض ، لم يستطع أن
يخفي اشمزازه . ولكنه كتم ما في نفسه تحت ستار ابتسامة
مصطنعة ، حرصاً على أن لا يغيظ أخاه .

وقد مدت المائدة على طاولتين مختلفتين إحداهما للأخوين
والأخرى على بعد ثلاث خطوات ، لماراسكين وميلورد جندارم .
وكانت أواني المائدة ، بما فيها الأغذية ، نظيفة جداً ، فأعجب بها
راكستان أيما إعجاب ، بينما رمقها بومبينيان بنظرة استقار .

وجلس الأخوان وجهاً لوجه على مقعدين من خشب السنديان
المدهون وبدأ الحديث في استعادة ذكريات الطفولة . وبعد ذلك
طرق بوميينان الموضوع الذي يهمه فأسأل أخاه قائلاً :

— ماذا تفعل في باريس وكيف تعيش ؟

وسكت لحظة ثم أردف يقول بتأثر :

— إذا لم تخدعني الظواهر فإن ثوبك البالي وبطنك الخاوي
وخديك المضمين وأسنانك المشحوضة تدلّ يا أخي على أن الثروة
لم تبتسم لك .

فقال راكستان ضاحكاً :

— إنني أعيش هنا كما كنت أعيش في أوفير في بيتنا ! لقد
كنت أعيش هناك كالذئب واستطعت دائماً أن أحصل على قوت
يومي ، ولكن ذلك لم يكن يأتي عفواً بل إن الطريقة كان لها
عملها ... وقد تعلمت تلك الطريقة وأستطيع الآن أن أفتخر
بأنني بتّ أعرفها جيداً . وفي ذات يوم مللت كل شيء وجئت
إلى باريس ...

— وأنا أيضاً وصلت إلى باريس خاوي الجيب والبطن ، وقد
لاحظت ما لاحظته أنت ومررت بما مررت به فلم أتردد لحظة
فتركت ذئبتي وانحزت إلى صف الكلاب السمينه . فانظر إلى
نفسك وانظر إليّ .

وقد قال ذلك وانتصب واقفاً فتأمل راكستان ثوبه البالي
وعاد يتطلع إلى ثوب أخيه الفاخر ثم قال :
— أرى من ظواهرك أنك حصلت على الثروة .

فقال بوميينان بتواضع :

— لم أحصل عليها بعد ولكنني في الطريق السوي . لقد
أردت أن تدعوني إلى وليمة وقد أظهرت سخاء كبيراً وقدّمت
أصنافاً كثيرة . ولكن الزبدة فاسدة واللحوم كذلك . أما الخاوي
والخمر فمن أردأ الأنواع . أنا لا أقول هذا لأخجلك ، فالنطة
ليست غلطتك ، بل لأبيتن بعض نقاسط سوف تحسبها بنفسك
عندما تعيش الحياة المترفة الناعمة التي أحيهاها أنا والتي تستطيع أن
تحياها بدورك عندما تريد .

فقال راكستان وهو يبتسم : يا الشيطان ! إنك دقيق الملاحظة
جداً يا أخي !

— سوف تصبح مثلي .

— ولكن كيسي خاوي .

فقال بوميينان بحدة : ليس لك إلا أن تريد فيمتلئ ، فإن
مركزك مؤتمن بيننا وأنا على خير حال مع مولاي وسوف
أساعدك بكل قواي مع العلم بأنني لن أتكبد كثيراً من العناء
لأن الدوق معجب بك جداً .

فقال راكستان مبتسماً : رغم الدور الذي لعبته معه أمس ؟

— بل بسبب ذلك الدور بالذات ، هذا الدور الذي ما انفكّ

الدوق يروي أخباره على من يجالسه .

— إنه رجل كيتس إذن ، وذلك ما يجعلني أقرر تقريباً ...

— أتضمم إليها إذن ؟

— لا أقول لا ... ولكنني سأعطيك جوابي غداً .

فصاح بوميينان قائلاً بغبطة : حسناً، وأظنّ أنني أستطيع أن أبشّر مولاي بأنك أصبحت منا .

وافترق الأخوان بعد أن حدد الكونت لأخيه مكان الوليمة المقبلة .

وفي اليوم التالي ذهب راكستان في الوقت المعتبر إلى فندق « ليس » الواقع في شارع سان مارتين وكان من أشهر وأفخم فنادق باريس . وكان الكونت قد أمر بإعداد مائدة حوت كل ما لذّ وطاب من المأكول والمشرب ، فجلس الأخوان يأكلان وبدأ راكستان الحديث قائلاً :

– لقد فكرت يا أخي في كل ما قلته لي أمس فبدت لي أنك على حق وأن مغاوفي كانت كلها أوهاماً لأنني أعرفك رجلاً لا تسمح لأحد بأن ينتقص من قدرك حتى ولو كان دوقاً أو ملكاً . وقد قررت قبول ما عرضته عليّ إذا كان سيادة الدوق دي كيز لا يزال يمكن لي ما أخبرتي به أمس !

– إنه لا يزال على ما كان عليه فكنت مطمئناً . إن قرارك هذا قد ملأني غبطة وسوف يجتمع شملنا أخيراً كما كنا في الماضي فتعيش معاً عيشة رضية مترفة ولا نفترق عن بعضنا أبداً . وبعد أن أنهى الأخوان تلك القضية الرئيسية على خير ما يرام ، انصرفا إلى متابعة الأكل والشرب حتى ساعة متأخرة ، وقد شربا كثيراً من الخمر وهما يستعيدان ذكريات الماضي .

وكان السكر قد بلغ بالكونت مبلغاً كبيراً بينما كان الفارس ما يزال محتفظاً بكامل وعيه . وشاءت الأقدار في تلك اللحظة

أن يتذكر راكستان رولاند ، وقد أصبح منذ أن رأى ريبون دور يتذكرها بصورة دائمة تقريباً ، فأحسن برغبة قاهرة في التحدث بأي موضوع يمت إليها بصلة فقال :

– هل تتذكر الأمير دي مونكاييه ، جارنا ؟ إنك لم تكن تحبه يا ريشار وأنا أتذكر ذلك تماماً . ومن المؤسف حقاً أنهم لم يكتشفوا إلى الآن قاتل ذلك التمس ؟

فقال بوميينان وهو لا يمي ما يقول من تأثير السكر :
– أنا الذي قتلته ! لقد طعنته بسكين في قلبه فمات دون أن يفوه بكلمة .

فقفز راكستان وهو ينتفض من تأثير العار والغضب وألقى بيده على كتف أخيه وزأر قائلاً :
– أنت ؟ أنت الذي قتلت الأمير ! وتجروء على أن تقول لي هذا ؟ !

فلاحظ بوميينان التأثير المائل الذي ولّده اعترافه في نفس أخيه ، فصحا من سكره فجأة وحاول أن يصلح ما صدر منه فقال :

– رويدك يا أخي من الذي يكلمك عن القتل ؟
– لقد قلت لي إنك قتلته بطعنة سكين .
– سكين صيد يا أخي ، سكين صيد ... فهل ترى في مجابهة سيف طويلتين بسكين صيد ، مبارزة شريفة ؟
فتنهذ راكستان مرتاحاً ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من استعظام ذلك المصاب فعاد يجلس ويقول بصوت متهدج : لماذا

تقاتلتما ؟

- لقد تكلم عن والدنا بكلام مهين، ولو كنت مكاني لفعلت

ما فعلته .

- ولماذا لم تقل لي شيئاً يومذاك ؟

- لقد وقعت المعركة دون شهود فلم أجرؤ على ذلك . ولكنك تتذكر مع هذا أن جثة الأمير وجدت وهي لا تزال تمسك السيف بيدها المشنجة .

وكان راكستان يتذكر ذلك فعلا . ومن جهة ثانية فإنه لم يكن يشك في شرف أخيه ، فتهنئ قائلاً : لقد كان ذلك قدراً محتوماً فلنتبه الكلام في هذا الموضوع .

وكان على وشك أن يقصّ على أخيه أنه صادق ريون دور وأنه يظنها رولاند فيقوده هذا الكلام حتماً الى ذكر هرموزا وجوسلين والدوق دي سورباتنس الذين ورثوا ثروة الأمير دي مونكاييه العظيمة ، والذين يتحتم عليهم الآن أن يتنازلوا عن تلك الثروة لروولاند ، ولكنه ، دون أن يعلم لماذا ، تمالك نفسه ولزم الصمت .

وكان بومبينيان قد صعا الآن من سكره تماماً فشمع بغم شديد وأخذ في سره ، يلوم نفسه على الغلطة التي ارتكبها . وكان راكستان يفكر في ريون دور التي يأمل أن يحسدها بين يوم وآخر . وافترق الأخوان بعد أن تواعدا على اللقاء في اليوم التالي وقد قبل راكستان نهائياً أن ينضم الى رجال الدوق دي كيز الى جانب أخيه .

الآنسة دور بيريف

*

اغضب الدوق دي كيز بانضمام الفارس دي راكستان إليه فاستقبله استقبالاً منقطع النظير وتكلم كثيراً عن معركة ساحة غريف ، وبعد أن هنا راكستان أمام الجميع قال له ضاحكاً :

- أريد أن أسألك سؤالاً أها الشيفالييه وأرجو أن تجيبني عليه براحة ضمير ، ماذا كنت تفعل لو رفضت أن أستجيب الى الشروط التي عرضتها عليّ؟ إذ أنك كنت تضع شروطاً دون شك . فابتسم راكستان وقال بجرأة نادرة :

- لطالما حلت يا مولاي بأن أتب الوثبة الكبرى برفقة عظيمة ، فأية رفقة أعظم من رفقة ذلك الذي يدعونه هنري الكبير ؟

فابتسم هنري وقال: وهذا يعني أنك كنت أعمدت خنجرك في عنقي ؟ !

- بأعظم القنوط وأشدّ الأسف يا مولاي .

فقال دي كيز للذين حوله !

- كان من المؤكد أن يفعل ما يقوله .

وقرّر أن يكون راكستان ملحقاً بالدوق نفسه مباشرة ، وفي هذا ما يجعله من خاصة رجال دي كيز وأصفيائه ومختاربه ، وقد استلم الفارس مهام منصبه في ذلك اليوم بالذات وقدمه الدوق الى الدوقة ممتدحاً شجاعته ونبله .

وكان الى جانب الدوقة في تلك اللحظة فتاة عرف فيها راكستان الفتاة التي أنقذها من المتشرد ترومباقيور ، والتي قيل له إنها تدعى ريون دور ، وكانت تلك الفتاة لا تبرح مخيلته منذ اللحظة التي رآها فيها واعتقد أنه عرف في شخصها صديقة طفولته الصغيرة رولاند دي مونكاييه .

وقد اعتراه ذهول شديد عندما قدمت له الدوقة تلك الفتاة باسم الآنسة دور بيريف وقالت إنها قريبتها وإنها يتيمة . والذي أضع صوابه أكثر فأكثر هو أن تلك الآنسة دور بيريف التي حبه بكل لطف لم يبد عليها أنها تعرفه .

ولكن ريون دور كانت قد عرفته جيداً رغم الظواهر . ومنذ اللحظة التي دخل فيها جناح الدوقة لم تكن ترى سواه ، وكان قلبها يخفق في صدرها كما لم يخفق من قبل .

وتفرق الحاضرون ، هنا وهناك ، في جماعات صغيرة تمرح وتحدث ، ولم يكن أحد يلقي بالآ الى ما يفعل جاره .

وعندئذ نهضت ريون دور وتوجهت رأساً الى راكستان الذي أخذ قلبه يقفز في صدره فقالت له بصوت خافت عذب :

- إنني أبارك الصدفة التي سمحت لي يا سيدي بأن أعبرك عن شكري وامتناني للخدمة التي أدتها لي . كما أنني أشعر شعوراً خفياً بأنك عرفت في تلك المجهولة التي لم تتردد في أن تعرف حياتك للخطر في سبيلها .

فأشرق وجه راكستان وصاح قائلاً :

- لم أكن مخطئاً إذن . وإنك حقاً تلك التي خلصتها من

يد ذلك اللفظ الذي كان يسيء معاملتها ، أليس كذلك ؟ فابتسمت ابتسامة لطيفة وأحنت رأسها إيجاباً . ثم تحدثنا لحظة قصيرة جداً لم تزد على ما يلزم ريون دور للتشكر منقذها . وبعد ذلك عادت الفتاة الى مكانها .

وقد طغى الفرح على الفارس والفتاة في ذلك اليوم أكثر من أي يوم مضى مع العلم بأنها لم يكونا من أصحاب الطبائع الكئيبة .

وكان مصدر الفرح لدى راكستان أن وظيفته كانت تسمح له عنه ما يريد بالثول أمام الدوقة دي كيز حيث يستطيع أن يرى دائماً الآنسة دور بيريف ، فكان يفتت الفرصة لرؤيتها ومعاتبتها ولكن في حدود المعقول ، وقد تمكنت العلاقات بين الإثنين الى حد بعيد ، فأصبحا يتبادلان الأحاديث العاطفية بين حين وحين . وكان راكستان كلما رأى الآنسة دور بيريف وكلما سمع صوتها يزداد اقتناعه بأنها ليست إلا رولاند دي مونكاييه .

وذاًت يوم تذكر الفارس بأنة الثار في شارع تريندري التي بدت له مطلعة تماماً على كل ما يتعلق بريون دور ، فقصده محلها ، وكان عندهما في ذلك اليوم رفيقاتها الثلاث كورج وبونيون وتوماس ، وكانت العجايز الأربع قد اجتمعن يفتن سموم ألسنتهن كالعادة ، فما إن رأين الفارس حتى بدأن حديثاً طويلاً تخللته الإتهامات الشنيعة بحق الفتاة ، ووردت فيه أسماء لابواس وموسكادوبرغاموت وسافيروترومباقيوروسبارتيموسكا كشيود . وقد سبكت العجايز الشريرات كلامهن سبكا

حكماً الى حدّ أن راکستان صدّق کل ما قلنه والیاس یعصر قلبه .

وخرج من عند بائعة الثار وهو فریسة للألم واللوعة فكان یسیر علی غیر هدی الى أن بلغ قصر دي کیز کانه جسد بلا روح . وقد قرّر أن یزح من قلبه ذلك الحبّ الذي یشینه ویکسوه بالعار وانقطع عن الذهاب الى جناح الدوقة .

وكانت ریون دور تبدو طیلة ذلك الوقت قلقة مضطربة وكانت تجد نفسها أكثر الاحیان تبکي وتلتحج دون سبب ظاهر، فإنها هي أيضاً كانت تتألم لغياب الفارس .

ولکن راکستان لم یکن یستطیع قطع زيارته هكذا عن الدوقة بعد أن أظهر من الحماس والتفاني في خدمتها والتردد علی جناحها كما وصفنا ، دون أن یثیر الأقاويل ويتعرض لأسئلة یرتبك جداً في الجواب علیها دون شك . وقد فهم الفارس ذلك فعاد الى الظهور بعد بضعة أيام وكان قد عزم عزمًا وطیداً علی أن لا یطیل مدة زيارته، وعلی أن یباعد بین هذه الزيارات الى أن يتمكن من قطعها نهائياً دون أن یثیر الشکوک .

ولما رآته ریون دور زالت کآبتها فوراً وظهر المرح في عینيها الجلیتین وعاد الاحمرار یکسوخذتها والابتسامة تطفو علی شفתיها . وكان راکستان قد أتى یقدّم احترامه للدوقة ویعرض علیها خدماته وكان یبتسم ابتسامة الفتی اللامبالي الذي یسخر من نفسه ومن الجميع وحقی من الحياة نفسها . ولكنه كان شاحب الوجه تلع عیناه بیریق الحمى . لقد كان کن یعاني انهیاراً عاطفياً

تماماً .

وقد حیّا الدوقة دون أن یظهر علیها أنه لاحظ وجود الآنسة دوریبریف التي كانت علی بضع خطرات منها . فلاحظت ریون دور ذلك الإهمال المتعمّد ، وعندما سنحت لها الفرصة للاقتراب منه دون أن یثیر الإنتقاد سارت إلیه وقالت بلهجة یشوبها القلق :

— ربّاه ! ما لي أراک هكذا یا سید دي راکستان ؟ هل حدث لك ما یكدّر ؟ هل أنت متعب ؟

فأجاب راکستان قائلاً بلهجة باردة كالجلید :

— لم یحدث لي ما یكدّر ولست متعباً أبداً .

ثم حیّاها بعدم الاكتراث وأدار لها ظهره .

— كلمة واحدة یا سیدی ، أرجوک .

وطرقت الموضوع رأساً دون مقدمات أو مناورات فقالت :

— لقد أبدیت نحوي الى هذا الیوم تقدیراً خاصاً علی الأقل ،

إن لم أقل انعطافاً ، وها إنک الیوم تعاملني معاملة مینة . ولما كان من حقی أن أعرف السبب فأرجو أن تقول لي ما الذي جعلني أسقط من عینک الى حد لا تکاد معه أن تتنازل لتحتي .

— إسألني صديقانک برغاموت وموسکاد وسافیر ...

فقاطعته ریون دور قائلة : هل تعرف هؤلاء الفتيات

الطیبات ؟

— لم أنل هذا الشرف .

فلبثت ریون دور لحظة تفکر سامة ، ثم تطلعت مباشرة

في عینيه وقالت :

- إن هؤلاء الفتيات الثلاث قد خدمني خدمة لا أستطيع
تحميدها ولكنني أشعر شعوراً صادقاً بأنها خدمة لا تنسى .
وأحسّ بأن التبدّل الذي ألاحظه في تصرفك محوي ناجم عن
معرفتي هؤلاء الفتيات ولا أعلم الآن ما إذا كانت تلك المعرفة
لسعادتي أو لشقائي .

وكان الفارس قد بدأ يلاحظ أن كلا منها ضحيّة لسوء
تقام فظيع إن لم يكن لبعض المناورات السافلة ، فلطّف من
وضعه رغماً عنه وأجاب قائلاً وهو يبتسم ابتسامة عذبة :
- إنك غخطنة في ما قلت .

ففكرت منية وقالت : أتريد يا سيد دي راكستان أن
تسمح لي بأن أطلعك على الظروف التي عرفت فيها هؤلاء الفتيات
الثلاث ؟

- كنت على وشك أن أرجوك ذلك يا سيدي .

وعندئذ قصّت عليه ريون دور بكل بساطة تاريخ حياتها
ابتداءً من اللحظة التي وجدت نفسها فيها وحيدة في الوجود ،
وقد شرحت هذه النقطة ببضع كلمات مقتضبة ثم دخلت في
التفاصيل عندما أخبرته عن كيفية وصولها إلى منزل لابواس
وحياتها فيه وخروجها منه .
ولما انتهت من كلامها واطّلع راكستان على ما يريد معرفته ،
الحنى أمامها باحترام عميق وأخذ يدها البيضاء المرتعشة فرفعها إلى
شفتيه وقال بصوت يرتجف تأزراً وهو لا يدري ما يقول لشدة
فرحه :

- إنك أنقى وأشرف نساء الكون وأجدرهنّ بالاحترام
والعبادة ، وأنا شقي حقير لأنني ظننت ... يجب أن أجتو على
ركبتيّ وأتوسّل إليك أن تصفحي عني ... ولكنني سأنتقم لك
وسأعاقب الشقيات اللواتي شوّهن ...

وكان سكران لشدة فرحه . أما هي فكانت مقتبطة راضية
ترمقه بنظراتها الصافية البرينة المخلصة ، وقد نسي الإثنان مكان
وجودهما ونسيا الجميع والكون كله فلبثا ينتظران منية وكلاهما
في أعلى درجات الغبطة وشرخ الشباب وأوج الجمال .

وكان ذلك إعلان حبها . لم يقول شيئاً ولكنها علما أن كلا
منها يعبد الآخر ويستطيع الاعتماد على إخلاصه ووفائه حتى
الموت .

وأخيراً الحنى راكستان أمامها مرة أخرى وغادر المكان .

ذات الرداء الأبيض أم ذات الرداء الأسود ؟

★

وذهب راكستان فوراً إلى شارع توياندري وقد التقى في
الطريق ميلورد جنسدارم وماراسكين اللذين دبّ إليهما السأم
بدونه ، وكانا يردان في جوار قصر دي كيز على أمل أن
يصادفاه . فلم يحتاج إلى أن يشير إليهما لأنها تبعاه حسب العادة .
ووصل الفارس إلى محل الأم بينيات حيث كان المعجائز
الأربع مجتمعات كالعادة ، فدخل كالعاصفة وراه المعجائز مشتعل

العينين متجهين الوجه فأيقن" بحلول الساعة الأخيرة وقد جرد
راكستان خنجره وقال لمن بصوت رهيب :
- أريد أن تفلن الحقيقة وإلا قطعت ألسنتكن الأربعة
وألقيتها للكلاب .

ولم يحتج الى زيادة إيضاح لأن اللعنات أدر كن فوراً أنه عازم
على تنفيذ وعيده فبدأن بتكلمن جميعاً في وقت واحد وقد
ظهر مما قلته أن كلامهن السابق لم يكن إلا محض اختلاق من أوله
الى آخره .

وكانت جميع شكوك الفارس في براعة ربون دور قد زالت
عندما تكلم مع الفتاة في جناح الدوقة دي كيز ، ولكنه أراد
من مجيئه الى محل بائعة التار أن يلقي درساً على المعجزة الأربع
لا ينسينه أبداً . ومع ذلك فإنه لم يضع تهديده موضع التنفيذ
بل دعا ماراسكين وميلورد جندارم وأمرهما قائلاً :

- سوف ترأقان هؤلاء الساحرات الأربع وإذا سمعتا أنهن
يقلن كلاماً شريراً في واحد من الناس فاقطعا ألسنتهن وألقيهما
للكلاب ، أفهمتا ؟

فقال ماراسكين ببرودة :

- كن مطمئناً يا سيدي .

فخرج راكستان الى الشارع حيث نظر الى باب لابواس وقد
فكّر هنيهة في الدخول إليها وإعطائها درساً قاسياً ، ولكنه هز
كتفيه وهو يغتم قائلاً : « ما الفائدة ؟ »
وكاد يتابع سيره عندما فتح باب المعجوز وخرجت منه

برغاموت وموسكاد وسافير وقد عرفهن فوراً وتقدم منهن
فظلن أنه زبون ساقته إليهن الصدفة السعيدة وبدأن يجيئنه
بظرف ولطف وكن يردن الذهاب الى حانة غراندوق عند
موفيت غول دور ، فقادهن الى هناك حيث طلب لمن ما أردن .
وعندما جلسن الى الطاولة قال لمن :

- إن ربون دور هي التي أرسلتني إليك .

فصاحت الفتيات الثلاث في وقت واحد قائلات :

- الأميرة ؟ !

وبدأت الأسئلة تنهال كالطرر : أمي سعيدة ؟ أفلا تزال كما هي
طاهرة نقية بريئة ؟ هل تفكرت فينا ؟ هل يُقدر لنا أن نراها يا
تري ؟ أين هي ؟

وقد أجاب الفارس على جميع تلك الأسئلة بلطف وكرامة .
ولكن كلمة « الأميرة » التي قلنها بتعجب أثارت اهتمامه
فحملهن على الكلام في هذا الموضوع وعلم منهن أن ربون دور
كانت على يقين من أنها أميرة فقال في نفسه : « يا لله ! ولماذا لا
تعتقد ذلك وهي الأميرة رولاند دي مونكاييه ؟ إنها هي
دون شك وأنا متأكد الآن تماماً من ذلك ! » ومكث مع
الفتيات ساعتين وهو يستمع إليهن يتحدثن عنها . وكانت السعادة
تبدو واضحة على ملائهن وهن يقمن بذلك وقد طابق حديثهن
قصة ربون دور في جميع النقاط . وأخيراً نهض الفارس للذهاب ،
وبعد أن سدد الحساب أعطى الفتيات كيسه المتفخ وهو يقول
بلطف متناه :

- لقد كلمتني ربيون دور بأن أعطيك هذا وأؤكد لكن
أنها لن تساكن أبداً. وهي لا تستطيع أن تعلمن بمكانها
ولكن صبراً فلا بد من أن يأتي يوم تجيء فيه وتأخذكن
فتتركن نهائياً هذه المهنة التي لم تخلفن لها على ما أرى .
وذهب وهو يكرر قوله بينه وبين نفسه :
« لم يبق هنالك شك في أنها رولاند بنفسها ! »

★

ولكنه لم يكن وحده الذي يقول ذلك . ففي أحد الأيام
سألت جوسلين شقيقتها وهي تضحك بخفتها المهودة وقالت :
- قولي لي يا هرموزا ، ألا يلوح لك أن الآنسة دور بيريف
تذكر الناظر إليها بشخص عرفناه جيداً فيما مضى ؟
إنها تشبه الأمير دي مونكاييه الذي ورقناه .
- يا لله ! وهل لاحظت أنت أيضاً هذا الشبه ؟
- لو عاشت رولاند دي مونكاييه لكادت تشبه الآنسة
دور بيريف شبيهاً تاماً .
وانتهى الحديث عند هذا الحد دون أن نضيف إليه الشقيقتان
كلمة واحدة .

وفي غد ذلك اليوم كان النذل بنياكل في اللوفر ، في الجناح
الصغير الذي حوله إلى مختبر كيميائي لخدمة الملك ، فأحضر أحد
الخدم إليه ورقة مطوية بطريقة ذات مغزى معين ومختومة
بختام عريض من الشمع الأحمر طبع عليه ، كشمع ، أحد
وجبي قطعة من العملة . ففض بنياكل تلك الورقة فلم يجد فيها

أي أو للكتابة . وبعد أن أدارها آلياً في مختلف الأوضاع قال
مندهشاً :

- لا شيء ! لا شيء !

ثم فكر لحظة وقال : يا لله ! لقد قلت دائماً إنها أقوى مني ،
أقوى بكثير ! ... ومع ذلك فيجب أن أتوصل إلى أن أعرف
من هي من الاثنتين تلك التي أرسلت لي هذا الأمر .

وأحرق الورقة وعاد إلى عمله . وعند المساء التفت بمعطفه
وأحكم وضع قناعه الأحمر وخروج من اللوفر قاصداً قصر الدوق
دي سوريانيس ، وكانت جوسلين وهرموزا مع الدوق عندما
أدخل بنياكل إلى القاعة فقال له رب القصر : هل من جديد ؟
- لا شيء حتى الآن يا مولاي .

وكان هذا كل ما تبادلته الرجلان من الحديث وقد بدا على
الدوق أنه اكتفى بجواب بنياكل فأذن له بالانصراف ، فخرج
هذا من القاعة ، ولما وصل إلى رواق مظلم انتفض انتفاضة جزع
وقد وقف شعر رأسه فإنه سمع صوتاً يعرفه تماماً يقول له همساً :
- لا تجهد نفسك بالبحث فإنك لن تعلم أبداً .

فشعر بنياكل برعب لا يوصف رغم رجاحة عقله وشجاعته
ولبت مسرراً في مكانه وقد شحب وجهه وشلّ الخوف قواه
وكان يبحث بعينه في كل مكان عله يستطيع رؤية شيء يعرف
منه ما يحيط به من الأسرار الرهيبة ولكنه لم ير شيئاً .
وفي تلك اللحظة شعر بيد تلمس كتفه ، فاستدار كئنه واحدة
وأسنانه تصطك فزعاً فشهد الشبح ينتصب على مقربة منه دون

أن يعلم من أين طلع عليه . فأخذ يتطلع فيه مذعوراً ويمر بيده
آلياً على جبينه الذي يتصبّب منه العرق البارد فلم يرَ أمامه ، هذه
المرّة أيضاً ، لا ذات الرداء الأبيض ولا ذات الرداء الأسود ،
بل رأى كالعادة شعباً ملتفّاً بمعطف طويل لا لون يميزه وقد
اعتمر بقبعة تحفي رأسه ووجهه ، وكان في أحد أصابع اليد التي
لمست كتفه الخاتم الذهبي البسيط ذو الباقوتة الحمراء ، وقد قال
له الشبح بصوت مهدد جليدي النبرة :

- إنه الإنذار الأخير الذي أوجه إليك .

فأخنى بنياكل باحترام وقد أحسّ بالضعف وخوار العزيمة ،
وعندئذٍ سأله الشبح قائلاً : هل أنت واثق من أنها غرقت في
مياه النهر ؟

- تمام الثقة يا مولائي !

- ألا يمكن أن تكون مخطئاً !

- يستحيل يا سيدي . لقد قلت لك إن الطفلة كانت منغمياً
عليها ونصف مخنوقة عندما ألقيتها في الواز .

- نعم ، ولكن الفارس الصغير ظل مصراً على قسوله بأنه
انتشله من النهر وجاء بها الى الضفة .

- لقد كان حالماً وأؤكد لك أنه لا يوجد ما يقلقك في هذا
الشأن .

- وإذا قلت لك إنني رأيتها حيّة ؟

- أوهام وتخيلات محضة يا سيدي ! إن الأموات أموات

ولا يخرجون من قبورهم أبداً ! ومن الممكن أن تكوني رأيت

شخصاً يشبهها وهذا كل شيء .

وسكت هنيهة ثم أضاف قائلاً ببرود رهيب :

- إذا كانت تلك الشبيهة تقلقك فليس لك إلا أن تعطيني

إشارة ...

- كن على استعداد لكل شيء وانتظر أوامري .

فأخنى دلالة على الخضوع . ولما انتصب كان الشبح الذي

يلبس في إصبغه الخاتم ذا الباقوتة الدموية اللون قد اختفى .

المهمة الاولى

*

بعد أن تأكد راكستان من أن الانسة دوربيريف هي رولاند

أميرة دي مونكاييه قال في نفسه فوراً :

« من واجبي الآن أن أسمى لأرد لها اسمها ولقبها وثروتها التي

اغتنبها الدوق دي سوريانتس وزوجته جوسلين وشقيقتهما هر موزا .

هكذا سأفعل وإلا فلن أكون جديراً بالاسم الذي أحمله ! »

وكان ذلك يعني النضال ضد الدوق دي سوريانتس سفير إسبانيا

لدى ملك فرنسا ابتداء من تلك اللحظة . ولكن ماذا يمكن

أن يفعل فارس فقير عديم النفوذ ضد شخصية قوية ذات نفوذ

واسع مثل الدوق ؟ وقد فكّر مليّاً في الموقف ثم ما لبث أن

صاح فجأة وقال :

- بحق السماء ، أليس الدوق دي كيز هنا ؟ يا الله ! وبما

أنني اتخذته سيداً لي فلأن أقل ما يجب عليه هو أن يفعل شيئاً
لأجلي !

وعندما قرر أن ذلك « السيد الذي اتخذته » مفروض فيه
أن يخدمه في بعض الشؤون ، أقام ينتظر بفارغ صبر أن يكلفه
دي كيز بالهمة الأولى ، وكان يتمنى من كل قلبه أن تكون
تلك المهمة بالغة الأهمية محفوفة بالأخطار والصعوبات ، أي أن
تكون من تلك المهام الرئيسية التي تُكسب من ينجح في تنفيذها
ثقة سيده المطلقة واحترامه وعطفه .

ولا لزوم للقول بأن راكستان كان على يقين تام من أن تلك
المهمة سوف تكون من أشرف المهام . وكان يعتقد أنه بين
الدوق إهانة لا تفتقر بمجرد أن يفترض فقط أنها قد تكون غير
ذلك ، حتى أن تلك الفكرة لم تمر بباله مطلقاً وكان موثقاً من
أنه سينال غايته قريباً .

وكان الدوق دي كيز يفكر فعلاً بأن يكلفه مهمة حتى أننا
لنستطيع القول بأنه لم يضمّ الفارس إلى خدمته إلا لأجل ذلك .
ولكن المهمة التي سيكلفها إليه هائلة رهيبية لا تخطر في بال ، فإن
دي كيز كان يريد أن يضرب الضربة الكبرى وأن يخاطر برأسه
ورؤوس أتباعه في سبيل رأس واحد هو رأس هنري الثالث ملك
فرنسا ، على نحو ما كان يفكر من قبل في قطع رأس شقيق
الملك الحالي ، الملك شارل التاسع^(١) .

١ - راجع رواية « بارديان » و« حب وحرب » التي صدرت عن « دار
الروائع » لتفصّل عن أخبار دي كيز مع شارل التاسع .

وقد دعا راكستان في ذلك اليوم وانفرد وإياه في قاعته
الخاصة وأخذ يتأمله بنظرة فاحصة دقيقة . وبعد أن مرّ بيده على
جبينه المندمى بالعرق بدأ يتكلم ببطء وروية مباعداً ما بين
الكلمات كأنه يبليو الفارس ولا يجرؤ على التعبير عما يريد بصراحة
إلى أن قال أخيراً :

- سوف أحتاج إليك أيها الفارس في تنفيذ مهمة خطيرة...
خطيرة جداً... أو بمعنى أصح ، وحيدة فريدة في خطورتها .
- ألعلمها معركة يا مولاي ؟ وحسب الشيطان إن خوض
المعركة أفضل من هذا المحول ! لقد كاد يقتلني الضجر وأنا قابع
هنا لا أفعل شيئاً . لقد مللت يا مولاي وعلا الصدا سيفي . فإلى
المعركة ، إلى المعركة !

فهدأه دي كيز بإشارة وتابع كلامه قائلاً بتردد :

- نعم ، إنها معركة... معركة فاصلة... إنها معركة الحياة
أو للموت التي تتضمنها المهمة التي سوف أكلفك بها .
- حسناً ، إن حياتي ملكك فتصرف بها كما تشاء ولن أموت
سوى مرة واحدة رغم كل شيء . وأرجو أن تعتبرني مخلصاً في
قولتي يا مولاي .

- أنا على يقين من أنك سوف تنجح مهما كانت المهمة خطيرة
كما أنك الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يضطلع بها على خير
وجه ، ولذلك فقد اخترتك وفضلتك على الجميع . إن مصيري
بين يديك ولكنني أكاد أكون مطمئناً إلى النتيجة ، وسوف
أكون مديناً لك بحياتي ، ولا لزوم للقول بأنك شكافاً مكافأة

لا تخاطر ببال أحد .

فأطرق راکستان برأسه وقد احمرّ وجهه خجلاً ، وكان صوته
مخنقاً عندما اعترف بصراحة قائلاً ؟

— إنك تراني خجلاً يا مولاي لأن الحقيقة ترغمني على الاعتراف
بأنني كنت أهدف سلفاً الى غاية شخصية من وراء الاضطلاع
بأعباء مهمتي .

ورأى دي كيز احمراره وارتبأكه فتعجب من ذلك ولكنه
قال في نفسه :

« بلوح لي أن هذا الشجاع لم يعتدّ بعد على طلب المكافآت
وقبولها . ولكن قد يكون ذلك من باب اللباقة ليظهر نفسه
بمظهر الرجل الحساس الكريم ، فإذا كان خجلاً حقاً فيجب ألا
أزيد ارتبأكه ، وإن كان الأمر لباقة فلا كن البقي منه . »
ثم غدره قائلاً : ليس هنالك ما يوجب الخجل لأنني لو كنت
مكانك لفعلت ذلك .

وقد قال ذلك بكل لطيف وظهر اقتناعه بقوله واضحاً جلياً
الى حد أن راکستان زايله حرجه وارتبأكه فصاح قائلاً :

— لك الحمد يا مولاي فإنك قد رقت عن ضميري عبثاً ثقيلاً
وأعترف لك بأنني كنت أخشى أن أسقط من عينيك ، وأقسم
أنه ليس من عادي أن أظهر نفسي مسوقاً هكذا وراء غايتي
الشخصية ، وعندما تعلم الأسباب القاهرة التي جعلتني أتصرف على
هذا النحو فإنك ...

فقاطعه دي كيز قائلاً بالطيبة نفسها :

— على مهلك يا صاحبي ولا تدافع عن نفسك هكذا . أعيد
عليك أن الذي تفعله يبدو طبيعياً جداً .

ثم أردف يقول بصراحة : وبما أنك تريد تحديد المكافأة
بنفسك فحدها ولا تردد وأقسم لك بشرف آل لورين أنني
سامحك تلك المكافأة كائنة ما كانت .

فكاد راکستان يعلن فوراً عن المكافأة التي ينتظرها ، ولكنه
فكر هنية وقال في نفسه :

« إن أول ما سيطلبه مني هو أن أقدم له البرهان على أن
الآنسة دوربيريف هي الأميرة رولاند دي مونكابييه ، وأنا لا
أستطيع تقديم هذا البرهان لأنني لم أحصل عليه بعد . ولذلك
فإنه سيؤجل النظر في القضية الى وقت آخر . ولكن من الممكن
أن ينسى وعندئذ يتحتم عليّ تذكيره ، وبذلك أعود الى
الارتباك نفسه الذي يستولي عليّ الآن . »
وقال بصوت مرتفع :

— إسمح لي يا مولاي أن لا أقدم بطلي إلا عندما أرى
ذلك مناسباً مع الاحتفاظ بكامل حقوقي في ما أعطيتني كلمتك
على منحي إتياء ا

— ليكن . ولك كلمتي الدوقية .

فقال راکستان وهو ينجني : شكراً يا مولاي .

ثم انتصب وتطلع مباشرة في عيني الدوق وهو يقول : لتسبح
الفرصة وسوف اظهر لك أنني لن أكون أبداً صاحب غايات
شخصية كما هي الحال هذه المرة .

فقال راكستان : سأكون في شارع فياي كوريري قبل
الساعة الرابعة بربع ساعة .

وعندئذٍ صرفه الدوق وهو يقول بلهجة لطيفة : حسناً، وبما
أنك حدثت مكافأتك بنفسك فلا تنس أنني أعطيتك كلمتي
فانذهب الآن أيها الفارس الشجاع !

فانحنى راكستان وقال : لن أنسى ذلك يا مولاي !
وخرج بخطوات ثابتة حازمة .

شارع فياي كوريري

*

لم يذهب راكستان بعيداً ليبعد رفيقه الذين سماهما ذراعيه،
فإن شارع « شوم » حيث يقع قصر دي كيز كان يتبدل اسمه ،
ابتداءً من شارع المعاطف البيضاء لغاية شارع بريتونييري، شارع
الرجل المسلح. وقد وجد الفارس الرجلين في إحدى حانات هذا
الشارع .

ولما رأياه يتفحص سلاحها وعدتها بنظرة سريعة فهم أنها
أنى لياخذها في مهمة ، فهبتا واقفيتين فوراً وهما يصلحان من
وضع حمالتي سيفيها ، فابتسم الفارس وغادر الحانة دون أن
يشير إليها وقد تبعاه على الأثر كالعادة .

وسار راكستان الى شارع فياي كوريري عن طريق شارع
أوبري لوبوشيه، وذلك ليتفحص جيداً واجهتي المنزل، فألقى

فأنى دي كيز بحركة تعني أنه لا يعلتق أية أهمية على مثل
تلك الأمور . وقد شعر كل منهما بالراحة والغبطة بعد أن قالا
ما كان يتقل عليه قوله وُصفتي كل شيء على ما يرام ، فانقلب
الدوق الى ظهر مقعده العريض المزين بشعارات آل لورين وأخذ
ينقر بأصابعه على حافة الطاولة الموضوعة أمامه ثم قال بلهجة
جدية :

- لتتكلم الآن بشأن مهمتك وأظن أن لديك بعض الرفاق
المخلصين الشجعان الذين يستطيعون مساعدتك بقوة مقابل مكافأة
شريفة ، أليس كذلك ؟

- لدي فعلاً يا مولاي رجلان أعتبرهما بمثابة ذراعيّ وهما
يتمتعان بقوة هرقلية ومهارة تفوق التصور ، وأستطيع أن أضم
إليّ بعض الرجال الشجعان إذا اقتضت الضرورة ولكنني لن
أكون مسؤولاً حقاً إلا عن نفسي وعن ذراعي .
ففكر دي كيز لحظة وقال :

- إذهب مع بطليك هذين الى شارع فياي كوريري، ويجب
أن تكونوا هناك قبل الساعة الرابعة بقليل ، وستجدون في زاوية
شارع فياي كوريري وأوبري لوبوشيه بيتاً يبدو مهجوراً وله
مدخلان أحدهما من شارع أوبري لوبوشيه ، والآخر من شارع
فياي كوريري، فتأتون أنتم الى هذا المدخل الأخير . لا تطرقوا
الباب فإنهم سيرونكم من البيت ويفتحون لكم، فتدخل وحدك
ويبتظر رفيقك في الشارع مستترين . وسأعطيك هناك تعليماتي
الأخيرة .

نظرة وهو سائر على الباب المنخفض السميك المصفح ، ورفع عينيه الى البيت فاستنجد أنه مهجور ، وكانت جميع أبوابه ونوافذه مغلقة .

فترك ماراسكين وميلورد جندارم اللذين وجدا للحال فجوة في أحد الجدران فاخْتَبأ فيها ، وتابع سيره الى شارع فياي كوريري حيث كانت أبواب المنزل ونوافذه جميعاً مغلقة في تلك الجهة أيضاً ، فتقدم ببطء ووقف أمام الباب في الساعة الميئة تماماً .

وقد فُتِح الباب أمامه دون ضجة ، فدخل هوأ معتماً وجد نفسه فيه أمام رجل ملتف من الرأس الى القدمين بمعطف لا يميّزه ، ومعتمر بقلنسوة فضفاضة تخفي وجهه تماماً ، وكان هو الذي فتح الباب للفارس وقد أشار إليه أن يتبعه دون أن ينبس بكلمة .

ولما وصل راكستان ودليله الى قاعة تطل على الشارع ، أسقط هذا المعطف والقلنسوة فإذا هو الدوق دي كيز بنفسه ، فدهش الفارس لذلك وبدأ بتوقع حدوث أمور رهيبة مشبوهة . وقد خدمت فجأة جذوة الحماة التي أثارها في نفسه محادثته مع الدوق في الصباح ، فأخذ يراقب ما يجري أمامه بذهن نير وانتباه كلي .

ولم يكلمه الدوق بل ذهب فوراً الى النافذة فالصق عينه في ثغرة فيها وجعل يراقب الشارع ولم يلبث أن انتصب بعد قليل وهو يغمغم قائلاً : إنه لم يحضر بعد ، ولا يزال لدينا متسع من

الوقت !

وكان وجهه متقلصاً بالحد الهائل ، وفي صوته المتهدج نبرة تهديد رهيبة مما جعل راكستان يقطب حاجبيه ويقول في نفسه : « يظهر أننا ننتظر شخصاً معيناً ! أنا لا أعلم من هو ولكنني لا أثنى أن أكون إياه ! ومع ذلك فأني أريد أن أعلم ماذا نفعل هنا ! »

وكان دي كيز على عجلة من أمره وكان يعتقد أنه يستطيع الاعتماد على راكستان بعد الحادثة التي دارت بينها في الصباح ، وقد خيّل له أن الأمور قد صفت كلها وأن لا فائدة من العودة إليها فبدأ يظهر نيته فوراً وقال :

— يجب أن تعلم أيها الفارس بأن لي عدواً هائلاً رهيباً قوياً جداً ... بل هو أقوى رجل على وجه الأرض ... وأن بيني وبينه صراعاً ميمتاً لا هوادة فيه . أي أنه ، عاجلاً أو آجلاً ، يجب على أحدنا أن يقتل الآخر .

فهم راكستان هذه المرة موضوع المهمة التي سيكلفه بها الدوق وقد بدرت منه حركة احتجاج عنيفة ، ولكنه تمالك نفسه فوراً وقال بسخوية خفيت على دي كيز :

— ومن الطبيعي أنك تفضل أن تقتل على أن تُقتل . لقد فهمت تماماً ، كما أن تصفية هذه القضية من السهولة بمكان ، أي أنك تتحدى عدوك فتتبارزان وتقطعنه في صدره طعنة هائلة . وهكذا ترى أن الأمر بسيط جداً .

— إن لم يكن سوى ذلك فالأمر سهل كما تقول ، ولكنني

لسوء الحظ لا أستطيع مبارزة ذلك العدو، ويجب عليّ إذن أن أكلف شخصاً آخر بهذه المهمة الشريفة .

- ولقد فكرت بتكليفها بها ... فكن علي يقين من أنني أقدر هذا « الشرف » حق قدره .

وقد نسي الفارس نفسه لحظة فقال ذلك من أطراف شفتيه، فقال دي كيز متعجباً :
- ماذا؟! أملك تردد؟

فكاد راكستان ينفجر ، ولكنه كان يريد الآن أن يعرف الشخص الذي يعرض عليه الدوق أن يقتله ، وكان قد اشتبه في أنه ملك فرنسا منذ أن وصفه الدوق بأنه « أقوى رجل على وجه الأرض ! » ولما كان يريد أن يتأكد تماماً من هوية الرجل المطلوب قتله ... فإنه تمالك نفسه مرة أخرى . إلا أنه قال بلهجة غير واضحة :

- والنتيجة أنك تعرض عليّ ارتكاب جريمة قتل!

- من الذي كلمك عن القتل؟ إنها مبارزة شريفة سيفاً لسيف وصدراً لصدر وليس هناك شيء آخر.

وكان راكستان قد عرف الكثير فلم يعد كلام الدوق ينطلي عليه فقال متظاهراً بالتردد: ما دام الأمر كذلك فلماذا أوصيتني بأن أحضر معي رفيقي؟

- لأن الرجل قد يكون مصحوباً ببعض رفاقه وفي تلك الحالة يتدخل رفيقك بدورها .

- أي أنه إذا كان الرجل وحده فإن رفيقي لن يتدخل ،

أليس كذلك؟

فقال الدوق بسرعة: تماماً ، لأنك تكون عندئذٍ أهلاً لتنفيذ الأمر بمفردك .

إذن كان ذلك فإن الأمر مختلف ... مختلف تماماً .

- أقبّل إذن؟

فقال راكستان بعزم : أرفي الرجل أو سمّه لي .

وقد ظن الدوق أنه قبل ، فتنهد ارتياحاً وأشار بيده الى ثغرة النافذة وهو يقول : أنظر الى عدوي الذي سيقتلني إن لم أقتله ... فإنه الآن في الشارع .

فاقترب الفارس من النافذة بسرعة ونظر الى الشارع وقد عرف في عدو الدوق ملك فرنسا رغم بساطة ثيابه ، فانتصب ببطء وأشار بسبّابه الى النافذة وهو يقول للدوق الذي كان يراقبه مراقبة شديدة :

- إنه الملك !

- نعم .

فصفر راكستان صفرة إعجاب شديد وكان يبدو هادئاً راضياً الى حدّ أن الدوق خدع بمظهره وأحس بالأطمئنان بثلاج صدره . ولكن الفارس هزّ رأسه سلباً وقال :

- سوف يرفض القتال !

- أرغمه عليه .

- كيف؟

- إن هذا شأنك ...
- سوف يعلن عن نفسه ...
- قل له إنه كاذب !
- ولكن إذا أصرّ على عدم تجريد سيفه ، فماذا أفعل ؟
- تضع رأس سيفك على عنقه فيضطر عندئذٍ الى الدفاع عن نفسه .

- وإذا لم يدافع ؟
- تقتله عندئذٍ كأنه كلب كليل ويكون هو الذي أراد ذلك . وفي جميع الأحوال ماذا يعنيك من أمره ما دمت ستكافأ بما تريد ؟
ورأى راکستان أن اللعبة قد تعدت حدّها ، فألقى القناع بدوره وقال بصوت خفيض ولهجة ساخرة مرحة :

- يا للشيطان ! إنك ماهر جداً في حبك جرائم القتل ، ويبدو أنك معتاد على هذا النوع من المؤامرات . لقد رأيت في حياتي أشراراً لا يترجعون عن تنفيذ أية مهمة مهما كانت سافلة بشعة ولكن هؤلاء يعدّون نماذج للشرف والفضيلة إذا قيسوا بك أيها الدوق !

فزجر دي كيز هائلاً :

- أيها الشقي الحقيّر !

فلم يتنازل راکستان حتى الى أن يغضب ... بل نظر إليه بعجب شديد وقال :

- شقي ! ولماذا ؟ ألاني أرفض قتل الرجل الذي تريد أن

تسرقه ؟ إذ أن هذه هي غايتك في الواقع : الكيس أو الحياة ، ولا شيء سوى ذلك ! أي أنك تماماً كهؤلاء المتشردين الذين يكونون لضحاياهم في الغابات أو في الزوايا المظلمة من الشوارع . ولكنك أنت أشدّ جشعاً من هؤلاء المساكين فان الكيس الذي تطلبه هو مملكة كاملة متراوية الأطراف . يا للشيطان ! إنه لأمر مؤسف أن يكون للإنسان مثل تلك المطامع وأن يدعى هنري الكبير وهو لا يجرؤ مع ذلك على إنجاز مهمته بيده بل يحقّر نفسه باللجوء الى شيطان مسكين مثلي لينفذ له تلك المهمة . أتعلم أن ذلك من العجب العجائب ؟ ! أتريد قتل الملك ؟ أقتله بحق الشيطان ... ولكن إفعل ذلك بنفسك ! ما الذي يمنعك من مبارزته وجهاً لوجه ؟ أتريد أن أذهب وأجيتك به ؟ نعم ، أنا بنفسني ... ولماذا لا ؟ فإنتي في غاية الفضول لأرى ما سوف تفعله ، وقد استبدت في فضولي الى حدّ أنني سأذهب الآن لآتيك به .

شارع فياي كوريري أيضاً

*

لم يكن الدوق قد عاد من دهشته عندما خرج الفارس الى الشارع ، ولكنه تمالك نفسه تماماً بعد ذهابه فقدّر خطورة الموقف . وكانت أول فكرة عنّت له هي أن راکستان لا بد أن يشي به ويفضحه ، فانقض على النافذة وقد فتح عينيه وأذنيه بانتباه كلي .

وتقدّم راكستان من الملك فرغ قبّعتة. وانحنى أمامه بلطفه
المزهو المعبود، فتعجب هذا ووقف في وسط الشارع وقد
قطب حاجبيه في بادية الأمر كأنه نسي أنه متنكّر بزى نبيل
عادي، ولكنه تذكر دوره بسرعة فتألك نفسه. ولما رأى
الفارس يتصرّف نحوه بكل ذلك التهذيب رفع قبّعتة بدوره
وردة التحية بلطف لا يقلّ عن لطف راكستان ولبت ينتظره.
فأعجب راكستان بتصرّفه، وخاصة بذلك الهدوء الممتاز
الذي يئمّ عن شجاعة حقيقية، فقال برصانة:

— هل أجرو يا سيدي على أن ألتبس منك قضاء حاجة؟
وكان هنري الثالث قد تفحصه من جهته بنظرة سريعة فأعجبه
جداً، فلطّف من جوده وقال له بإتسامه لطيفة:
— إن لك يا سيدي طريقة في تقديم نفسك للناس والكلام
معهم هي من الظرف واللطف بحيث لا يمكن لي أن أرفض
طلبك. وإذا كان ما تريده في إمكاني فإني أجيبك إليه بل
السرور.

فقال راكستان وهو ينحني:
— إنك تخجلني يا سيدي. ومن جهة ثانية فإن ما أطلبه
تستطيع أن تجيبني إليه دون عناء، إذ أنني لا أطلب إلا أن
تشرّفني بمرافقتك إياي إلى ذلك البيت الذي تراه في زاوية
الشارع...
— لعلك تريد أن تشرب معاً بعض الزجاجات، أليس
كذلك؟

فقال راكستان بأسف ظاهر: كلا يا سيدي، بل لأضعك
وجهاً لوجه أمام نبيل تركته هناك وهو يتعرق شوقاً لمبارزتك..

فقاطعه الملك قائلاً وهو يرفع قامته:

— لا شك في أنك أحق يا سيدي!

وفي تلك اللحظة ظهر نبيل يرتدي زياً بسيطاً كأنما الأرض
قد انشقت عنه وتقدّم يقف قرب الملك في وضع ذي معنى
خاص. وكان هذا هو لوان رئيس فرقة الخمسة والأربعين فعرفه
الفارس فوراً، كما أن وضعه المهيب لم يخفّ عليه ولكنه تظاهر
بأنه لم يلاحظ شيئاً وقابع يقول للملك:

— وقد جئت لأسألك إذا كنت تفضل بقبول دعوتي وتأتي
معي لمبارزته.

فالتفت هنري الثالث إلى لوان وهو يبتسم ابتسامه حادة ثم
عاد إلى راكستان وقال له:

— من المؤكد أيها السيد أنك إما أحق وإما ممزح سمج.
وكان دي لوان قد أخرج خنجره من غمده وأخذ يلعب به بلا
مبالاة، ثم تدخل وقال وهو يبتسم:

— إن الحمقى يُعاجلون ولكن المازحين السمجين...

فقاطعه راكستان قائلاً بلهجة جافة:

— إنني لا أوجّه إليك الكلام يا سيدي دي لوان بل أشرف
بالكلام مع حضرة السيد.

وقد سمى الفارس دي لوان باسمه ليُفهم الملك أنه عرفه رغم
تنكّره، ففهم هنري، كما تأكّد للعالم من أن الأمر ليس

مزاحاً سمجاً بل إنه جدّي تماماً ويجب أن يوضح دون تأخير .
فأشار الى دي لوان بأمره بالصمت ، وقال لراكستان :
- أعذرني أيها السيد ولكنني لا أستطيع الاعتقاد بأنك
تتكلم جدّياً .

لقد كنتني منذ هنية وفي البيت الذي دلتك عليه ، شخص
بأن أتحداك وأقتلك .

فقال الملك بكل هدوء ؟ إذن لقد عرضوا عليك أن تقتلني
مقابل مكافأة محترمة ، أليس كذلك ؟
- هو هذا .

- وكيف ؟

- بالسيف أو الخنجر .

فقال الملك باشمزاز : جريرة قتل !

فقال رراكستان بلهجة المطمئنة : لقد كان هذا هو جوابي .
وبعدئذ سألت ذلك الشخص عن سبب عدم قيامه بتلك المهمة
بنفسه ، ولما لم يقنعني جوابه فقد أتيت لأخذك إليه .

فقال الملك بحفاة : حسناً ، هيا بنا .

فابتسم رراكستان وقال : لا فائدة الآن ياسيدي لأن العصفور
قد طار .

فقال هنري متعجباً : وكيف ذلك ؟

فأوضح رراكستان قائلاً : إن للبيت مدخلا آخر من شارع
أوبري لوبوشيه ، وبينما كنا نتحدث سمعت صوت باب يُغلق
بجذر ، وقد فرّ الرجل نفسه من ذلك الباب . وكن على يقين

من أن البيت خال الآن .

ولم يكن رراكستان مخطئاً في قوله لأن الدوق دي كينز الذي
تركناه يراقب من ثغرة النافذة قد رأى وسمع كل شيء ، فغادر
المنزل من شارع أوبري لوبوشيه وأطلق ساقيه للريح .

أما الملك فإنه قال لراكستان بلهجة اللائم : ولماذا لم تنبهني؟
فأجاب رراكستان قائلاً بلهجة باردة : لقد جئت ياسيدي
لأعلمك بأن عدوّاً يتآمر على حياتك ، وأعتقد أنني فعلت ذلك
بطريقة جديرة بنديل مخلص . أما أن أشي بالرجل أو أسلمك إياه
فإن ذلك بعيد جداً لأنني لست وأشيأ أو مومتاً للجلاد .

قال الفارس ذلك وهو ينتصب بكبرياء وقد أشرق وجهه
بنور الشجاعة التي لا مثيل لها ، فلم يسع الملك إلا أن يُعجب به
إعجاباً شديداً ويقول له بكل بساطة :

- أعذرني ياسيدي .

فقال رراكستان ببساطة تضاهي بساطته : إنني لست حاقداً
عليك .

ففكّر الملك لحظة ثم قال فجأة : إنك تعرف من أنا ، أليس
كذلك ؟

فانحنى رراكستان بلطفه الفخور الذي لا يحاربه فيه أحد
وقال : أعرف أنني أثال الشرف العظيم بالتحدث مع الملك !

فوضع الملك عندئذ قبّعته على رأسه وقال : ما أسمع ؟

- هوبير ، الشيفالييه دي رراكستان يا مولاي .

فقال الملك ممتدحاً : إنه اسم ذو قيمة كبيرة ، ولكنها مع

ذلك لا تضاهي قيمة الذي يحمل هذا الاسم .

فأخنى راكستان وهو يسمع هذا المديح بينما تابع الملك يقول وهو يبتسم بعطف :

- لقد أدت لي أيها الفارس دي راكستان خدمة لن أنساها أبداً .

ثم استدار نحو دي لوان الذي كان يسمع الحديث شامتا وقال له :

- إن هذا الشاب يعجبني جداً، فقل لي يا لوان ماذا نستطيع أن نفعل لأجله ؟

فأجاب لوان قائلاً : خذته في فرقة الخمسة والأربعين ، وعلى ما أراه من ظواهره فسوف يكون له شأن وأي شأن في تلك الفرقة .

ثم قال لراكستان : ما قولك في هذا أيها الفارس ؟

فأجاب قائلاً : يا لشقائي وسوء حظي ، فأنا لا أستطيع الانضمام الى تلك الفرقة اللامعة .

فقال لوان متعجباً : لماذا ؟

- لأنها لن تبقى عندئذ فرقة الخمسة والأربعين .

- سوف تصبح فرقة الستة والأربعين .

- تماماً ، ولكن الستة والأربعين يا سيدي غير الخمسة

والأربعين . وقد كانت غايي أن أشكّل عضواً من الخمسة

والأربعين ، ولكن إذا أصبح الخمسة والأربعون ستة وأربعين لا

يبقى لي مجال للانضمام إليها ، فاعذرني يا سيدي .

ورغم أن لوان فهم أخيراً أن راكستان هزأ به ، فقد كان يريد أن يتابع إلحاحه ليرضي الملك ، وعندما يصبح الفارس تحت إمرته يكون لكل حادث حديث . ولكن الملك قال له وهو يضحك :

- كفى يا لوان ، كفى .

وقال لراكستان : وإذا ألحقتك بي شخصياً، فهل ترفض أيضاً؟ فأجاب الفارس بصراحتة وجرأته المعهودتين قائلاً :

- نعم ، إنني أرفض أيضاً الشرف الكبير فأنا أعتقد أنني سوف أكون أكثر فائدة لك وأنا بعيد ، مني وأنا قريب .

وكانت صراحة الشيفالييه وجرأته وتصريحاته تنال إعجاب الملك ورضاه أكثر فأكثر ، وخاصة تصرفه الأخير فإنه أثر فيه تأثيراً كبيراً ، فقال له بلطف متناهٍ .

- أريد أن أسهل لك مهمتك ، ولذلك ففي أي بيت أو

قصر خاضعين لسلطة الملك ليس لك إلا أن تلفظ اسمك ، راكستان ، فتفتح أمامك جميع الأبواب . فاذهب الآن يا

سيدي... ولكن مهلاً خذ هذا تعويضاً عن الحسارة التي لحقتك من جراء رفضك أن تقبلي.

وكان « هذا » كيساً حريزاً يحمل اسم الملك وشعاراته

مطرزة بالذهب وهو مملوء بالقطع الذهبية . فأخذ راكستان

الكيس وأفرغه فوراً ثم أخنى أمام الملك قائلاً :

- إنني أحفظ بالكيس تذكراً على العطف السامي الذي أراد

الملك أن يشرف به نبيلاً فقيراً مثلي . أما الذهب فإني لا

استحقه ولكن بما أن الملك لا يسترجع ما وهبه فسمح لي يا مولاي
أن أفرقه على هؤلاء الشياطين المساكين الذين أراهم هناك .

ثم التفت الى السابلة والفضوليين والفقراء المجتمعين في الشارع
وناداهم قائلاً :

— هؤلاء ! خذوا من قبيل هذا السيد التبيل الذي يريد أن
يسمعكم تهتفون : « ليحيَ الملك . »

ونثر عليهم الذهب فأسرعوا يلتقطونه ويهتفون بجلء حناجرهم :
« ليحيَ الملك . »

وكان ميلورد جندارم وماراسكين قد خرجا من الحفرة
حيث كانا مختبئين . وبعد ذهاب الملك رأهما راكستان الى
جانبه وكانا يبسمان ابتسامتين عريضتين . وقال ماراسكين
مستعلاً : ونحن يا سيدي أين حصتنا ؟

فقال راكستان ضاحكاً : سنال نحن حصتنا في المرة القادمة .
فتبادل المكينان نظرات تبعت على الرثاء . ثم أطلقا تهديتين
تذيان الصوآن وسارا وراء سيدهما .

نهوض الملك من النوم

*

وفي صباح اليوم التالي ، في قصر اللوفر ، فتح خادم غرفة
الملك ، السيد دي هالد — بيار دي سور هوبت دي هالد ، يارون
دي لونغ فييه ، سيد دار مينفييه ، ضابط ورئيس وحاكم مدينة

وقلعة إيتابل — باب غرفة مولاه على مصراعيه ، ثم فتح النوافذ
فتدفق النور الى داخل الغرفة .

وكان يقف على أقدام سرير الملك خدم الغرفة العاديون ،
مساعدو دي هالد ، وهم منتصبون يخضع عليهم الصمت والحشوع .
وعلى أثر إشارة من دي هالد أزاح أحد هؤلاء الخدم ستائر
السرير فخرج الملك من بين الشراشف الناصعة البياض المزينة
بالتطريز الدقيق الثمين وجلس في الفراش فوضع خادم على كتفيه
معطفاً صغيراً من الساتان الأبيض المبطن بالحرير ، ونزع ثاب
عن وجهه قناعاً ناعماً مكسواً من الداخل بطبقة من المساحيق
المعطرة كان يضم جميع أجزاء الوجه التي تكسوها اللحية ،
وخلتصه ثالث من القفازين المعطرين الذين قضى الليل وهو
يلبسها .

وعندئذ أدار الملك وجهه صوب الحاضرين وقال في كثير من
المرح : صباح الخير أيها السادة ، صباح الخير .
وجاء خادم رابع يحمل منشفة مبللة قدمها للملك فغسل
هذا بها أطراف أصابعه ، ثم اقترب آخر وهو يحمل طاسة من
الذهب الخالص ، على صينية من الذهب أيضاً تحوي شراب الصباح .
ولكن الخادم لم يقدمها بل لبث واقفاً ينتظر ، فألقى الملك نظرة
الى ما حوله فتهاقت الجميع صوبه وكل منهم يجارل أن يظفر بلفتة
منه أو كلمة ولكنه نادى قائلاً :

— لوان !

فتقدم لوان مغتبطاً وهو ينحني انحناوات متواصلة وقد

انصبّت عليه ، وهو سائر ، نظرات الحسد والحقد من أولئك الذين يتمنون أن يكونوا في مثل موقفه ، فأخذ الصيفية الذهبية من يدَي الخادم وطوى ركبته وانحنى وقدم الطاسة الى الملك ، فأخذها هذا وشكره بابتسامة زادت من تقمة الحاضرين عليه . . . وبينما كان الملك يتجرّع شرابه ببطء وهدوء دخل غاسبار بنياكل الى الغرفة الملكية ، فتوقّف الملك عن الشرب وقال له بابتسامة عطف : أما سعيد برؤيتك يا سيد بنياكل .

فانحنى بنياكل بتحية ممتازة وقال باحترام : هل نمت جيداً يا مولاي ؟

- نمت نوم الملوك !

وقد ضحك هنري وهو يقول ذلك فانفجر الحاضرون يشاركونه الضحك . . . وعاد بنياكل يقول :

- لقد سبق أن قلت لجلالة مولاي أنكم ستنامون يوماً هادئاً . فقال الملك : وذلك بفضل الشراب الذي أعطيتني إياه .

وكان قد انتهى من شرابه فاقرب خادم آخر يحمل صحناً ذهبياً صوّت فيه شرائح اللحم الطريء الشهي ، فقال الملك : تأولني الصحن يا بنياكل .

فبعد أن تناول الصحن دعا بنياكل قائلاً له بكل لطف :

- تعال الى قربي لتتحدث قليلاً كما يتحدث الأصدقاء مثلنا . فدار بنياكل حول السرير وهو لا يلقي بالاً الى ابتسامات الحاضرين وانحناءاتهم له بعد الذي ناله من عطف الملك ، تماماً كما فعل عندما استقبلوا دخوله الى الغرفة ببرودة جليدية . ولما أصبح

قرب الملك أدار هذا ظهره للجمهور ليواجه ثم مدّ اليه الصحن وهو يقول :

- كلّ معي من هذا اللحم اللذيذ يا سيد بنياكل .

وبينما كان بنياكل ينحني ليأخذ بعض اللحم من الصحن ، قال له الملك بصوت خفيض :

- هل رأيت ما يريب ؟

- أبدأ يا مولاي ، وآمل أن تظلل الأمور دائماً هكذا .

- لتأمل ذلك . وفي جميع الأحوال أنا أكثر اطمئناناً منذ

أن بدأت تسهر عليّ وقد زالت من نفسي عقدة المأكّل فأصبحت آكل وأشرب بكل اطمئنان كما يفعل جميع الناس ، فضلاً عن أنني بتّ أنام جيداً في هذه الأيام وهو ما لم أكن أستطيعه في الماضي ، وكل ذلك بفضلك .

فاستعلم بنياكل قائلاً : إذن فجلالة الملك مسرور من الشراب الذي أعطيه إياه ؟

- تماماً ، ولا آسف إلا على شيء واحد وهو إنني لم أحصل عليه من قبل .

وكان هنري الثالث يريد أن يظهر له امتنانه فأضاف قائلاً :

أعتقد أنني لاحظت أنهم ينفرون منك هنا !

فقال بنياكل في مرارة : إن ذلك بسبب قناعي ، ولقد كنت تفساً في بادئ الامر أما الآن فإنني لم أعد ألقى إليهم بالاً .

- نعم ، ولكنني أريد أنا أن تعامل في قصري بالإكرام والاحترام الذين تستحقهما .

— أشكرك من كل قايي يا مولاي ، ولكنني أعامل حسب استحقاقني وليس لي أن أذم من أحد .

وقد قال بنيماكل ذلك بلهجة لا غبار عليها في الظاهر ، ولكن لو كانت لهزري الثالث أذن دقيقة حساسة للاحظ أن في تلك اللهجة حقدأ مكتوماً طغى على نبرات صوته رغماً عنه ، ولكن الملك لم يشعر بشيء من ذلك . ولما رأى أن ما أظهره من التقدير الخاص لذي القناع الأحمر يكفيه للظفر باحترام رجال البلاط ، ختم تلك المقابلة الخاصة بكلمة لطيفة . وبينما كان بنيماكل يدور حول السرير ليخرج ، قلل له بصوت مرتفع :

— لا تترك الغرفة يا بنيماكل .

وأشار بيده فرُفع صحن اللحم ، وبعد ذلك أحضر له خادم منشفة أخرى مبللة ففصل بها مجدداً أطراف أصابعه .

وفي تلك اللحظة دخل قائد الدرك الى الغرفة فسأله الملك فوراً وقال : ما وراءك يا سيد دي ناتوييه ؟

— لقد أمرت بتفتيش البيت الذي أشرت إليه أمس يا مولاي فلم أجد فيه أحداً . وقد تجرّبت عن مالكه فعلمت أنه مات منذ ثلاثة أشهر ، وقد اختلف ورثته بشأن ذلك البيت ولا يعرف الى الآن من الذي يملكه .

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً : أتريد يا مولاي أن أتابع التحقيق ؟

وكان هنري الثالث لا يريد أن يعلم أحد الأسباب الحقيقية التي أوجبت عليه أن يأمر بذلك التحقيق كما أنه أمر لوان ألا

يتكلم مع أي كان بما سمعه من الشيفالييه دي راكستان ، فقال في نفسه :

— « أنا أشبه في مصدر تلك الضربة ، ولكن العدو قد اتخذ كل الاحتياطات اللازمة فلن أتأكد من شيء . »
ثم قال بصوت مرتفع : لا فائدة يا حضرة القائد فإن الأمر لا يستحق العناء .

ذات الياقوتة الدموية وذو القناع الأحمر

*

لندع الملك يتابع نهوضه من النوم وتتبع غامبار بنيماكل الذي غادر الغرفة الملكية .

كانت مظاهر الصداقة التي أبداهما الملك تجاه بنيماكل قد أثرت تأثيراً كبيراً في نفوس الحاضرين مما جعل خروج الرجل من غرفة جلالته لا يشبه في شيء دخوله إليها ، إذ أن الابتسامات والتحيات والتهانىء كانت تنهال عليه من كل جانب .

ولكن لم يكن يبالي بشيء كما قلنا فخرج قاصداً مختبره حيث انكب على العمل باهتمام أنساه كل شيء حتى نفسه ، فإنه لم يفكر في الأكل أو في أخذ بعض الراحة طيلة ست ساعات قضاهها في عمل سرّي متواصل . وبعد أن درس وحلل كميات كبيرة من السوائل المختلفة الألوان ، توصل الى الحصول على زجاجة صغيرة الحجم جداً تحتوي سائلاً شفافاً كأنه الماء الزلال .

وقد لبث مدة طويلة يتأمل تلك الزجاجية وهو مفكّر ساهم ،
وكانت علائم الرضى والارتياح تبدو على وجهه بعد أن أكمل
عمله الدقيق المحفور بالصعوبات على خير وجه .

وقد نهض عندئذ فوضع الزجاجية في صندوق صغير أوقفه بعناية
ثم وضع الصندوق في خزانة حديدية متينة أوقفها أيضاً ووضع
المفتاحين في جيبه وهو يفهم قائلاً :

— إذا أتى الأمر الآن فأنا على تمام الاستعداد ... فلنأكل
قليلاً .

وحوالى المساء أحضر أحدهم إليه ورقة مطوية وكانت بمائة
تقريباً للورقة التي تلقاها مرة في الظروف نفسها ، وقد ارتجف
رغم ثقته بنفسه عندما رأى تلك الورقة وغمغم قائلاً :

— ها هو الأمر المنتظر وهو يدل على أنها تعلم أنني على
استعداد !

وفي المساء نفسه ذهب الى قصر الدوق دي سوريانكس حيث
دخل غرفة منارة بسراج ضئيل وإذا هو في حضرة المرأة الغامضة
الجهولة التي حاول عبثاً أن يعرف شخصيتها والتي لم يستطع أن
يقول ما إذا كانت هي هرموزا أو جوسلين . وكانت كعادتها دائماً ،
ملتفة بمعطف فضفاض رمادي اللون وقد اعتمرت بالقلنسوة ،
وكان في إصبعها الخاتم الذهبي البسيط ذو البياقوتة الكبيرة
السداسية الشكل ، وقد قالت له بلهجتها الهادئة الرهيبة وصوتها
الذي هو صوت جوسلين أو صوت هرموزا :

— هل أنت على استعداد ؟

— لقد أنهيت العمل اليوم يا سيدتي .

— وهل أحضرت معك ذلك السم ؟

— ها هو .

فأخذت الزجاجية التي مدها لها وقالت متمعجة :

— هذه الزجاجية الصغيرة ؟!

فقال وهو ينتصب بكبرياء :

— إن هذه الزجاجية الصغيرة التي تحتقرينها على ما يبدو ، وهي

نتيجة سنوات طويلة من العمل المتواصل والأبحاث الدقيقة

والتجارب الخطرة ، إنها تحفة التحف وأعجوبة الأعاجيب . وإذا

أعطيتها لأي كيميائي ، بالغا ما بلغ من الخبرة ، ليحللها ، فلن

يحد فيها سوى الماء النقي الذي لا يميزه أي طعم خاص ، ومع

ذلك فلن يستطيع أحد أن ينقذ من الموت من يتلغ محتويات هذه

الزجاجية .

فقالت بالهدوء الرهيب نفسه :

— وهل يطول الأمر ؟

— ثلاثة أشهر تقريباً . نعم يا سيدتي ، لن يلزم أكثر من

ثلاثة أشهر للقضاء على الملك . ولا تظني أنه سوف يموت من جراء

مرض غريب مشبوه مما قد يثير الشكوك ، بل يكون ذلك في

مساء أو صباح يوم حار أو بارد عندما يقع الملك فريسة لحمى

خبثية . أتسمعين يا سيدتي ؟ حتى خبيثة ! وعندئذ لن يكون

جمال لأي شك إذ أن جميع الأطباء يعرفون جيداً أعراض تلك

الحمى ويموت الملك ضمن المدة الطبيعية دون أن يستطيع أحد

الملكة التي تدین لك بتاجها تستطيع أن تتساک أو ترفض لك طلباً؟ أما شروطي فهي: إجعلني ملكة فأجعلك وزيری الأول.
- تصرّفي بي كما لو كنت ملكك . يا لله ! أنا غاسبار بنيابيل
وزير فرنسا الأول؟ وهل هذا ممكن؟!
- إن تحقیق ذلك مرهون بك .

- ولكن بما أنك تريدین تسمی الملك فكيف تصبحین ملكة
فرنسا؟

- أتزوج من الدوق دي كيز الذي سيصبح الملك عندما
يموت هنري دي فالوا .

فتأملها بنيابيل لحظةً بإعجاب شديد ثم طوى ركبته أمامها
وقال بكل خضوع :

- لتتنازل جلالتك وتعطي أوامرها لخادمها ووزيرها الأمين .
فبرقت عينا ذات الياقوتة بريقاً حاداً وكان هذا كل ما ظهر
منها أمام ما سمعته من مناداتها بلقب الجلالة لأول مرة .
وأخطت الأوامر التي يلتمسها ذو القناع الأحمر بهمس لا يكاد
يسمع .

الرسالة المغفلة

*

وكانت الدوقة دي كيز لا تكاد تفرق في تلك الأيام عن
الدوقة دي سوريانلس وشقيقتها هرموزا . وكانت الصديقات

إنقاذه . ومن هنا ترين أن هذا السمّ هو تحفة رائعة .
فوافقت بإشارة من رأسها ووعدت قائلة :

- سوف تعدّتي مكافأتك كل ما وعدتك به .

فراى الفرصة ملائمة لطرق الموضوع الذي يشغله فأخذ
الزجاجة التي مدتها له وقال :

- أعلم جيداً يا سيدتي أنك تكافئين دائماً بأكثر مما وعدت
به ولكن ...

فقاطعته بلهجة ساخرة :

- ولكنك تتساءل عن الفائدة التي ستجنيها فيما إذا خدمتني
الى النهاية . لقد طفح صندوقك بالذهب وبتتوق الآن
الى النفوذ ، والملك يستطيع أن يمنحك إياه أما أنا ، فلا . هذا
ما تريد قوله ، أليس كذلك؟

فتعجب بنيابيل من قوة فراستها وقال بصوت مرتجف :

- إنك ترين ما في نفسي كمن يقرأ في كتاب مفتوح .

فهزّت كنفها باحتقار وقالت بصوت قاطع :

- إنك غطّيت ، فأنا أستطيع أن أمنعك ما تتمناه من ألقاب

الشرف والنفوذ حتى أنني أستطيع أن أجعل منك وزير فرنسا
الأول وهو ما لن يفعله هنري الثالث مها أحسنت به الظن .

فزجر بنيابيل قائلاً بالفعال :

- ماذا؟ الى أين سيبليغ سلطانك إذن؟ وبماذا تطمئنين؟

فانتصبت بمظمة متناهية وأعلنت قائلة :

- أريد أن أكون ملكة فرنسا ، وهل تعتقد عندئذ أن

الثلاث يجتمعن كل يوم إما في قصر دي كيز وإما في قصر
سورباتس .

وفي غد اليوم الذي أعطت فيه ملكة فرنسا المقبلة أوامرهما
السرية لوزيرها الأول المقبل ... كانت هرموزا وجوسلين في
جناح الدوقة دي كيز عندما أعلن عن قدوم الكونت دي سان
ميغرين .

وفي ذلك الوقت كان الدوق دي كيز وحده في قاعته وقد جلس
أمام مكتبه المكتظ بالأوراق والتقارير المختلفة ، ولم يكن قد
عاد الى نفسه من تأثير هزيمة أول أمس ولكنه احتفظ بتلك
الهزيمة لنفسه فلم يطلع عليها أحداً . وليس معنى ذلك أنه يريد
أن ينسى فإنه لم يكن من الرجال الذين ينسون ويصفحون عن
مثل التحقير الذي تعرض له . وكان حقه يتزايد على راكستان
أكثر فأكثر ، ولكنه لم يتردد في إعطاء الأوامر بشأنه حتى
ذلك الوقت إلا ليتدبر طريقة هائلة للانتقام من راكستان تذهب
مثلا في الملكة كلها .

وقد جلس أمام مكتبه يقلب مختلف الأوراق بحركة آلية
دون أن يراها ، وكان كل تفكيره في تلك اللحظة منحصرأ في
إعداد خطة الانتقام من راكستان .

أما جوسلين وهرموزا فإنها ، على عادتها دائما ، لم تطيلا
جلوسها في جناح الدوقة بعد وصول سان ميغرين إلا بقدر ما
يلتزم مصطلحات اللياقة ، ثم انسحبتا تاركين المجال أمام الخليلين .
ولم تكده عربتها تجتاز الباب الخارجي للقصر حتى أحضر

أحدهم رسالة مغفلة الى الدوق دي كيز وطلب إليه أن يقرأها
فوراً . ففحص الدوق الرسالة وما كادت عيناه تصافحان سطورها
الأولى حتى نسي راكستان وانتقامه . وعندما انتهى من قراءتها
هبت واقفاً بسرعة وعنف حتى أن المقعد الذي كان يجلس عليه
تدحرج بضغ خطوط الى الورا . وكان محتقن الوجه عمر
العينين وقد عصف به غضب عنيف مفاجيء جعل يهتز على أوره
كأنه أصيب بالبرداء فزأر قائلاً :

— يا للشيطان !

وبدأ يفرك عينيه كمن يظن أنه لم ير جيداً . وعاد يأخذ
الورقة بيد ترتعش غضباً ويقرأها مجدداً ، ولكن السطور كانت
واضحة تماماً وكان مضمون الرسالة ما يلي :

« إن من يحرص على أن لا يكون زوجاً مخدوعاً ، يحتمل
به دائماً أن يراقب امرأته إذا كانت شابة جميلة خفيفة . إن
الدوق دي كيز يفعل حسناً إذا ذهب فوراً الى جناح الدوقة
واتخذ احتياطاته ليرى ويسمع دون أن يشعر به أحد ، وعندئذ
سوف يطلع على الطريقة التي تستعمل بها زوجته وقتها مع السيد
دي سان ميغرين ! »

فأسرع الدوق والغضب يعميه الى جناح الدوقة وكان يسير
كالسيل الجارف وقد انقلبت ملامحه وتقلصت عضلات وجهه
فبدا كأنه صورة حية للجريرة .

وقد أربع منظره الذين التقام في طريقه الى حد أنهم كانوا
يلتصقون بالجدران ليفسحوا له في المجال للمرور .

ووصل على تلك الصورة الى جناح امرأته التي لم يكن يجيها كثيراً، ودخل قاعتها كأنه العاصفة التي ستجتاح كل ما في طريقها. وكانت الدوقة بعد ذهاب الشقيقتين جوسلين وهرموزا قد جلست في مقعد بينما ركع سان ميغرين على قدميها وقد أعطته يديها فأخذ يقبلها على التوالي قبيلات قصيرة لطيفة كانت تدوخ رأس العاشقة الطائشة فتقول له بصوت يخنقه التأثر :

— هل تستطيع بعد الآن أن تقول إنني لا أحبك وإنني لست مجنونة بك يا سيدي الولهان ؟

وفي تلك اللحظة بالذات وصل الدوق أمام باب القاعة وكان قد تمالك نفسه فبدأ رهيباً في هدوئه أكثر منه في غضبه . ففتح الباب دون ضجة ولكنه وصل متأخراً قليلاً فلم يسمع كلام الدوقة الذي يطالع منه على الحقيقة حسب قول الواشي المجهول. ولكنه رأى سان ميغرين يدفن رأسه بين ركبتي امرأته تارة ويقبل يدها طوراً ، ورأى الدوقة تدعه يفعل ذلك باستسلام لطيف جذاب .

وقد فقد الدوق صوابه من هول الصدمة فانتضى خنجره وتحفّز للوثوب والضرب ، ولكنه لبث مسمرّاً في مكانه بين الباب المفتوح الذي يفصله عن القاعة .

وفي تلك اللحظة بالذات ، أي عندما أوشكت الصاعقة أن تنقض على الخليلين وتحطّمتها ، تحرك ستار الباب بحركة خفيفة كأنما عبثت به نسمة رقيقة . وكان ذلك إشارة للدوقة العاشقة التي يظهر أنها اتخذت احتياطاتها سلفاً، عند حصول خطر مدام ،

لتجابه هذا الخطر وتتقي ما ينجم عنه .

ولم تكن الدوقة شجاعة ولكنها كانت تحب سان ميغرين فاستمدت من ذلك الحب ما كانت تقتر إليه بطبعها ولم تغيّر من ملاحظتها ولا من وضعها ولم تكفّ عن الابتسام وقد تابعت حديثها فرفعت صوتها وقالت :

— نعم يا سيدي أعيد عليك أنني لا أرى أي مانع في زواجك من الآنسة دور بيريف ... وعندما أرى مولاي الدوق سوف أنقل إليه طلبك بسرور وأساعدك بكل قواي .

ثم أردفت تقول ضاحكة :

— فانهض الآن يا سيدي الكونت وإلا فان الآنسة دور بيريف لن تتردّ في قلع عيني إذا فاجأتك في هذا الوضع .

ومن المفروض أنها كانا متفقين سلفاً على تلك الأقوال لأن العاشق لم يُبدِ أية دهشة بل لعب دوره بالهدوء نفسه الذي لعبت به هي دورها . ومن جهة ثانية فان دور الكونت كان أسهل من دور الدوقة ، لأنه كان يدير ظهره الى دي كيز ، فرفع رأسه بسرعة واعتذر قائلاً :

— إنك بالغة الكرم والعطف يا سيدي لأنك أشقت على عاشق تعس وأفعمت قلبه سعادة . فتنازلي واعذري ما بدرعني لأن الحب أفقدني الاتزان والروية .

فقال ضاحكة :

— لا تزعج نفسك بالاعذار فانا أعلم جيداً أن القبة الحارة التي طبعتها على يدي كانت موجهة الى امرأة أخرى ...

وكان هذا ما سمعه دي كيز فأوقفه عندما كان يهيم بالانفضاض
والاحتجر في يده . ونحن لا نجرؤ على الجزم بأن الخدعة قد انطلت
عليه ، فان دي كيز ليس مغفلاً الى هذا الحد ، ومن المرجح
أنه فكّر في أنها يثلان ولكنه لم يجرؤ على قتل اثنين لجرّد الظن
فقط وقد أراد أن يتأكد تماماً ، فدخل القاعة .

طلب الزواج

*

ولم تكن الدوقة تتوقع أن يكون القادم هو زوجها فشعب
وجها شعوباً خفيفاً عندما رآه يتقدم متجهتً الوجه مقطب
الحاجبين متقلّص الشفتين مشتعل العينين ، ولكنها لبثت مع
ذلك متألّكة نفسها فقالت وهي تبسم :

— أقسم أن الحظ يخدم دائماً العشاق يا سيدي الكونت ،
فهذا مولاي الدوق ، وسنعالج قضيتك فوراً .

فتظاهر سان ميغرين بالارتباك وقال بتوسل :

— رحمة بي يا سيدي ولا تنسي أن مصيري بين يديك الجليلتين .

فقال الدوق بلهجة مقتضبة :

— ما الخبر ؟

فاستدارت الدوقة نحو سان ميغرين كأنها تدعوه الى الكلام ،
وكان هذا يخشى أن يرتكب خطأ ، فأشار كأنما يدعوها لتتكلم
بنفسها ، فقال الدوق بفراغ صبر :

— ما معنى هذه التمثيلية ؟

وقد رأيت الدوقة أنه لا بد لها من الكلام فاستجمعت شجاعتها
وقالت :

— مولاي ، إن الكونت دي سان ميغرين قد اعترف لي بأنه
يجب الآنسة دور بيريف حياً مبرحاً . ولا شك في أن الأمر
كذلك إذ أنه يدعي أن أعزّ أمنية لديه هي أن يتزوجها .
وقد وعدته بأن أنقل إليك طلبه وأساعده على تحقيق رغبته
بإمكاناتي الضئيلة .

فقال الدوق بلهجة ساخرة :

— ماذا ؟ ! أتريد أن تتزوج يا سان ميغرين ؟ أنت الذي

يدعوك سان ميغرين الجميل ، تريد أن تتزوج !؟

— ماذا تريد يا مولاي أن أفعل بعد أن غزا الحب قلبي ؟

— يقولون إن الشيطان يصبح ناسكاً عندما يشيخ ، ولكنك

أنت لا تزال شاباً في الثلاثين من العمر فلماذا العجلة ؟

— ما دام لا مفرّ من الزواج فلا فرق بين التعجيل والتأجيل .

— إذن فالأمر جدّي ؟

— تماماً يا مولاي .

— أتريد أن تتزوج من الآنسة دور بيريف ؟

— لقد قالت لك سيدي الدوقة إن ذلك أعزّ أمنية لدي .

— إنه في الحقيقة قرار سوف يستدرّ الدمع من أكثر من عين

جميلة .

وقد قال الدوق هذا وتطلّح في عيني الدوقة ... ثم سأها

قائلا دون اكرات :

- ماذا تقولين يا سيدتي ؟

فشعرت الدوقة بالأضطراب فأجابت قائلة :

- لقد قلت للسيد دي سان ميغرين كل ما تستطيع أن تقوله له أنت ، فاني قلت له إن من كان في مثل مكانه يستطيع مصاهرة أعظم العائلات شأنا ، فأجابني بأنه يجب الآنسة دور بيريف ويريد أن يتخذها زوجة .

فقال سان ميغرين يدعم كلام الدوقة :

- نعم يا سيدتي ، إنني أحبها ولا أريد لي زوجة سواها .
فقالت الدوقة :

- من المفروض أن تكون الآنسة دور بيريف ابنة بيت كبير رغم أنها لا تعرف لنفسها اسماً ولا عائلة .
وكان الدوق إلى تلك اللحظة قد تركها تتكلم دون أن يقول شيئاً ، ولكنه كان يفكر قائلاً في نفسه :

- « لا شك في أنه يوجد ما يريب تحت ستار هذه الظواهر ، وأقسم أن سان ميغرين لا يجب الآنسة دور بيريف ولا يخطر في باله الزواج منها ... أما الدوقة ... »
وقال لها فجأة :

- أتعلمين يا سيدتي أنه لا يبدو عليك أنك تريدن حقاً أن يتم هذا الزواج ؟

ولم يخطئ الدوق في كلامه لأن الدوقة كانت تتكلم كأنها تريد أن يرفض الدوق ملتماً . فشحب وجهها على أثر تلك

الملاحظة ولكنها أجابت مع ذلك قائلة بعناد :

- راءه ! وهل أبعدو كذلك ؟ وماذا تظنّ الأمر بالنسبة إلي ؟
لقد أعدت عليك الكلام الذي قلته لسان ميغرين لأظهر لك أن ما سوف تقوله له في هذا الموضوع لن يؤدي إلى نتيجة .

فتدخل سان ميغرين في دوره وقال :

- إنه لن يؤدي إلى شيء يا سيدتي .

وسكت لحظة ثم أردف يقول بحماس :

- إن الآنسة دور بيريف فقيرة لا لقب لها سوى الذي تكرمت به عليها سيدتي الدوقة ، ولكن لها من شبابها وجمالها ما يكفي في نظري ، وسوف أمنحها كل ما تقتقر إليه إذا تقضت يا مولاي وشرفتي بموافقتك على طلي .
وقد 'خدع الدوق بذلك الإخلاص الظاهري وكان بكره سان ميغرين كرهاً شديداً فقال في نفسه :

- « هل يجب حقاً الآنسة دور بيريف ؟ باللييطان ! لشدّ ما أريد أن أكون واثقاً من ذلك ... »
ويدأ يراوغ بدوره ليتوصل إلى ما يريده فقال ببطء مدروس :

- إذن فأنت تطلب مني يد الآنسة دور بيريف ؟

- أتشرف بذلك يا مولاي .

- وإذا رفضت إجابة طلبك ؟

فلمب سان ميغرين دوره بهارة وأجاب قائلاً :

- آه يا مولاي ! إنك تريد موتي إذن ؟

ولكن دي كيز لم يُخدع هذه المرة بظواهر الكونت وقد قوي اعتقاده بأنها هزآن به فقال :

- إن الأمر يتطلب التفكير . ومن المؤكد أنني لو كنت أريد سعادة الآنسة دور بيريف وحدها لأجبت فوراً بالقبول . فقال سان ميغرين :

- إنك مثال الكرم يا مولاي ، وأنا لا أعجب أبداً من ان أراك تفكر في سعادتي أيضاً وأنت المشهور بنبل الطبع وحرية الضمير ، ولكنني أؤكد لك بأنك لن تخشى أي لوم من جهتي فيما إذا أجبت ملتسماً .

فتظاهر الدوق بأنه خُدع بكلام الكونت فلطّف من عبوسه وقال وهو يبتسم ابتسامة طيبة :

- لا شك عندي في أنك مخلص في ما تقول ، ولكنك تتصرف هكذا لأنك تحت تأثير الغرام . وبعد مدة من الزمن ، عندما تخمد تلك النار المضطربة بين جنبيك ولا يبقى منها سوى قبضة من رماد ، فإنك لن تتصرف عندئذ كما تفعل الآن ... وكان الدوق يتصرف بمهارة فائقة ليجعلها يعتقدان أنه سيرفض الطلب وقد تمّ له ما أراد . وكان هذا هو الشرك الذي نصبه لهما ، فوقما فيه دون حذر وفضحها السرور الذي لاح في قسمايتها ولم يستطعاً إخفاءه ، فطفت على شفتي الدوقة الحمراءين ابتسامة خفيفة ولعت في عيني سان ميغرين بارقة رضى . ولكن الدوق لاحظ ما طرأ عليها فأيقن مما كان مجرد شك حق تلك اللحظة .

ولكنه أراد الحصول على البرهان الذي يبحث عنه فتظاهر بأنه لم يعد يلقي بالآ الى مراقبتها وقال بلهجة لها ظاهراً الطيبة :

- خذ علماً بأنني لا أقول لك لا ، ولكنني أظنّ أنه من صالحك أن لا تتمجل الأمور . فإذا كنت تريد فلننتظر بضعة أشهر ، ولنقل سنة ، لندرس القضية ملياً وتكون أنت قد تأكّدت من حقيقة عواطفك . فإذا انقضت السنة ولبثت على ما أنت عليه حيال الآنسة دور بيريف، فعد إليّ عندئذ واطلب يدها وأقسم لك بشرفي أنني لن أرفض طلبك . ولكن إذا كنت تريد الحقيقة فأنا أراهن على أنك لن تتقدّم مجدداً بهذا الطلب . وقد خُدعا بكلامه مرة أخرى فتنهد كل منهما تنهدة ارتياح

قصيرة وكان هذا كل ما يريده الدوق ، فقال في نفسه :

- « لقد كنت على يقين ! ... »

فطرح القناع جانباً هذه المرة وعاد إليه الغضب أعنف مما كان عندما قرأ الورقة المغفلة فتقدّم من سان ميغرين ووضع يده على كتفه وقد شعر الخليلان من هيئة وجهه المتقلّص الخفيف بأنه يعرف كل شيء .

وتكلم دي كيز بصوت كانت برودته الجليدية أشدّ هولاً من زفير النمر فقال :

- إسمع يا سان ميغرين ، أنت تحب الآنسة دور بيريف وتريدها زوجة لك ...

وتهدّج صوته من تأثير الغضب العاصف فسكت لحظة وعاد يردف قائلاً :

— إنك تحبها الى حد تريد معه أن تجعلها كوتنس دي سان ميغرين ، أليس كذلك ؟ أعد ما قلته فأنا أريد أن أسمعك تقول مجدداً إنك تحبها وتريد أن تتخذها زوجة لك .

فارتجّ على سان ميغرين ، ولكنه فهم جيداً أنه يجب عليه مها كلف الأمر أن يتابع تمثيل دور العاشق فقال بلهجة متحدية :
— أحبها وأريدها زوجة لي .

فقال دي كيز وهو مبتسم ابتسامة رهيبة :
— حسناً ، حسناً ، إذن فقد منحتك يدها... أسمع؟ ولكن

على شرط ...

وعاد إليه هدوؤه فجأة فأردف يقول بلهجة جازمة :

— على شرط أن يتمّ زواجك في خلال يومين في كنيسة قصري ، وأن يعقده كاهني الخاص . وبرهاناً على إخلاصنا وحبنا لك فسوف نحضر ، الدوقة وأنا ، حفلة الزواج ونوقع العقد .
وكانت الضربة شديدة وغير متوقعة الى حدّ أن سان ميغرين المنكود لبث كالمنجول ، فانفجر الدوق قائلاً :
— يا للبحيم ! أراك تتردّد .

ووثب على امرأته وقد رفع قبضته ولمع فيها نصل الخنجر الماضي وشاهد العشيقان لمعان النصل الرهيب فأحست الدوقة بدنوّ اللحظة الرهيبة فسقطت على ركبتها ودفنت وجهها بين راحتيها وهي تطلق أنيناً متقطّعاً .

وكان الدوق يعرف جيداً ماذا يفعل . كان يعلم أنه بتهديده المرأة المحبوبة يرغب حبيبها على الخضوع لمشيئته . وقد صدق ظنه

إذ أن سان ميغرين صاح قائلاً برعب شديد :

— توقّف يا مولاي ، لقد رضيت !

فترك الدوق زوجته وأغمد خنجره قائلاً ببرودة :

— يا للعجب ! ولكنك لا تتصرف تصرف العاشق إذ أنك

تستقبل بالوجوم ما يجب أن يملأ قلبك فرحاً .

وتابع يقول بغضب :

— إنك تعبد الأنثى دور بيريف ، وأي عجب في ذلك ؟ فهي

جميلة جداً وقد منحتك يدها فلماذا تظهر هذا الوجه المضطرب ؟

إنك سعيد على ما اعتقد وأريد أن يرى الجميع هذه السعادة ، أتفهم

يا سيدي ؟

فاظهر العاشق المنكود تضحية عظيمة وهو يقول بشجاعة

ودون تردّد :

— إنني لم أتردّد يا مولاي ولكن المفاجأة السارة أضاعت

صوابي هذا كل شيء .

فقال دي كيز بلهجة ساخرة :

— إنها المفاجأة السارة حقاً فاعذرني يا كونت لأنني اعتبرت

دهشة الفرح تردّداً .

الخطبة

*

بعد أن قال الدوق ما قاله عاد الى وجهه ذلك اللطف

والبشاشة اللذان كانا يجعلان منه أكيس رجل في عصره ، فقرع
سان ميغرين بلطف قائلاً :

- لا تحمل كلامي على محمل اللوم يا كونت ، ولكنك لم
تشكرني بعدمع العلم بأنني لم أبدِ أية صعوبة في منحك ما تتمناه .
فراى سان ميغرين نفسه مرغماً على شكر الدوق وقال
بابتسامة حادة :

- ثق يا مولاي أنني لن أنسى ما حبيت هذا العطف الخاص
الذي حبوتني إياه اليوم .

فابتسم دي كيز واستدار نحو الدوقة وكان يعلم أنها الآن
تحت رحمتها ولم يكن يريد أن يتركها قبل أن يتذوق لذّة
انتقامه ، فقال لامرأته بألطف لهجة :

- لقد عرضت يا سيدتي قضية هذا العاشق بجملة وحاسم لم
أستطع معها أن أقاوم رغبتك فأرجو أن تكوني راضية .

- وكيف لا أكون راضية وقد تطلّعت فحققت جميع
رغائبي بطيبة خاطر لا يسعني معها إلا أن أبدي نحوك أرقّ
عواطف الشكر والامتنان ؟ فتق يا مولاي أنني سأقدّر ما فعلته
تجاهي بأفضل ما أستطيعه .

فقبل أطراف أصابعها بلطف وقال :

- إن رغباتك يا سيدتي ستكون دائماً أوامر بالنسبة إليّ .
وكان الكونت والدوقة يمتدنان أنها انتبيا من قضيتها مع
الدوق ... ولكنه أظهر لها أنها مخطئان إذ أنه قرع فوراً على
لوح نحاسي وأمر الخادم الذي لبس النداء بقوله :

- آتوني بالآنسة دور بيريف .

وبعد لحظات دخلت ريون دور القاعة ، فقال لها الدوق فوراً
وهو يبتسم :

- أيتها الآنسة ، هوذا سيادة الكونت دي سان ميغرين ابن
البيت العريق وقد جاء يلتمس شرف الزواج منك .

فدهشت ريون دور لهذا النبأ غير المتوقع ولبثت لحظة
مذهولة ولكنها تمالكت نفسها بسرعة وقالت بصوتها الموسيقي
العذب :

- أشكر سيادة الكونت دي سان ميغرين على الشرف العظيم
الذي يريد أن يخلعه على فتاة فقيرة مثلي ، ولكن ...
وتوقفت عن الكلام مرتبكة .

فارتعش كل من الدوق والدوقة وسان ميغرين ارتعاشاً
سرور أمام ارتباك الفتاة إذ أن الأخيرين كانا يأملان بالنجاة فيما
إذا رفضت الآنسة دور بيريف الشرف الذي يريدون منحها إياه .
أما الدوق فقد سرّ هو أيضاً لأنه كان يرى في ذلك الرفض تحقيراً
جديداً لمنافسه .

ولهذين السببين المختلفين شجعت الدوقة الفتاة قائلة :

- تكلمي بصراحة ودون خشية يا جميلتي .

وشجعها الدوق بدوره قائلاً بابتسامة حادة :

- أوضحي فكرتك كلها .

فاحترت ريون دور قليلاً واعترفت قائلة بسذاجة :

- أنا لا أحب السيد دي سان ميغرين ولا أعرفه .

فقال الدوق متمجباً :

- وما شأن الحب في هذه القضية ؟

فصاحت الدوقة قائلة :

- لقد فهمت ... أنت تريد أن تقول إنك لن تتزوجي

سوى الرجل الذي تحبينه ، أليس كذلك ؟

- نعم يا سيدي .

فهزّ الدوق كتفيه وقال :

- سوف تحبين سان ميغرين عندما يصبح زوجك . هذا كل

شيء .

فقال ريون دور :

- إن القضية مختلفة في مثل حالتي يا مولاي ، فأنا لن أتزوج

سوى الرجل الذي اختوته بلء حريقي ، والسيد دي سان ميغرين

ليس ذلك الرجل !

ولو كانت مقاومة الفتاة غير المتوقعة حدثت في غير ذلك

الطرف لكان الدوق غضب غضباً شديداً . ولكنه ، وهو الواثق

من تحطيم تلك المقاومة ، رأى في موقف الفتاة هذا فرصة أخرى

لتحقير سان ميغرين الذي بدا موقفه الآن حرجاً ومضحكاً . فلم

يغضب الدوق إذن بل حاول إقناع الآنسة دور بيريف بحجج

كانت تحط من شأن الكونت وتريد موقفه ذلّة فقال :

- إنك لا تعلمين ما تقولين . إن رفضك الزواج من سان

ميغرين الذي تمنى نساء فرنسا كلها أن يفزن منه بنظرة أو

ابتسامة ، ليس لإحماقة محضة . ماذا ؟ ألمتّه يوجد في المملكة

امرأة لا يؤثر فيها سحر سان ميغرين ؟ إن هذا مستحيل ، فبينا
وقرري .

فأعادت ريون دور قولها :

- أنا لا أحب السيد دي سان ميغرين ولا ...

فقاطعها الدوق قائلاً بصوت قاسٍ :

- كفى هذراً ؟ لقد قررت أن تتزوجي سان ميغرين

وستتزوجينه . فاذهبي الآن أيتها الآنسة .

ولكن ريون دور لم تطع أمر الدوق بل استدارت صوب

سان ميغرين وقالت له بلهجة أثرت في الجميع .

- أيها السيد ، لقد شرفنتي بطلب يدي وقلت لك إنني

تأثرت كثيراً بهذا الشرف . وقلت أيضاً بصدق وإخلاص إنني

لن أتزوج سوى الرجل الذي أحبه وإنك لست ذلك الرجل . ألا

ترى من واجبك في مثل هذه الظروف أن تسحب طلبك ؟

فأخنى سان ميغرين أمامها وغمغم قائلاً :

- إصغحي أيتها الآنسة عن رجل شاء سوء حظه أن يسيطر

عليه الحب .

وكان سان ميغرين يوجه الكلام إلى ريون دور ولكنه كان

ينظر إلى الدوقة ، وقد فهمت هذه أنه إنما يعني حبه لها ، فأشرقت

عينها الكبيرتان الجميلتان . وكان سان ميغرين ينتقم من الزوج

وهو يعلن عن حبه لزوجته أمامه ، ففهم دي كيز ذلك جيداً

ولكنه لم يكن يستطيع أن يقول شيئاً ، فهدأ من غضبه ولبت

صامتاً .

ولكن ربيون دور لم تستطع أن تفهم تلك المعينات فقالت
لسان ميغرين بإحتقار :

- يا لله ! لقد ظننتك رجلاً شريفاً .

وأدارت له ظهرها وحيث وخرجت رافعة رأسها وقد
تركهم كلهم فريسة للدهشة والإعجاب ، فجهام كلام الدوق تعبيراً
عن شعور كل من الثلاثة عندما قال :

- إننا لا نعلم من هي هذه الفتاة على وجه التأكيد ، ولكنها
سوف تكون دون شك أعظم كوتيس عرفتها .

ثم التفت الى سان ميغرين وكأنها تذكر أمراً فقال :

- تعال يا كونت ، لقد أحضروا لي جوادين ويسرني أن
أعرف رأي خيالك مثلك فيها .

والتفت الى الدوقة قائلاً :

- لدينا الليلة حفلة ساهرة ويسرني يا سيدتي أن أراك في تلك
الحفلة التي ستبدو دون شك كشيء كئيب ممل إن لم يشرق في سماها نور
جمالك الواضح .

- سأطيعك يا مولاي .

فأردف الدوق يقول بعدم إكتراث :

- وأحضري معك الآنسة دور بيريف .

ولم ينتظر جواب الدوقة لأنه كان واثقاً من أنها ستطيع هذا
الأمر أيضاً ، بل وجه كلامه الى سان ميغرين وقال ضاحكاً :

- أما بشأنك أنت أيها العاشق المسكين فإني أراهن على أنك
لن تفوت فرصة كهذه للتقرب من خطيبتك .

فأجاب سان ميغرين قائلاً :

- سأكون في الحفلة يا مولاي .

وانحنى الاثنان أمام الدوقة ثم تأبطت الدوق ذراع الكونت
وسار وإياه وهو يمتدح له صفات الجوادين اللذين سيريه إياهما .
وكان من يراها يسيران ويتحدثان على تلك الصورة يظن أنها
أفضل صديقين في الكون .

وعند المساء تألقت الأنوار في قاعة قصر دي كيز الكبرى
وكان الدوق يتأخر الحفلة وقد جلس في مقعد كبير ، وكانت
عيناه بين وقت وآخر تتطلعتان ناحية الآنسة دور بيريف وسان
ميغرين فيبتسم ابتسامة حادة ، ولكنه كان يخص الفتاة بأكثر
تلك النظرات ولم يكن قد أمر بإعداد تلك السهرة إلا لإعلان
خطبة سان ميغرين وزواجه المقبل منها ، وكان يأمل في أن
تبدى أمام الحاضرين النفور نفسه من سان ميغرين الذي بدا منها
في جناح الدوقة . وكان الدوق يقصد من ذلك تحقير منافسه أمام
النبل . فهو ينظر إذن الى الآنسة دور بيريف على تلك الصورة
ليدرس استعدادها لتنفيذ غايته ، دون علمها طبعاً ، وكان يبتسم
ابتسامة مقلقة بعد أن نظر إليها جيداً وتأكد من منظرها أنه
سيبلغ ما يريده من سان ميغرين عن طريقها .

وكان الدوق يتحين الفرصة المناسبة وهو يقضي الوقت
بالحديث مع البارون دي مولستراك وكان هذا قد اغتم فرصة
غياب منافسه الكونت دي بومبينيان ليزيد في تقربه من مولاه ،
وكان مولستراك يجمل ، كما يجمل جميع من في القصر ، أن هوير

دي راکستان قد ترک خدمة الدوق . ولكن البارون کان یغار
من الفارس کا یغار من أخیه الکنونت دي بوميينيان ، وكان قد
لاحظ اهتمام الفارس بالآنسة دور بيريف فاعتنم فرصة غيابه
ليطلق بحقه بعض نقثات لسانه الخبيث ، وبدأ يستعلم من مولاه
عن ذلك الغياب بقوله :

— كيف يتأتى يا مولاي أن لا ترى بيننا الشيفالييه دي
راکستان ؟

فسمعت ريون دور سؤال البارون وكانت لم تر الفارس منذ
يومين وتجهل ما جرى بينه وبين الدوق ، فلم تجرؤ على الاستعلام
عنه . ولكن المفروض أنها أرهفت أذنيها للإصغاء بعد أن سمعت
سؤال موليستراك بشأن حبيبها .

وكان الدوق قد قطب حاجبيه عندما سمع سؤال البارون
ولم يعد يستطيع أن يخفي الى أبعد من ذلك حقه الرهيب على
الفارس ، فلم يتورع عن شتمه وإهانته وقال لموليستراك :

— ان إلحاق هذا الرجل بخدمتي كان أردأ صفقة قت بها في
حياتي ، ولقد طردته كما يطرد الخادم الوقح إذ أنه عند أول مهمة
خطرة كلتفته بها خائني وانقلب ضدي ، فلنقلع عن الكلام عنه
لأنه جبان سافل خائن .

وعندئذ ارتفع صوت يتر من الانفعال قائلا :

— كذبت أيها الدوق !

فتحولت أنظار الحاضرين الى الجهة التي انطلق منها ذلك
الكلام المهين فرأوا الآنسة دور بيريف واقفة ويدها ممدودة نحو

الدوق بعظمة متناهية .

وقد خيّم على القاعة صمت رهيب أشبه بصمت الموت وهبة
الدوق واقفاً كتلة واحدة وهو يزار قائلاً :

— يا للشيطان !

ولم يكن يعلم بعد من أين انطلق ذلك التأكيد الذي لسمه
كضربة سوط على وجهه ، ولكنه عرف مصدر الصوت عندما
رأى ريون دور . وكان الحاضرون يتوقعون أن ينفجر غضب
الدوق ساخطاً مدمراً ، إلا أن هذا كان يفكر في أمر آخر
ويقول في نفسه :

— لقد كنت أحتسب فرصة ملائمة للنيل من سان ميغرين وها
هي قد أتت على أكمل وجه !

وتأمل الآنسة دور بيريف لحظة باحتقار ساحق ثم ابتسم
وهز كتفيه باشمزاز وجلس يهدوء شديد وهو يقول بلهجة
جليدية :

— إنه أمر يثير الاهتمام حقاً ، ولكن ربما نكون لم نسمع
جيداً ، فماذا قلت ؟ أعيدي لنسمع كلامك .

— لقد قلت إن كل من يجرؤ على الادعاء بأن الفارس دي
راکستان خائن جبان سافل ، هو كاذب حق ولو كان دوقاً أو
أميراً أو ملكاً . وأقول إنك لن تجرؤ على إعادة كلامك أمامه
لأنك تعلم جيداً أنه يعيده الى حالك !

— أتعلمين أنك بتصرفك هذا تعطين عن حيك أمام هؤلاء
الحاضرين ؟

وقد قال الدوق ذلك وهو ينظر الى سان ميغرين بشماعة ،
وكان الكونت في حالة يرثى لها من الحجل والعار ولم يبق واقفاً
على قدميه إلا بإرادة عجيبة .

أما ريون دور فإنها اضطربت اضطراباً شديداً من جراء
سؤال الدوق كما أنها فهمت جيداً حقيقة عواطفها نحو راکستان
فاحمر وجهها وأطرفت برأسها خجلة مرتبكة ولكنها نالكت
نفسها بسرعة غريبة فرفعت رأسها بفخر وتطلعت مباشرة في
عيني الدوق وقالت :

— وإذا كنت أحب راکستان ؟ ألسنت حرة في التصرف
بعواطفني ؟ وما أنا أعلن أمام الجميع دون أي خجل أنني أحب
السيد هويبر دي راکستان لأنه أكمل وأشرف سيد في الكون .
فتركها الدوق تقول كل ما في نفسها ليم له ما يريد من تحقيق
سان ميغرين . ولما انتهت من كلامها قال لها بصوت مدو :

— أصمتي أيتها الشقية ! لقد كان يجب أن تموتي خجلاً وأنت
تتلفظين بمثل هذه الأقوال أمام الرجل النبيل الذي أصبحت
خطيبته وستحملين اسمه بعد مدة وجيزة .

ولكن ريون دور لم تصمت ولم تمت خجلاً بل قالت بهدوء
وتصميم :

— أنا لا أعرف الخطيب الذي تتكلم عنه ولا أريد أن أعرفه .
— حقاً ؟ وأنا أقول لك إنك ستزوجينه .

— لن أتزوج سوى الرجل الذي أحبه .
— بل ستزوجين الرجل الذي اخترته لك .

وصمت لحظة وهو يفكر ثم أردف قائلاً :

— نحن في يوم الثلاثاء ، وستزوجينه يوم الجمعة القادم .
— لن أتزوجه ! وليس لك أي حق عليّ لتتصرف بي كما
يحاول لك .

— أيتها الأنسة دور بيريف ...

فقاطعت وقالت بصوت عالٍ :

— لست الأنسة دور بيريف ولا أريد أن أكونها ! وأنا
أعيد إليكم أرض دور بيريف التي أعطيتموني إياها لأنني لا
أريدها . إنني ريون دور التي لا تعرف لها اسماً ولا عائلة . ريون
دور التي عاشت من عملها الى هذه اللحظة حرة مستقلة . ريون
دور التي لا تربطها بك أية رابطة والتي ليس لك عليها أي حق
يا مولاي الدوق .

وكان قد فرغ صبر دي كيز بعد أن وصلت الأمور الى هذا
الحد فعصف به الغضب وقال بصوت قاسٍ :

— سواء أكنت ريون دور أو الأنسة دور بيريف ، فسوف
أظهر لك أن لنا عليك حقوقاً يجب أن تخضعي أمامها . إن
الكونت دي سان ميغرين شركك باختياره إياك دون كل النساء ،
ورغم ما نصحناء به ظل مصرأ على عزمه وقد أعطيتك كلمتي .
وطالما هو يريد أن تحملي اسمه فسوف تتزوجينه في اليوم المحدد :
الجمعة القادمة .

— تستطيع قتلي يا سيدي ولكنك لن تنال مني ما ...
فقاطعتها الدوق قائلاً بجدة :

- كفى ! فاذمبي الى غرفتك ولا تتحركي منها إلا بأمرى
فاجتازت ريون دور القاعة الفسيحة بخطوات متزنة وكانت
منتصبة القامة رافعة الرأس وفي نظراتها البرينة الصافية ما جعل
الذين في طريقها ينحنون ، رغماً عنهم ، أمامها باحترام .
ولما خرجت أظهر الدوق رثاءه لحالة سان ميغرين قائلاً
بجهد :

- إنني أرثي لك من كل قلبي يا كونت فأنت سيء الحظ
حقاً . ولكن ، ألم تبرد عاطفتك حيال ما رأيت ؟ ألا تفلح عن
هذا الغرام المتهور ؟

فقال سان ميغرين وهو ينظر الى الدوقة :

- إنني أفضل أن أنزع قلبي بيدي من أن أتخلسى عن هذا
الحب الذي هو حياتي كلها .

فتقلصت ملامح الدوق لأنه فهم عن أي حب يتكلم
الكونت ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

- سوف تروض تلك العاصية ... وسيأتي الحب بعد ذلك !

الاستغاثة

*

وصلت ريون دور الى غرفتها فانهارت شجاعته فجأة ووضعت
رأسها الأشقر الجميل بين راحتها وأخذت تشهق وتنسج ولبثت على
تلك الحالة وقتاً طويلاً ولكنها كانت من أهل الشجاعة والعزم كما

رأينا فلم تدع اليأس يسيطر عليها بل تمالكت نفسها وقررت أن
تناضل بكل قواها الى النهاية . ومن الطبيعي أن يكون أول
خاطرها أن تستغيث براكستان فهو وحده الذي يستطيع
حمايتها وإنقاذها . فأخذت ورقة كتبت عليها هاتين الكلمتين فقط :
« النجدة ! إلي ! » ووقعت باسم ريون دور .

وقد اطمأنت بعد الذي فعلته ووثقت من أن الفارس سيلبي
نداءها اليأس ، فأوت الى فراشها ونامت . وفي صباح اليوم
التالي دعت إحدى الوصيفات التي كان لراكستان فيها ملء الثقة
فأعطتها الورقة وتهدت لها الفتاة بأن توصلها الى الفارس بأسرع
ما يمكن .

وكان راكستان في ذلك اليوم قد دعا رفيقه ميلورد وجندارم
وماراسكين الى وليمة كبيرة احتفاءً بتركه خدمة دي كيز
والعودة الى ما كان عليه من الحرية ، وكان كيسه لا يزال منتفخاً
بما يكفي لنفقات تلك الوليمة . فقصد الرجال الثلاثة حانة
غراندوق حيث جلسوا في القاعة العامة .

وقد شربوا من الخمر ما جعل ميلورد وجندارم وماراسكين
يتدحرجان الى تحت الطاولة وأرغم الشيفالبيه على التصريح بأنه
لا يقل عن رفيقه سكرأ .

وفي تلك اللحظة دخل الحانة رجل لا يعرفه راكستان وتقدم
منه رأساً وهو يقول بلهجة ذات معنى :
- إنني آت من قصر دي كيز ...
فقاطعه راكستان قائلاً :

- من قصر دي كيز ؟ يا للشيطان ! أنصحك أيها الصديق
بعدم ارتياد مثل تلك الأماكن المشبوهة وإلا فسوف ينتهي بك
الأمر الى أن تعلق على خشبة .
فقال الرجل :

- لقد جئت إليك بهذه الورقة من قبيل الفتاة التي تعرفها .
ووضع أمامه ورقة مطوية ثم غادر الحانة .

فتأمل راكستان الورقة ، وكانت رسالة ريون دور ، بعينين
أعماهما السكر وقال وهو لا يفقه معنى كلامه :

- قصر دي كيز ... الفتاة التي أعرفها ... بلوح لي أن لهذا
الكلام معنى خاصاً .

ومدّ يده بصورة آلية فأخذ الورقة وقرأها ولكنه لم يفهم
شيئاً منها . وقد احتفظ بالورقة مفتوحة في يده وجعل يحملق
فيها بنظر جامد وهو يكرّر : « النجدة ! إلى .. ريون دور ..
ريون دور . » وكان يبحث في ذاكرته علة يتدي الى شيء ...
وفجأة هبّ واقفاً كأنه نصلة من الفولاذ وقال :

- رولاند !

وزايله السكر كأنما بفعل السحر فانطلق راكضاً لا يلوي
على شيء وقد اصطدم عند مدخل الحانة بأربعة رجال كانوا
يصعدون الدرج فرمّ من بينهم كالشهاب وفرقهم ميمناً وشمالاً .

وكان هؤلاء الرجال الأربعة المتشرد جيل الذئب ورفاقه
الثلاثة يوتوا لالتيس ، وريبو لاردور ، وماكلو الصاعقة ، فانطلق
من أفواه الأتباع الثلاثة سيل من اللعنات واستداروا يريدون

اللاحق براكستان . ولكن جيل الذئب عرفه فأوقف رجاله بمجرد
آمرة غاضبة وتابع الفارس بنظرة طويلة تنطق بأنبال معاني
الإنسانية .

ولما رأى رجاله ينظرون إليه بعجب ودهشة أشار بيده الى
حيث يركض الفارس وقال بصوت مؤثر :

- ألم تعرفوه أيها الحمقى ؟

فأشاروا برؤوسهم سلباً وهم مذهولون ، فقال جيل الذئب :

- إنه الرجل الذي أنقذ أمي !

وكان راكستان ينطلق في تلك اللحظة بأقصى سرعته وقد
لبث وقتاً طويلاً على ذلك النحو الى أن قرب من قصر دي كيز ،
فخفت عندئذ من سرعة ركضه وبدأ يفكر في طريقة يدخل
بها القصر . وبعد البحث والتدقيق قرّر أن يدخل من الباب
الكبير كما كان يفعل عندما كان في خدمة الدوق . وقد دخل فعلاً
من ذلك الباب ودهش عندما حيّاه ضابط الحرس باحترام ولكنه
لم يبالي . وبعد بضع دقائق كان يقف أمام ريون دور ويقول لها
بلطف متنام :

- قولي عما حدث لك من الأمور المكثرة .

فأخبرته ريون دور بكل شيء ولكنها أهملت أن تشير الى
دقاعها عنه عندما أهانه الدوق كما أنها لم تذكر أي شيء عن تلك
الإهانات .

وعندما انتهت من كلامها قال لها بلهجة الواثق مما يقول :

- اطمئني وثقي في أن هذا الزواج لن يتم .

فقلت له بقلق ظاهر :

— ماذا تريد أن تفعل ؟

فقال لها ضاحكاً :

— لا أعلم بعد . ولكنني أكرّر عليك أن هذا الزواج لن

يتم .

المدعوون الى العرس

★

وحلّ يوم الجمعة وهو اليوم المحدد لعقد زواج الكونت دي سان ميغرين على الآلة دور بيريف . وكانت الساعة الراهية تقارب بسرعة وراكستان لا يعلم بعد ما سوف يفعل ، ولكنه ذهب مع ذلك يتبعه ميلورد جندارم وماراسكين .

ولم يكن الفارس قد قال شيئاً لرفيقه . ولكن ماراسكين كان يعرف جيداً وكان يكفيه أن ينظر إليه نظرة واحدة ليعلم أنهم مقبلون على مهمة شديدة الخطورة ، فنبه رفيقه الذي لم يكن يرى ما يراه وقال له بحماس :

— إنتبه يا ميلورد جندارم ، فيجب أن نتجح مها كلف الأمر وإلا فلن نعود نرى سيدنا الفارس أبداً .

فقال العملاق :

— هذا مفهوم ، فالهم أن ينجح سيدنا الشيفالييه حتى ولو قُطعتنا إرباً .

وكان البطلان يتبادلان هذا الكلام وهما يركضان خلف راکستان ، وكان هذا يقصد قصر دي كيز بعد أن أعياه التفكير في إعداد خطته سلفاً ، وهو متأكد من أنه سيعيد تلك الخطّة على مسرح الحوادث نفسها .

وفي ذلك الوقت كان موكب العرس ، في قصر دي كيز ، يتبهاً للذهاب الى الكنيسة .

فسار في الطليعة ، على الخط نفسه ، سان ميغرين وريون دور والدوقة دي كيز والدوق دي كيز ، أي أن سان ميغرين كان الى اليسار وقد أعطى يده اليمنى لريون دور بينما كان دي كيز الى اليمين وقد أعطى يده اليسرى للدوقة ، فكانت المراتان إذن تفصلان بين الرجلين وكانت ريون دور تفصل بين الدوقة وعشيقها . وسار وراء هؤلاء الأربعة الدوق دي سورياتنس وهو يتأبط ذراع زوجته جوسلين . وسار وراءها الكونت دي بومبيتيان — شقيق هوبير دي راکستان — وهو يتأبط ذراع هرموزا ، وكان الكونت يطير فرحاً لمجرد احتكاك ذراعه بذراع المرأة المحبوبة ويحس بالنار تمشى في عروقه لمجرد أن تقبض أصابعها الرقيقة الوردية الأظافر على يده .

وسار وراء الكونت وهرموزا جمهور من النبلاء أتباع الدوق وهم مسلحون بالسيوف الثقيلة والخنابجر الماضية . والشئ الغريب المدهش هو أن هذا الجمهور الذي بشير منظره الخوف كان يحس إحساساً غامضاً بأنه مقبل على معركة رهيبه ، فكان تجهّم وجوه أفراده وعبوسهم يزيدان النظر هولاً ورهبة .

وسار وراء ذلك الجمهور الرهيب باقي المدعوين وفيهم أصدقاء العريس الذي كان يتشرف كل منهم بتأبط ذراع إحدى وصفات الدوقة .

الرجل الذي لم يكن مدعواً

★

ودخل الموكب دهليزاً طويلاً لا يكاد يتسع عرضاً لأكثر من الأشخاص الأربعة الذين كانوا يسرون في الطليعة ، وكان الدهليز يقع في الطابق الأول ويوجد في نهايته باب كبير ذو مصراعين هو باب كنيسة القصر . وكانت تلك الكنيسة ذات طابقين : الطابق الأرضي وهو مخصص لخدم القصر ، والطابق الأول وهو مخصص للدوق والدوقة وأتباعها النبلاء . وكان على بعد خمس عشرة أو عشرين خطوة من باب الكنيسة رواق ضيق يتفرع من الدهليز ويؤدي إلى الطابق الأرضي للكنيسة . وكان دي كيز والدوقة وريون دور وسان ميغرين على بضع خطوات من ذلك الرواق عندما فتح أحد مصراعي باب الكنيسة وظهر على العتبة كاهن القصر بلبسه الخاصة بالاحتفال ، وقد وقف وراءه مساعده ، بينما وقف قرب الباب عملاق سويسري يحمل بيده حربة وكان على تمام الاستعداد ليفتح المصراع الآخر من الباب ليدخل الدوق وأفراد الموكب . وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات مسرعة في الرواق الضيق

وقد شعر الدوق وجميع أفراد الموكب أن تلك الخطوات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحدث المجهول الغامض الذي كان يحس كل منهم وجوده بالفرصة دون أن يستطيع تكوين أية فكرة عنه . ولذلك فقد استقبل الجميع وقع تلك الخطوات بلاء الارتياح بعد القلق الغامض الذي كان يسيطر على النفوس .

فتوقفت الدوق عن السير دفعة واحدة كأنما سمرت في مكانه وقطب حاجبيه وتشبثت يده بقبضة خنجره . ومن الطبيعي أن يحمده الجميع لجموده . وكان الكاهن ينتظر بصبر على عتبة باب الكنيسة وقد اغتم فرصة جمود الموكب ليعيد النظر قليلاً في الخطاب الذي كان قد أعدّه لتلك المناسبة .

وفي اللحظة ذاتها ظهر راكستان في الدهليز وكان يلهث ويتصبب عرقاً . وقد كساه الغبار ولاح في قماته القلق الفظيع خوفاً من أن يكون قد وصل متأخراً . ولكنه ألقى نظرة إلى ما حوله كأنها الشهاب الناري فرأى الدوق على خطوتين منه ورأى الموكب الذي جمده المفاجأة ، ورأى باب الكنيسة المفتوح والكاهن الذي ينتظر على عتبته . رأى كل ذلك بلمحة بصر فوقف وقد ارتقع صدره العريض بتنهدة تدل على الارتياح . واصطف وراءه ميلورد جندارم وماراسكين وقد فتحا أعينهما على وسعتهادهشة وذهولاً من جراء وجودهما المفاجيء أمام ذلك الحشد النبيل .

وبعد أن تنفّس راكستان لحظة قصيرة جداً لم يعد يرى سوى ريون دور ، فطمأنها بإبتسامة متناهية اللطف كأنما يقول

لها : « لا تخشي شيئاً فأنا هنا . »

وكانت ابتسامة الغبطة التي أجابته بها الفتاة برهاناً ساطعاً على تقهتها به وحبها الطاهر النقي له . فلم تستطع أن تكتم تهمة خفيفة ذهب معها الاضطراب والخوف اللذان كانا يضغطان على صدرها الى تلك اللحظة ، وكانت الوحيدة التي لم يدهشها وصول راكستان .

الوحيدة ؟ ربما .. ولكنها في جميع الأحوال لم تكن الوحيدة التي أحست بالارتياح ، إذ أن الدوقة وسان ميغرين شعرا شعورها نفسه وقد فهم كلاهما أن حسن الطالع قد أرسل لهما هذا الحليف ، وبأن يترقبان الآن حدوث الأعجوبة التي تنقدهما وإن لم يكونا يجرؤان على أن يأملا بأنها ستنتهي على ما يرام . وكانا يشعران بنظرات دي كيز النارية تنصبّ عليها فحرصا على أن لا يظهر أية حركة أو نظرة تدلان على الفرح الطاغي الذي ملأ نفسيهما ، ولم يبدُ على وجهها سوى الدهشة والمعجب اللذين كانا يبدوان على وجوه جميع أفراد الموكب من تأثير ظهور راكستان المفاجيء على هذه الصورة .

ولم يكن دي كيز أقل دهشة وتعجباً منها وقد نظر إليها في باء الأمر نظرة شك . ولكنه تقاللك نفسه وتذكر الدفاع الحار الذي دافعته الآنسة دور بيريف عن راكستان قبلتجت الحقيقة أمام عينيه واضحة وضوح الشمس ولم بعد يُدهش من حضور الفارس المفاجيء بل أخذ يلوم نفسه على أنه لم يتوقع ذلك بعد المناقشة العاصفة التي جرت بينه وبين الآنسة دور بيريف

في الحفلة الساحرة ، فعندئذ كان من الممكن أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لعدم خروج الفارس حياً من القصر .

ولكنه سرعان ما اطمان من هذه الناحية لأنه كان في قصره وبين حرسه ونبلائه وجنوده وليس له إذن إلا أن يعطي أمراً أو يشير إشارة فيقضى على هؤلاء الأثقياء مها بلغوا من الشجاعة والقوة . وقد عاد إليه هدوؤه على أثر تفكيره هذا . ولما رأى أن راكستان لا يرافقه سوى رجلين فقط ، لم يسهه إلا أن يُعجب به على عادة الفرنسيين في الإعجاب بالبطولة والجرأة ، فقال في نفسه :

« أقسم بالله أن هذا السخيف لا تنقصه الجرأة ، فلترّ الى أين سيدفعه تهوؤره وحماقته . »

وكان يظن أنه سوف يقدم بعض المتعة لضيوفه وخاصة ولم يخطر له لحظة واحدة أنه قد يكون ضحية فضوله وغروره ، وأن تلك المتعة قد تنقلب الى هزيمة شائنة وتحقير ينغص عليه عيشه ، وقد منعت كبرياؤه من التفكير في مثل هذه الأمور .

فلم يطل عليه الوقت حتى تبين له خطأ ظنه إذ أن الثواني القليلة التي أضاعها أتاح لراكستان المجال ليلتقط أنفاسه ولم يكن الفارس يريد أكثر من ذلك ، فرفع قبّعة فوراً في حركة واسعة تمثيلية وانحنى بلطفه الفخور المعبود ، وكانت تحيته موجهة الى ريون دور والدوقة فقط اللتين لا تزالان بين يدي دي كيز وسان ميغرين . وبعد أن حيا السيدتين وهو يولتي ظهره الى دي كيز استدار نحوه وانتصب بكل قامته ووضع قبّعة على رأسه ثم

أثبت نظره في عيني الدوق وقال بصوت رنان تجاوب صدهاء في
الدمليز الطويل كأنه نغير الحرب :

- إليك يا هنري دي لورين ، السيد السامي المقام القوي
النفوذ ، دوق وأمير وسيد أراضٍ وأمكنة عديدة ، في قصرك
الحصين نفسه وبين لبلانك وضباطك وحرسك وخدمك الذين لا
أرى سوى قسم منهم هنا ، جئت أقول لك وجهاً لوجه ، أنا
هوبير دي راكستان الفارس البسيط الذي لا يملك شيئاً والذي
لا يخفّره سوى هذين الشقيين المسكينين اللذين تراهما ، أتيت
لأقول لك إنك تستعمل نفوذك وقوتك ضد امرأة ضعيفة ، وإن
عملك هذا هو منتهى الجبن والحقارة .

فسقطت تلك الكلمات كصفعة شديدة على وجه الدوق وعلى
وجوه الأتباع الذين كانوا يحيطون به ، فانطلقت سيول اللعنات
والشتائم والتهديدات من الأفواه ، فقال راكستان بلهجة أمرّة
ساخرة :

- اسكتوا أيها الكلاب وسوف تتبحون عندما ينزع الكلاب
الكبير - وأشار الى كيز - الكلمات عن أشداقكم !
واتفق في تلك اللحظة نفسها أن دي كيز كان يأمرهم
بالسكوت بإشارة من يده فأطاعوا الأمر . فتظاهر الشيفالييه بأنه
ظنّ أنهم يطيعون أمره هو ، فحققه باحتقار وقال :

- يا للعجب ! أرى كلاباً مدربة على الطاعة فعلاً ، ويكفي
أن يُلوح لهم بالسوط ليكفّوا عن النباح .
ثم عاد الى دي كيز وأردف يقول بصوته الجهوري الرنان :

- إن الجبن الذي بدا منك يأنف أحقر الأشقياء والمشردين
ويحمرّ وجهه خجلاً من إظهار مثله . وقد أتيت أجابه القوة
بالقوة ، وأعلن أمامك أن هذا الزواج الذي تفرضه بالقوة لن
يتمّ إلا إذا ...

واستدار نحو ريون دور وتابع قوله :

- إلا إذا أعلنت هذه السيدة أمام الجميع أنها ترضى ...
فلم تدعه ريون دور يتمّ كلامه بل قفزت نحوه بخفة وسرعة
والتصقت بصدرة وطوقت عنقه بذراعها بحركة استسلام بريء
وهي تقول بصوت مرتجف سمعه الجميع :

- خذني من هنا ! أنقذني !

فأطبق ذراعيه عليها بلطف متناهٍ وقال بنغمة لطيفة :

- سأخذك وأحتفظ بك فلا تخشي شيئاً .

وقال للدوق بلهجة متحدية :

- حاول أن تستعيد لها مني !

ولكن دي كيز لم يحاول بل وجّه نظره هائلة الى سانت
ميغرين الذي لم يستطع الاحتفاظ بخطيبته . ولكنه كان متأكداً
مع ذلك من أنه سيسترجع الفتاة قبل مضي وقت طويل ، وأن
الاحتقال سيجري بعد القضاء على الأشقياء . وقد رأى وسمع الى
الآن ما فيه الكفاية فإن المغامر الشقي الذي رفع النقاش فوراً
الى ذلك الحدّ ليس له إلا الضرب والطعن يوقفانه عند حدّه ،
فاستدار الى أتباعه ليأمرهم بالانقضاء على الفريسة .
فهم الفارس فوراً معنى حركة الدوق فترك ريون دور

بلطف وقال لها :

- إذهي ولا تخشي شيئاً .

واستدار معها وسلمها بلطف الى ماراسكين . لم يقل لرفيقه شيئاً ولكنه نظر إليه نظرة طويلة عاد بعدها يواجه دي كيز وهو مستعد لإشهار حسامه ومجاهة الصدمة .

وفهم ماراسكين معنى نظرة الفارس . ومن جهة أخرى فهم حقيقة مهمتهم فقال في نفسه ساخراً :

- « يظهر أننا شهداء الغرام ! حسناً يا سيدي الفارس ، ويجعل بنا لتكون جديرين بلقب الرجال أن نقتد بعصفورتك اللطيفة من مخالب هذه الطيور الجارحة . »

وبعد أن اتخذ ماراسكين هذا القرار نبّه رفيقه بضربة من كوعه ، وتركز الاثنان أمام ريون دور كأنها أسدان هائجان وقد تأهبا ، كسيدهما ، لتجريد السلاح .

الأمر

*

قلنا إن دي كيز استدار نحو أتباعه ، وإن ريون دور أصبحت في الطرف المقابل وراء ميلورد جندارم وماراسكين ، وبهذه الحركة وجدت هرموزا وجوسلين جنباً الى جنب وسط نصف دائرة مؤلفة من سان ميغرين الى اليسار ، ثم ، على التسوالي الى اليمين ، بوميينيان والدوقة وهرموزا وجوسلين وسورياننتس

ودي كيز .

ولما استدار الدوق دي كيز وقعت عيناه على الكونت دي بوميينيان ، فلفت نظره الارتباك المستولي على هذا الكونت ، وخطرت له فجأة فكرة رهيبية ... فلم يعطِ الأمر لأتباعه بالمهجوم على راكستان كما كان ينوي أن يفعل بل تطلع الى بوميينيان بنظرة ثابتة وقال له بصوت قاطع :

- إنها فرصة رائعة يا بوميينيان لتُظهر لنا مدى إخلاصك ! وأشار الى راكستان باحتقار شديد وأردف قائلاً بصوت أشد قسوة :

- إن هذا الرجل هو أخوك ، ولكنه خائن سافل لا يالو جهداً في إهانة سيدك ، فاقبض على هذا الخائن وسلمنا إياه .

فوقع الأمر على بوميينيان كضرب المطرقة وأخذ يقتل شاربيه بعصية ، فزجر الدوق قائلاً بغضب :

- ماذا؟! أملكك تردد؟

ويجب أن نقول هنا إن أول فكرة مرت في رأس بوميينيان المشوش آنذاك هي هذه :

« إن ثروتي أصبحت مؤمنة وبعد هذه الضربة لن يرفض لي الدوق طلباً . »

وقد خطا خطوتين قاسيتين عنيفتين في اتجاه أخيه وامتدت يده الى مقبض سيفه فامتسقه نصف امتشاقاً .

ولكنه لم يستطع أن يخنق صوت الدم في سبيل مطامعه ، فتوقف عن السير وأغمد حسامه بقوة وهزّ كفيه وهو يزجر

قائلاً :

— إنه أخشي رغم كل شيء !

ودار على عقبيه وقد قرّر عصيان الأمر . ورغم أن بادرته
النبيلة هذه جاءت متأخرة قليلاً ، إلا أنها لم تُسْفِص شيئاً من
شرف نفسه إذ أنه والحقّ يقال ، أقدم ، في سبيل المحبة الأخوية ،
على تضحية هائلة بتخليه عن مركز لامع كان من الممكن أن
يغدو رائعاً فيما إذا تمكّن دي كيز من خلع فالوا وإبدال تاج
الدوقية بتاج ملكي .

فاستدار بومبينيان إذن وفي نيته أن يضحى بكل شيء ،
ولكن عينيه انصبّت على هرموزا وجوسلين اللتين كانتا واقفتين
جنباً إلى جنب كما قلنا ، وخيّل له أن عينيّ كلّ من المرأتين
الفائتين كانت تصيح به قائلة :

— « إضرب ! إضرب !... وسأكون لك هذا المساء !... »

ولم يتردد . فإن ما عجزت المطامع عن تحقيقه فعلمه الغرام
في أقلّ من ثانية ، فمات ضميره وشعوره وعقله فوراً كأنما تجرّد
من كل ما هو إنساني وانتصب صاحب الوجه محتقن العينين بالدم
وجرّد سيفه بجرّقة قاسية ، حركة منّ يقدم على قتل .

وقد بدا للجميع أنه ينوي قتل أخيه بما لا يقبل الشك .
وظنّ دي كيز أنه إنما يطيع أمره فشجّعه بنظرة لطيفة كما
يشجّع الكلب المطيع .

وكان راكستان قد أحسنّ بكبده يتمزق عندما رأى أخاه
يطيع أمر الدوق . ثم شعر كأن عبثاً ثقيلاً قد أزيح عن عاتقه

عندما تأكّد من أنه لن يطيع . ولكن سروره لم يدم سوى
لحظة قصيرة جداً ، وشعر فوراً أن أخاه يريد قتله هذه المرة كأنه
مسوق إلى ذلك بقطع لا يتأوّم .

وفهم دونما صعوبة مصدر تلك الضربة الأخيرة ، فإن أخاه
يريد قتله لأن إحدى المرأتين قد أمرته بذلك !

وعندما أوشك بومبينيان على الانقضاض عليه صاح راكستان
قائلاً بصوت كأنه قصف الرعد :

— ماذا تنتظر أيها السيد لتقتلني ؟ ... أتريد أن ترغم تلك
السيدة النبيلة على أن تكرر ، بصوت مرتقع ، الأمر الذي
أعطتك إياه عيناها الناعستان ؟

فتوتّح بومبينيان تحت تأثير تلك الضربة غير المتوقعة ورجع
خطوتين إلى الوراء بجرّقة لاشعورية .

فأردف راكستان يقول بصوت أشدّ قسوة :

— يظهر أن سلطة السيدة عليك تفوق سلطة سيدك إذ أنك
عصيت هذا بينما أراك مصتماً على أن تطيع تلك ! ليكن !
ولكن ذلك الأمر لم يسمعه سواك ولم يحزره سواي ، ويخيّل
لي أنه من حقّ هذا الحشد النبيل أن يعرفه ويعرف التي أعطته
ولماذا أعطته .

وانتصت الفارس باحتقار شديد ومدّ ذراعه نحو الشقيقتين
بجرّقة اتهامية وقال بصوت داور :

— إنك أنت ذات الرداء الأبيض أو أنت ذات الرداء
الأسود التي أعطيت أمراً إلى أخ ليقتل أخاه مقابل قبلاتك الحمراء

المغموسة بالدم ! وسأقول لك لماذا أعطيت هذا الأمر الفظيع .
ثم ركض الى ريون دور فأمسكها من كتفيها بلطف متناهٍ
وقدمها وهو يتابع كلامه قائلاً :

- إنك لم تحظني يا سيدي فهذه ليست ريون دور ... كما أنها
ليست الآنسة دور بيريف ... إنها ، وقد عرفتها جيداً ، الأميرة
رولاند دي مونكاييه التي أغرقتها فيما مضى بجياه نهر الواز... ثم
سعت في قتل أبيها ... وكل ذلك للاستئثار بإرثها الضخم . إنها
رولاند دي مونكاييه التي كنت تظننيها ميتة وقد ذهلت
عندما رأيت أنها حية ترزق وأنه يتوجب عليك أن تردّي لها
ثروتها التي سرقتها ...

وبعد أن أنهى الفارس كلامه أعاد ريون دور باللطف نفسه
الى مكانها بين ميلورد جندارم وماراسكين ووقف أمامها ثم
امتشق حسامه بسرعة هائلة جعلت له صغيراً كصغير الرياح وصاح
صياح المعركة قائلاً :

- هيا يا بوميينيان واهجم على أخيك لأنه المدافع الوحيد عن
رولاند دي مونكاييه ! أهاجم عليه واقتله بطعنة واحدة من
خنجرِكَ كما قتلت فيما مضى الأمير دي مونكاييه ! أضرب دون
رحمة ودون تبكيت ضمير لتسلم رولاند لقمة سائغة لحليلتك
الفاجرة وتؤمن لها نهائياً ذلك الإرث الذي تدين به لسكين
الصيد التي قتلت بها الأمير !

المعركة

*

لن نحاول أن نصف التأثير الهائل الذي تركه كلام راكستان
غير المتوقع في نفوس الحاضرين ، بل نقول إن الجميع ، حتى دي
كيز ، نسوا موقتاً زواج سان ميغرين وكانوا يسمعون ما يُقال
بانتهاء ما بعده انتباه .

وقد أظهرت كل من هرموزا وجوسلين الشعور نفسه التي
أظهرته الأخرى : شعور الدهشة والاحتقار الصادق عند الواحدة ،
والمطبّق بفنّ ومهارة عند الأخرى . ثم تبدّلت تصرّقاتها في
الوقت نفسه ولم تعد نظراتها المثبّثة على الفارس تعبّر إلا عن
الشفقة كأنها تريانه أحقّ دون شك .

أما الدوق دي سوربانس فإنه لم يكن يشاركها ذلك
التصرّف وقد رأى أن الضجة تعدّت الحد فالتفت الى دي كيز
وقال له بلهجته المتعالية المهوودة :

- بحق السماء أيها الدوق ، دعني أعاقب هذا الوقح ما دمت
لا تستطيع الدفاع عن شرف أصدقائك .

- دع عنك ذلك ! ولا أظن أنك تريد تشريف هذا المتشرّد
بأخذ اتهاماته المضحكة بعين الجد !

ثم استدار نحو أتباعه وصاح قائلاً :

- إقبضوا على هذا الرجل .

فأشهر الكثيرون سيوفهم ، ولكن الدغليز لم يكن من السعة

بجيت يتمكنون كلهم من الهجوم دفعة واحدة . وكان كل ما استطاعوا أن يفعلوه هو أنهم تقدموا خمسة إثر خمسة ، فتلتى راكستان وماراسكين وميلورد جندارم الخمسة الأول بقلوب قُدت من الفولاذ ، وقال راكستان ساخراً :

— إن الثور الوحشي يتمتع بقرنين قويين وهو يجيد استعمالها فويل للحمقى المتهورين .

وقد قال تلك الكلمات وهو يرد طعنة تأتيه عن اليمين وأخرى عن اليسار . ثم أطلق ذراعه بحركة صاعقة وهو يصيح قائلاً :

— كلب واحد !

فطعن ماراسكين بدوره وصاح قائلاً :

— اثنان !

وزجر ميلورد جندارم يقول :

— ثلاثة !

وقد أسقط كل من الشجعان الثلاثة مهاجمه دون أن يُصاب هو بخدش ، وألقوا الاثنتين الباقيين برفاقها فوراً وكان بين هؤلاء الخمسة الكونت دي سان ميغرين الذي شاء حسن حظه أن يُصاب بضربة من قبضة سيف جرحت رأسه وكسرت سيفه ، وهكذا استطاع أن ينسحب بشرف من المعركة دون أن يناله أذى كبير .

إذن فإن الرفاق الثلاثة قد أسقطوا فوراً خمسة من أعدائهم . فأنام توّاً خمسة آخرون فأتبعوهم برفاقهم دون هوادة ، ولكن

احل محلهم فوراً خمسة آخرون . وكان راكستان وماراسكين وميلورد جندارم قد نالوا ، هذه المرة نصيبهم من الطعنات . وصحيح أنها كانت خدوشاً بسيطة ، ولكن دماهم بدأت تسيل ... وبعد هؤلاء الخمسة آخرون وآخرون سيأتون على التوالي ! فأيقن راكستان ورفيقاه من السقوط العاجل فيما إذا ظلوا يتابعون تلك اللعبة .

وفي تلك اللحظة صاح ميلورد جندارم صيحة ألم وقد شعر أن أحدهم طعنه من الوراء فاستدار كثة واحدة وهو يزجر قائلاً :

— أيها الخائن الغادر ستدفع فوراً ثمن فعلتك الشائنة !

فظن راكستان أنهم هوجموا من الوراء أيضاً فاستدار يجابه الخطر الجديد وهو بقي نفسه بدوامه جهنمية من سيفه الطويل ، ولكنه رأى أن ذلك الهجوم لم يكن بذى بال . وكان العملاق السويسري الذي يحرس باب الكنيسة هو الذي قام به فانقض على الرفاق الثلاثة من الوراء وطعن ميلورد جندارم بحربته في خاصرته ولكن الجرح لم يكن خطراً وقد استدار ميلورد وضرب السويسري بقبضة سيفه ضربة هائلة تركته يتدحرج على الحضيض فاقد الوعي .

رأى راكستان ذلك ولكنه رأى أيضاً باب الكنيسة المفتوح الذي لم يكن يحرسه أحد لأن الكاهن ومساعديه كانوا قد أطلقوا سيقانهم للريح . فألقى ببضع كلمات الى ماراسكين ، وعندئذ أبدلوا خطة القتال فبعد أن كانوا يقاتلون ثابتين في أماكنهم بدأوا الآن يقاتلون وهم يتراجعون بأقصى سرعة .

فانطلقت صيحات الظفر من المهاجمين عندما رأوا تلك الحطة
التي لم يفهموها وكانوا يزعجون قائمين :
- لقد قضى عليهم ! ... إنهم يفرون ! ... لقد أصيبوا
إصابات بالغة ! ...

وكان الرفاق الثلاثة قد أصيبوا حقاً وكان الدم والعرق
يكسوان أجسامهم ووجوههم ولكنهم لم يكونوا يفرون بل
كانوا يتمشون وفق خطة مرسومة .

وكانت ريون دور تترجع مثلهم وقد فهمت خطتهم ،
وكانت تسير أمامهم لثلاث تعيق حركاتهم . ووصلوا الى باب
الكنيسة وهم على آخر رمق فدخلت ريون دور أولاً ودخل
وراءها ماراسكين وأمسك بيده مصراع الباب المفتوح متأهباً
لإغلاقه عند اللحظة الحاسمة .

وعندئذ استجمع راكستان وميلورد جندارم قوامهما وانقضت
فجأة على المهاجمين وهما يقيان نفسيهما بدوامه متسعة من سيفيها
المكسوتين بالدماء حتى القبضة .

فبعث المهاجمون لتلك العودة الصاعقة وتراجعوا خطوتين الى
الوراء ، وكان ذلك ما يريد به البطلان إذ أن ميلورد جندارم وثب
وثبة هائلة الى الوراء ودخل الكنيسة ودخل وراءه راكستان
وكان ماراسكين يراقبها فأغلق مصراع الباب بعنف شديد
وساعده رفيقاه في دفع المزاليج الضخمة .

وأسندوا ظهورهم الى الباب وبدأوا يستعيدون أنفاسهم
المنقطعة اللاهثة .

ووقفت ريون دور أمام راكستان وبدأت تمسح وجهه
المكسوّ بالدم والعرق بمديها الحريري الثمين . وكانت تفعل ذلك
بلطف متناهٍ وحنان أشبه بحنان الأم ، وكانت تغمغم بين وقت
 وآخر قائلة بصوت مخنوق :

- كل هذا لأجلي ! ... لأجلي !

وشعر راكستان بيهض الراحة فشكرها بابتسامة ونحاتها
بلطف وأخذ يبحث في تلك الكنيسة التي ساقتهم اليها الصدفة عن
منفذ يخرجون منه . وكان المذبح ينتصب في نهاية الكنيسة قبالة
الباب فذهب إليه ودار وراه فلم يجد المنفذ الذي يبحث عنه
وأحسّ بخيبة أمل كبيرة فقال في نفسه :

- « إن الموت ممكن بالنسبة لنا ، ولكن ماذا نفعل بها في
تلك الحالة ؟ ... »

ولم يفكر أكثر من ذلك بل عاد الى رفيقيه فأغمد سيفه
وسحب مقعداً كبيراً ألصقه بالباب ، وقد فهم رفيقاه غايته فأغمدوا
سيفيها هما أيضاً وبدأ يساعده في عمله . ولم تمضِ بضعة دقائق
حتى كان الباب محصناً بحاجز متين ، فقال ماراسكين وهو يظهر
إعجاباً بالعمل الرائع :

- إن الباب سيصمد على هذه الصورة ساعة أو ساعتين .

فقال راكستان ببرودة :

- سنرى .

وكان الفارس مقتنعاً تماماً من أن الحاجز سيصمد الوقت
الكافي ليستعيدوا قوام كلها ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل

أقاموا في وسط الكنيسة ، هنا وهناك ، عقبات الغاية منها عرقة
سير المهاجرين عندما يكسرون الباب ويقتحمون الكنيسة . ثم
نصبوا حاجزين آخرين عند كل جهة من جهات المذبح ، وبذلك
أصبح المذبح ملجأهم الثاني . وقاد راكستان ريون دور الى ما
وراء المذبح حيث أجلسها في مقعد وعاد الى رفيقيه فجلس وإياها
على الأرض قرب الباب .

وكان المهاجون قد يئسوا من كسر الباب دون معدّات فذهبوا
للإتيان بها ، وكانوا قد رفعوا القتلى والجرحى من أرض الدهليز
واصطف الذين سلموا أمام باب الكنيسة . وكان سان ميغرين
قد عاد إليهم ليطمئن خليلته ... وكان يومينيان هناك أيضاً وقد
انتحى جانباً وهو متجهّم الوجه تلوح عليه دلائل اليأس وخيبة
الأمل ولم يكن أحد يُلقِي إليه بالاً .

وكانت الدوقة دي كيز تتحدّث مع الدوق دي سوريانلس
عندما سمعت وراها ، في أذنها تقريباً ، صوتاً يهس قائلاً :
يجب أن تكون هناك طريقة للدخول سراً الى الكنيسة
وإخراج الفتاة منها إذ أن الدوق لن يتراجع عن إتمام الزواج
عندما يستعيدها في النهاية .

فشحب وجه الدوقة شحوباً شديداً عند سماعها هذا الكلام
وقد انتظرت لحظة قصيرة لتتألك نفسها وتحفي ما عرا ملاحظها من
الاضطراب ، ثم استدارت ببطء ولم يكن وراها سوى جوسلين
وهرموزا ، فشعرت الدوقة بالاطمئنان لأنها كانت واثقة من
إخلاص المرأتين وقد جاء الكلام الذي سمعته برهاناً ساطعاً على

هذا الإخلاص .

ولكن مَنْ مِنَ الشقيقتين هي التي تكلمت ؟ أهي هرموزا
الرصينة أم جوسلين المرحة اللعوب ؟
ولم تتردّد الدوقة إزاء تلك الفكرة بل خاطبت الإثنتين
بصوت خفيض قائلة بلهجة تجمع بين الهزل والجد .
- هناك دون شك طريقة للدخول والخروج دون أن يعلم
أحد .

وشرحت لها تلك الطريقة فرأتها تتسللان بخفة وجمارة
تأدرتين وتختفيان دون أن يشعر أحد بها ، فتنهدت الدوقة دي
كيز ارتياحاً وقالت في نفسها :

- « لقد نجونا من فكرة زواج عشيقى سان ميغرين وهذه
الفتاة .. وعندما يُفتح هذا الباب لن يجدوا أحداً في الكنيسة ! »
ولما أيقنت هرموزا وجوسلين من أن أحداً لم يعد يستطيع
رؤيتها أوسعتا الخطى دون أن تنبسا بكلمة ، وكانتا تسيران
دون أي تردّد كأنهما تعلمان الى أين تذهبان وماذا يجب عليها
أن تفعل .

وكانت كل منهما تحذر الأخرى وتراقبها مراقبة دقيقة .
والغريب في الأمر أنها لم تكوّنأ تحاولان إخفاء هذا الحذر وهذه
المراقبة .

ووصلتا على تلك الصورة الى جناح الدوقة فدخلتا الغرفة التي
تحتفظ فيها هذه بشايبها فبحثتا في صندوق ، دون أن تتكلّما ،
وأخرجتا ثلاثة معاطف فضفاضة ذات قلاص ، فالتفتت كل

منها بمعطف واعتمرت بالقلنسوة وخبثات إحداهما المعطف الثالث تحت معطفها وأخذته معها .

وشاءت الصدفة أن يكون المعطفان اللذان ارتداهما من اللون الرمادي فأصبح من المستحيل على أي كان أن يعرف من هي منها ذات الرداء الأبيض ومن هي ذات الرداء الأسود .

وسارتا كذلك بالخطوات الواسعة نفسها وكاتتا ، هذه المرة أيضاً ، تعرفان تماماً وجهة سيرهما وتراقب كل منهما الأخرى بطرف عينيها .

نهاية المعركة

*

وعاد الرجال بالأدوات اللازمة وانقضوا على باب الكنيسة وكان راكستان وماراسكين وميلورد جندارم قد هبوا واقفين منذ الضربات الأولى ووقف كل منهم في مركزه من المعركة المقبلة . وكانت الدقائق القليلة التي قضوها في الراحة قد أعادت إليهم جزءاً كبيراً من قوامهم وشعروا ، رغم جراحهم ، بأنهم قادرين على متابعة المقاومة وقتاً طويلاً .

وكان الباب قد بدأ يثن تحت تأثير الضربات العنيفة المنهالة عليه ولم يلبث أن سقط بدويّ يصم الآذان فاستقبل المهاجمون هذا النصر الأولي بصيحات الفرح ، ولكن إسقاط الباب لم يكن كل شيء بل كان عليهم الآن أن يزيلوا الحاجز المتين الذي أقامه

الشجعان الثلاثة وراه ذلك الباب .

ولم تكن تلك المهمة من السهولة بحيث تصوّروا وقد بدأوا يحسون بصعوبتها وخطرها عندما أخذ راكستان وميلورد جندارم وماراسكين يطلقون سيوفهم الطويلة من خلال منافذ الحاجز ويميدونها في كل مرة مخضبة بالدماء ، بينما تنطلق اللعنات وصيحات الألم من الجهة الثانية .

ولكن الشجعان الثلاثة كانوا على يقين من أنهم سيدقون أخيراً ، وهو ما بدأ راكستان يقوله لنفسه وقد استولى عليه قنوط غريب وكان مكسواً بالجراح ولم يبق واقفاً على قدميه إلا بإرادة عجيبة تفوق إرادة البشر . وكان ينظر إلى المذبح حيث كانت ريون دور ويفكر في الذهاب إليها ليقول لها قبل أن يموت إنه أحبها دائماً وإنه بدأ يحس بهذا الحب منذ ذلك اليوم البعيد الذي أعطته فيه ، وهي طفلة ، تلك الوردة البرية !

وعندما أوشك أن ينفذ فكرته انطلقت فجأة صيحة فرح من الجهة التي كانت فيها الفتاة وسمع صوت ريون دور يناديه قائلاً :
- أسرع يا هوبير ... لقد نجونا !

فعول إليها أنظاره قرأها واقفة مشرقة الوجه وهي تشير إليه أن يسرع وكأنها أرادت أن تُظهر له عدم الجدوى من إضاعة الوقت فأسرعت تحتفي خلف المذبح .

فلم يتردد راكستان بل أشار إلى رفيقيه ، فترك الرجال الثلاثة الحاجز وأسرعوا في الطريق الضيق الذي يمتد بين العقبات التي أقاموها في وسط الكنيسة متجهين إلى المذبح .

وهناك سمعوا أيضاً صوت ريون دور كأنه خارج من الجدار وهو يقول :

— أسرعوا ... لقد نجونا !

وقد رأوا باباً صغيراً مفتوحاً في الجدار وشاهدوا في الفجوة المظلمة شبحاً غامض المعالم ولكن صوت ريون دور كان قد انطلق من تلك الثغرة فصاحوا صيحة فرح ووثبوا يريدون دخول الفتحة الضيقة وإذا بهم يصطدمون بالجدار ... فإن الباب قد أغلق في وجوههم في اللحظة التي بلغوه فيها . فزأر راکستان قائلاً :

— يا للثمنة !

ثم انقضّ الرجال الثلاثة على ذلك الباب الجهني بضربونه بقبضات سيوفهم ولكنه لم يفتح ولم يجبهم أحد . وعندئذ حاول راکستان وميلورد جندارم أن يخلمعا ولكنها لم يستطيعا حتى هزّه . وعندئذ حدثت قعقة هائلة عند مدخل الكنيسة فالتفت الرفاق الثلاثة نحو تلك الجهة ورأوا أن الحاجز قد انهار وظهر مطاردهم في الكنيسة وهم يصيحون صياح الموت .

فاضطر راکستان الى ترك البحث عن المتفذ السري ليجابه الخطر الذي أطبق عليه وبدأ فوراً بإسقاط الحاجز الذي أقاموه قرب المذبح . وكانت المقاعد الهائلة الحجم والثقل تتساقط هنا وهناك فتخطم الرجال وتعرقل سير المهاجمين ، وكان ماراسكين وميلورد جندارم قد أسقطا بدورهما الحاجز القائم في الجهة الأخرى من المذبح فأصبح لا بد لرجال دي كيز من إزالة تلك العبات جميعها للوصول الى الشجعان الثلاثة ، الأمر الذي يستغرق

من وقتهم دقيقة أو دقيقتين .

ولما تمّ لراکستان ما أراد من عرقلة سير خصومه لم يعد يتمّ بهم بل أسرع الى النافذة ففتحها ورأى أنها تطل على فناء صغير مقفر فاستدار نحو ميلورد جندارم وماراسكين وقال لهما ببرودة هائلة :

— إقفزا .

فأطاع الرجلان دون مناقشة فتسلقاً قاعدة النافذة وقفزا الى الفناء . وكان راکستان في تلك اللحظة يطعن يميناً وشمالاً فيطلق المهاجم ويحندل الرجال صرعى . وفجأة أغمد سيفه بسرعة البرق وتناول المقعد الضخم الذي كانت ريون دور تجلس فيه قبل خروجها من المتفذ السري فرفعه على مدى ذراعيه وطوّحه هتية فوق رأسه كأنه الريشة ثم أطلقه يهوي كالصاعقة في قلب كنة المهاجمين ، فتعالى الأنين وانطلقت اللعنات ، ولكن الفارس لم يعد يتم بشيء من ذلك بل استجمع قواه للحظة الحاسمة فوثب بخفة الفهد الى حافة النافذة ومنها الى أرض الفناء حيث كان رفيقاه ينتظرانه وقد أشهرا السلاح استعداداً لكل ما قد يحدث . فامتشق الفارس حسامه من جديد وسار في الطليعة لأنه الوحيد الذي كان يعرف الطريق .

ولم يكد الرجال الثلاثة يسرون بضع خطوات حتى ارتفعت الصيحات على حافة النافذة التي قفزوا منها وكان المطاردهون يدرون قائلين :

— أقتلوه ! أقتلوه ! أوقفوه ! أوقفوه ! أغلقوا الأبواب ! إرفعوا الجسر ! أوقفوه ! أوقفوه ! إياكم أن تدعوهم يجتازون أسوار

فانطلق الرجال الثلاثة بأقصى سرعتهم فاجتازوا أروقة وقاعات عديدة ثم نزلوا درجات أحد المداخل وإذا هم في الفناء الكبير أمام البوابة الخارجية لقصر دي كيز .
وكان لا بدّ لهم لاجتياز تلك البوابة من المرور أمام غرفة الحرس حيث كان يوجد ثلاثون جندياً بقيادة أحد الضباط .
ولم يكد الضابط يراهم حتى كانوا قد وصلوا إليه فصاح بأعلى صوته قائلاً :

– قفوا ! الى السلاح ! أغلقوا الـ...

وكان هذا هو كل ما استطاع فعله وقوله فإن ماراسكين كان قد انطلق نحوه في اللحظة نفسها كأنه القضاء المنزل ونطحه في بطنه نطحة ألقته على بلاط الفناء غائباً عن الصواب .

وخرج على أثر صياح الضابط نحو عشرة جنود وهجموا على الفارس ورفيقه من الأمام ، وفي اللحظة نفسها ارتفعت الصيحات على درجات المدخل التي اجتازوها وكان القادمون الجدد جنوداً يقودهم بعض النبلاء وكانوا يصيحون قائلين :

– أوقفوهم ! أوقفوهم ! أغلقوا الأبواب ! إرفعوا الجسر !

وهكذا وجد راكستان وماراسكين وميلورد جندارم أنفسهم بين فرقتين من الجنود : واحدة تقطع عليهم طريق الباب وأخرى تسرع للإنقضاء عليهم من وراء .

ولكن الأبطال الثلاثة لم يفقدوا ذرة من شجاعتهم وقد فهموا أنهم الآن أمام الحد الفاصل ، فإما موت وإما حياة ! وقد

قرروا تحدي الموت للظفر بالحياة فانتظموا صفاً واحداً مترافاً وانقضوا كتلة واحدة على الذين يقطعون عليهم الطريق غير عابئين بأسنة الرماح الموجهة الى أجسادهم .

وشعروا بلحمهم تمزقه تلك الأسنان وأحسوا بدمهم يسيل حاراً تحت ثيابهم الممزقة ، ولكن الحاجز البشري كان قد تشتت وكانما تشتت بفعل زلزال مدمر ، ومرّ الشجعان الثلاثة من خلاله كأسفين من الفولاذ .

ووصلوا الى البوابة الكبيرة فانقض راكستان وميلورد جندارم على الجنديين الذين كانوا يحارون إقفالها وطعن كل منهما رجله طعنة ألقته على الثرى يتخبط بدمه بينا كان ماراسكين يقبض على المفتاح الضخم بكلتا يديه .

وعندئذ استدار راكستان وميلورد جندارم يجابهان الجنود وهما يزاران كأنهما أسدان جائعان وكان في منظر وجيههما المصروعين بالدماء اللذين لا يُرى منهما سوى أعين أربع تلمع لمعاناً خفيفاً ما جعل هؤلاء الجنود يترددون هنيهة ، فاغتم الشجاعان الفرصة وهجما عليهم وهما يضحكان ضحك القانطين ، فذهل الجنود وتراجعوا خطوات .

وكفت تلك الثواني الثلاث التي قضاها الجنود في التردد ، فإن ماراسكين كان قد فتح البوابة وإذا بكتلة كأنها الشهاب المارق تخرج منها فتقطع الشارع وتدخل آخر حيث تبخرت .
وهكذا نجح راكستان ورفيقاه في خطتهم الجنونية ومروا بين الجنود وخرجوا من قصر دي كيز وتواروا عن الأنظار .

واستولى الحبل على الجنود وقد هزمهم رجال ثلاثة فقط
فتدافعوا الى الشارع يصخبون ويلعنون وهم لا يعلمون الجهة التي
سار فيها الفارون .
وكان رجل ذو هيئة مشبوهة يتسكع أمام القصر فرأى
الرفاق الثلاثة يخرجون من البوابة على ما وصفناه ، فجعل يتبعهم
عن بعد ولا يدعهم يغيبون لحظة عن نظره .

*

وفي اللحظة التي اجتاز فيها راكستان ورفيقاه الشارع ، كانت
عربة مقفلة تسير في شارع « الرجل المسلح » وهي تقل ريون
دور ، وكانت الفتاة تحمكة الوثائق مكومة الفم .
وتفسير ذلك أنه بعد أن أعطت الدوقة دي كيز معلوماتها
بشأن الدخول الى الكنيسة لجوسلين وهرموزا ، سارت الشقيقتان
في طريق خفية الى حيث الباب السري ففتحتاه ودخلت إحداها
الكنيسة بينما لبست الأخرى تنتظر في السرداب المظلم في أعلى درج
صغير حلزوني الشكل حيث كانت تستطيع أن تراقب شقيقتها ،
فلبثت تراقبها فعلا بانتباه بالغ .
ورأت ريون دور فجأة ذلك الشبح الرمادي يخرج من
الجدار خلف المذبح مباشرة فهبت واقفة وقد استولى عليها
الذهول . ولكن الشبح اقترب منها خطوتين وقال :
- أسرعي ونادي المدافعين عنك واذهبوا دون أن تضعوا
ثانية واحدة .
فصاحت ريون دور قائلة :

- راكستان ! أسرع الى هنا .

فقال الشبح :

- ناديه مرة أخرى ... ولكن الزلي ولا تنتظريه .

وفي تلك اللحظة كانت الشقيقة الأخرى التي لبست في أعلى
الدرج تأخذ بيد الفتاة وتسحبها صوبها بلطف بينما تابعت الأولى
إلحاحها قائلة :

- أسرعي بالنزول أو يقضى علينا كلنا .

فتزلت ريون دور دون تردد وهي تنادي راكستان للمرة
الثانية . وفي اللحظة نفسها لاح على ملامح تلك التي كانت في أعلى
الدرج بريق انتصار ودفعت ، بحركة صاعقة ، الباب الحديدي في
اللحظة التي كان الفارس ورفيقاه يبلغونه فيها .

ولما أصبحت النسوة الثلاث في السرداب المظلم ، قادت
الشقيقتان ريون دور الى الشارع حيث كانت عربة مقفلة
تنتظرهن ، فاتجهن نحو تلك العربة وأزاحت إحدى الشقيقتين
بسرعة ستار الباب المؤدي الى المقعد الخلفي وأدخلت رأسها من
خلاله فرأت سيداً مستتراً بمعطفه يتظاهر بالنوم في زاوية من
المقعد ، فأشارت المرأة إليه إشارات ذات معنى أجابها عليها
بإحتماء خفيفة من رأسه . وكان هذا الرجل التذل الحقيير غاسبار
بنياكل . وبعد أن أعطته المرأة وامرها الصامتة استدارت
وأرادت أن تصعد ريون دور الى العربة ، ولكن هذه كانت
قد ثارت فيها الشكوك فاعلنت قائلة بحزم :

- لن أصعد طالما أن السيد دي راكستان ليس معنا .

فقال إحدى الشقيقتين بكل هدوء :

— إن العربية لن تسير دون السيد دي راكستان ، ولكن من الأفضل أن ننتظره في الداخل وليس في الشارع لأننا لا نزال أمام باب القصر ويمكن لمن يرانا أن يعرفنا فيعيدونك أنتِ إلى الدوق ولن يقع لك أي أمر آخر ... أما نحن فنسندفح رأسينا ثم الخيانة التي ارتكبتها دون أية فائدة . فإذا كان هذا ما تريدته فقولي .

وقد قالت المرأة ذلك بلهجة أقنعت ريون دور وأزالت شكوكها فتقدمت من العربية ووضعت قدمها على الدرجة لتصعد ، فد بنياكل لما يده كأنه يساعدها بينما كانت الشقيقتان تدفعاها من وراءه .

وفجأة جذبها بنياكل إليه بقوة هائلة وأطبق بيده الأخرى على عنقها وضغط ، فأنت ريون دور أئيناً مكتوماً وتخبّطت لحظة قصيرة ثم سقطت مغشياً عليها ، فلفّها بنياكل بالمعطف الذي كانت تحمله إحدى الشقيقتين تحت معطفها كما كنا ، وقيد يديها ورجليها وكمّهما ثم قفز من العربية وانحنى باحترام أمام الشقيقتين ومدّ لهما ، على التوالي ، يده يساعدهما في الصعود . فقامت إحداهما بلهجة مهدّدة :

— ويل لك إذا كنت قتلتها !

فطمأنها بنياكل قائلاً ببرودة !

— لا تقلقي ، فإنها مغشّي عليها فقط وما هي قد بدأت تتحرك .

ثم انحنى للمرة الأخيرة وابتعد عن المكان بهدوء ولا مبالاة . ولم يسر بضع خطوات حتى رأى الرجل ذا الهيئة المشوهة الذي قلنا إنه تبع راكستان ورفيقه ، فتقدّم منه بجذر وممس في أذنه بضع كلمات ، ثم ابتعد مسرعاً وقد أحكم وضع قناعه الأحمر على وجهه ورفع باقة معطفه إلى منتصف ذلك القناع .

أما الشقيقتان فإنها أسدلتا ستائر العربة ثم أصلحتا من وضع المعطف الذي لفتت فيه ريون دور بطريقة تسمح للفتاة بالتنفس وتقيها خطر الموت اختناقاً ، وجلستا بعدئذ وخلعتا قطنسوتيها فبدأ رأساها المتشابهان . ومن الغريب المدهش أنهما كانتا كلتاها رصينتين تماماً في تلك اللحظة فظهر الشبه بينهما كاملاً مذهلاً .

وانطلقت العربة ببطء في اتجاه قصر الدوق دي سورياتنس زوج جوسلين ذات الرداء الأبيض . وكانت إحدى الشقيقتين تلقي على الأخرى نظراً متوسلاً ذليلاً . والغريب أن العينين المتوسلتين اللتين كانت تلتصق فيهما الدموع ، لم يكن فيهما أي غضب أو احتقار أو حقد ، بل نوع من عبادة حارة وإعجاب طاغٍ .

سورياتنس

*

وعندما علم دي كيز أن راكستان ورفيقه قد تمكنوا من الفرار غضب غضباً هائلاً لم يعد يجرؤ معه أحد من أتباعه على أن

ينظر إليه أو يكلمه . وكان يمكن للدوقة دي كيز أن تنسحب منذ وقت طويل ، ولكنها أرادت أن تكون حاضرة لثمنت بالدوق وتفرح بهزيمته عندما يرى الكنيسة خالية .

ويجب أن نقول هنا إنها عندما أعطت صديقتها « الطيبتين » جوسلين وهرموزا التعليقات اللازمة لإنقاذ الأنتة دور بيريف ، كانت تعتقد تماماً أن الفارس ورفيقه سينجون هم أيضاً . وقد عجبت عجباً شديداً عندما رأتهم لا يزالون في الكنيسة في حين أن الأنتة دور بيريف قد غادرتها . ولكنها لم تعد تعلق أية أهمية على ذلك الموضوع عندما تمكن الفارس ورفيقاه أخيراً من النجاة .

وكانت في تلك اللحظة تتشفي بالدوق وتشعر بغبطة شديدة لهزيمته وهو المتكبر المتعجرف . وقد تزيد سرورها عندما سمعت يعلن عن فشله بطريقة غير مباشرة فيقول لسان ميغرين بصوت مرتفع :

— أعتقد أنها الكونت أنراكستان قد خدمك خدمة كبيرة بإحباطه مشروع هذا الزواج الذي كنت تريد بكل قواك . وفي جميع الأحوال ، فإنني لم أخف عنك شعوري في هذه القضية عندما قلت لك إنك ترتكب حماقة جنونية بزواجك هذا .

— واحسرتاه يا مولاي ، إن هذا الحب لن يقتني إلا بانتهاج حياتي .

فلم يطرף للدوقة جفن عندما سمعت كلام الكونت وتظاهرت بأنها لم تفهم أن الحب الذي يعنيه هرجه لها ! وقد

أخفى الدوق غضبه تحت ستار ابتسامة مصطنعة بينما كان الحاضرون يتمتعون من ذلك الغرام الخالد وبروثون في قرارة نفوسهم لحال العاشق المتكود ، فإن الأنتة دور بيريف كانت جميلة جداً في الحقيقة .

ولكن رجلاً واحداً لم ينظر إليه كلام سان ميغرين هو الدوق دي سوريانتس الذي كان يستأذن في الإنصراف عندما سمعه ، فمرت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، إلا أنه أخفاها بمهارة وتابع حديثه مع دي كيز .

وعندئذ لاحظ هذا أن جوسلين وهرموزا قد ذهبتا منذ وقت غير قصير فطرح على سوريانتس سؤالاً في هذا الشأن فأجابته الإسباني قائلاً بلهجة طبيعية جداً :

— إنهما لا تزالان صغيرتي السن وقد أثرت اهتمامات راكستان عليهما تأثيراً كبيراً لا سيما وأنهما كانتا تعبدان ابنة عمهما الصغيرة رولاند . ولما رأيت ما كانتا عليه من الاضطراب والتأثر أشرت عليهما بالذهاب بأسرع ما يمكن .

— أرجو أن يكون ما عارهما عارضاً ويمضي ، وسوف أذهب هذا المساء لتفقدت حالهما .

— إنك تعلم جيداً أن بيتي هو بيتك وأن من دواعي سرورنا أن نراك فيه دائماً . وتصافحاً بمجراة ، ثم المنحى سوريانتس أمام الدوقة التي أكدت له ، هي أيضاً ، أنها ستذهب بأسرع ما يمكن لزيارة صديقتها الطيبتين .

وسار سوريانتس في طليعة رجاله العشرة وكان يمتطي جواداً

إسبانيا أصيلاً فكان معظم الباريسيين يرفعون له قبعاتهم باحترام .
ومن العجب حقاً أن هذا السيد الكبير كان يجيبهم على تحياتهم
بلطف وكياسة متناهيين .

ورغم أنه كان يسير بجواده الهويناء ، إلا أنه كان يتأذى له أن
يصيح غالباً : « إنتبه يا صديقي ! » ، « إحذري يا ابنتي الجميلة ! »
وكان الذي يدعوه بكلمة « صديقي » متسكماً من أقل الناس
شأناً ، والتي يدعوها بكلمتي « ابنتي الجميلة » خادمة مسكينة ،
فكان جميع الذين يشاهدونه على تلك الصورة يتهامون قائلين :
« لو كان جميع النبلاء متواضعين وطيبين مثل هذا السيد الأجنبي
لاتفى الفقر والشقاء من بين أبناء الشعب ! »

وهكذا وصل سوريانتس الى قصره ، ولكنه في الحقيقة كان
يغلي في داخله . وما إن بلغ الفناء العام حتى قفز بسرعة عن جواده
واجتاز درج المدخل بوثبتين ثم انطلق راكضاً نحو قاعته حيث
دخل كالعاصفة .

وكان بنياكل ينتظره في تلك القاعة وهو جالس بكل حرية
في مقعد كبير موضوع قرب طاولة مكشوفة بالمفاتيح والأوراق ،
وقد نهض واقفاً عندما رأى الدوق وحيّاه باحترام ، فسأله هذا
قبل أن يلتقط أنفاسه قائلاً :

— ماذا وراءك ؟

وكان بنياكل يعرف جيداً معنى السؤال ، فأجاب دون
تردد :

— إن الآنسة دور بيريف هنا منذ ربع ساعة تقريباً .

ثم شرح له باختصار ما فعله في هذا الشأن . ولما انتهى سأله
قائلاً :

— أريد أن تراها يا مولاي ؟

فرفض سوريانتس بحدّة قائلاً :

— لا ، لا ، لا أريد أن أراها . إنني أجهل وجودها هنا وأجهل
كل شيء يتعلق بهذه القضية ! كل شيء ... أسمع يا بنياكل ؟

فقال بنياكل بعدم اكترات :

— حسناً يا مولاي .

فأوضح سوريانتس قائلاً :

— إنها قضايا نساء ولا أريد أن أتدخل فيها .

ثم أضاف يقول بابتسامة حادة :

— يا للشيطان ! إن الدوقة دي كيز لن تغتفر لي تدخلي في
أعمالها .

وأردف يقول ببطء وهو يضغط على الكلمات :

— إذ إنها هي التي أرادت هذا الإختطاف ومهدت له
بالإرشادات التي أعطتها . وقد نفذت الدوقة دي سوريانتس
وشقيقتها هرموزا تعليماتها بدافع الصداقة . أتفهم يا بنياكل ؟

فابتسم بنياكل دلالة على الموافقة . وعاد سوريانتس يسأل قائلاً :

— ماذا تفعلان الآن ؟

— إنهما تحمرسان الآنسة دور بيريف وتراقب كل منهما الأخرى
بصورة متواصلة . وأرى من واجبي أن أنبهك فوراً يا مولاي الى
أنهما ترتديان معطفين رماديين يلفسانهما من قمة الرأس الى أخمص

القدمين ، وكلامهما تظهران الوجه الجامد نفسه الذي لا يسير غوره والذي اعتدنا أن نراه للسيدة هرموزا . وهذا يعني أنه من المستحيل الآن معرفة الدوقة من شقيقتها .

فوافق سوريانتس قائلا :

— لقد أحسنت صنعا بتنيبيهي .

وأضاف يقول :

— وكيف اتفق أن جولين الضاحكة أبدأ تستطيع أن تكسب وجهها طابع الرصانة والجدية ؟

فقال بنياكل :

— لا أعلم يا مولاي كيف اتفق ذلك ، ولكنني أعلم أن حضرة الدوقة تستطيع أن تظهر رصانة هائلة عندما تريد .

وخفض من صوته وقال وكأنما يخاطب نفسه :

— كما أن الآنسة هرموزا تستطيع عندما تريد أن تظهر ضاحكة مرحة كحضرة الدوقة ! وعندئذ كيف أعرف من هي ...

فقاطعه الدوق قائلا :

— ماذا ؟ ألا تزال تبحث لتعرف من هي السيدة ؟ ما أشد عنادك !

ثم أضاف بلهجة من يشبع فضول ولد عنيد فقال :

— إنني ، مثلك تماما ، أجهل من هي السيدة ، وقد بحثت عن

ذلك طيلة سنوات وسنوات فذهبت جهودي عبثا مع العلم بأن وضعي يخولني أن أنجح أكثر منك . فكيف تريد إذن أن تعلم

أنت ما لم أعلمه أنا ؟

وكأنما زاد تأثره فأردف بقول :

— إنني لم أعلم ، أسمع يا بنياكل ؟ لم أعلم ولم أتقدم في هذا الشأن عما كنت عليه في اليوم الأول . فتارة أقول إنها جولين وأقسم على ذلك مقابل رأسي ! وطورا أقول ، بالحماس والأقسام نفسها ، إنها هرموزا .

فغمغم بنياكل قائلا بصوت خفيض :

— مثلي ، مثلي !

— نعم ، مثلك تماما . إن التي ندعوها السيدة ، وهي ذات

المطامع الكبيرة التي دفعتنا كلينا الى الجريمة ، قد تكون زوجتي وقد تكون شقيقتها ... وأنا أجهل ذلك تماما . وقد أقلعت عن البحث خوفاً من أن أفقد صوابي . نعم ، وأقسم على خلاص نفسي أنني أفضل أن لا أعلم ويحسّن بك أن تفعل مثلي وتقلع عن البحث . هذا ما قلته لنفسي وقد كفتت عن البحث ولكنني أنسى

أحيانا ...

وكان بنياكل صادقا في قوله هذا ، فلاحت على شفهي اللدوق

دي سوريانتس ابتسامة ساخرة وقال بلهجة قاطعة :

— لنُدع ذلك فإننا نضيع وقتنا ، ولنعد الى الآنسة دور

بيريف .

ثم حدّق في وجه بنياكل وأردف قائلا :

— إنك رأيت تلك الفتاة ، رأيتها جيدا أليس كذلك ؟

— إنني أفهمك يا مولاي . نعم رأيتها جيدا ودرست ملاحظها

بانتباه، وأؤكد لك أن السيدة مخطئة فإن رولاند دي مونكاييه
ليست في عالم الأحياء .

فأعلن سورياتنس قائلاً :

— أنا أتق بك وقد صدقتك . وإذا كان الأمر كما تقول فمن
الخطأ الفظيع أن تقتل تلك الفتاة وأنا أخشى أن ترتكب السيدة
ذلك الخطأ .

— وهل تنسى يا مولاي أن شقيقة السيدة تسهر على الفتاة ،
وأنا لن تدعها تفعل ؟

فنامته سورياتنس لحظةً بدهشة كبيرة ثم ترك التمثيل وصاح
قائلاً :

— أيمكن أن تكون قد أسأت معرفة السيدة الى هذا الحد ؟
ثم خفض من صوته وأردف يقول باقتناع كلي :

— إذا أرادت السيدة أن تضرب فإنها، عندما تريد وكما تريد
وفي اللحظة التي تحددها ، تضرب دون أن تستطيع قوة بشرية
أن توقفها . أتقول أختها !؟ ... ولكنها لا ترين كثيراً بين
يديها ... أختها المسكينه ! وإذا لم تضرب الى الآن فليس لأن
أختها تراها كما تعتقد... بل لأنها لم تعد ترى بعد ضرورة لذلك !
وتابع قائلاً :

— إن أختها ستضايقها دون شك ، ولكنها لن تمنعها من تنفيذ
ما تقرره . ولنعد الآن الى موضوع حديثي ، فإذا قررت
السيدة قتل تلك الصغيرة فإنها ستكلمتك بذلك دون شك ،
وعندئذ يجب عليك أن تفهمها أن فعلها حماقة غير جدية بذكائها.

— وإذا أكدت لي أنها حقاً رولاند دي مونكاييه ؟

فقال الدوق بحمده ظاهرة :

— عندئذ يختلف الأمر ، فإن السيدة لا تؤكد أبداً إلا
عندما تكون واثقة تماماً. وفي تلك الحالة يجب تنفيذ أمرها دون
أي تردد .

وشفع الدوق كلامه بحركة هائلة جاءت تتممة الحكم بالموت على
ريون دور .

فقال بنياكل بلا مبالاة رهيبة :

— حسناً يا مولاي .

فسكت الدوق لحظة قصيرة وعاد يقول :

— إن العدو الرهيب حقاً في هذه القضية هو راكستان
الذي يستخدم تلك الفتاة كأداة للوصول الى هدف لا يخفى على
الليبيب . وعندما أفكر في أن دي كيز كان يمسه وأنه تركه
يفر...

وضرب الطاولة بقبضة يده وانفجر غضبه يفضح كثيراً من
شعوره الحقيقي فقال بصوت يتهدج من الإنفعال :

— إن مثل تلك الأمور لا يقع إلا للدوق دي كيز ! يا
للشيطان ! وتشاء الظروف أن يحلم ذلك المتطرف البارع فقط
في مغازلة النساء بإبدال تاج الدوقية بتاج ملكي ! ... ويشاء
القدر أن يدفع الشعب ذلك المتعجرف الى سدة الملك ! ...
ولكن صبراً فأنا هنا ... ويجب أن يحسب حسابي عندما أقرر
أن اللحظة الحاسمة قد أتت .

ثم هدأ فجأة كأن شيئاً لم يكن وتابع إعطاء أوامره قائلاً:
- يجب أن تقول للسيدة إن راكستان هو الذي عليها أن
تهتم به قبل أي إنسان آخر وقبل كل شيء .
فقال بنياكل :

- إن السيدة فكرت فيه وقد أرسلت في أوره ، بناء على
أمرها ، أحد رجالي وسوف نعلم أين نجده قبل مضي وقت
طويل .

فقال سوريانتس بإعجاب ظاهر :

- هكذا إذن ! لقد توقعت السيدة نجاة راكستان كما
توقعت تدخله ! وكو عاد الأمر لها لما تركته يخرج حيناً من
قصر دي كيز . يا لله ! إننا لسنا سوى تلامذة الى جانبها !
ونض فجأة وأخذ يتمشى بعصية ، ثم تجهم وجهه وبدأ
أنه محطّم القوى ، وكان يشي ويعيد كلامه قائلاً :

- نعم ، إننا تلامذة الى جانبها ! ... ونحن أيضاً لا نزن
كثيراً بين يديها ... وفي اليوم الذي ترى فيه أن مصلحتها تقضي
بالتخلص منا ... إن ذلك اليوم الرهيب يقترّب بالنسبة إليّ على
الأقلّ ...

وكان بنياكل يتأمله بفضول وقلق بينما كان هو يراقبه من طرف
خفيّ كأنما يريد أن يسأله عن أمر خطير لا يجروّ على الإفصاح
عنه ... وفجأة استعلم قائلاً :

- هل اكتشفت ذلك السائل العجيب الذي طلبته منك ؟
فأجاب بنياكل :

- الدواء العام ضد السموم ؟ إنني أتابع أبحاثي يا مولاي
وأعتقد أنني في الطريق القويم .

فقال سوريانتس لاهتاً :

- أعتقد أنك تنجح قريباً ؟

- قريباً ، نعم يا مولاي . أي بعد عام أو عامين .

فانتفض سوريانتس قائلاً :

- عامان ؟! أتطلب مني أن أنتظر عامين ؟

ثم أعرب عن فكرته رغماً عنه فقال :

- ولكن ألا تعلم أيها الغبي أنني قد أموت خلال أسابيع ...

وربما خلال أيام ؟!

- ولماذا يا مولاي ؟ إنك مملوء صحة ونشاطاً ، فضلاً عن أنك

لا يزال في عنفوان ...

فقاطعه سوريانتس بجدّة :

- ليست القضية قضية صحي ولكنني أخشى أن تقتلني

السيدة ... أظنك بدأت تفهم ، أليس كذلك ؟

- أظن أنك مخطيء يا مولاي ، فإن السيدة ليس لها أية

مصلحة في التخلص منك .

وكانا يتكلمان بصوت خفيض وقد شحب وجهاهما وعراهما

اضطرات شديد . والغريب في الأمر أنها كانا ، مع ذلك ، يريان

طبيعياً جداً أن تتخلص تلك المرأة الرهيبية منها عندما لا تعود

بحاجة الى خدماتها .

فقال النوق :

- وأنا أقول لك إنني أصبحت أضايقها الآن وإنها قد حكمت عليّ بالموت . وسوف تطلب منك خلال بضعة أيام ، وربما اليوم ، أن تجرب فيّ مفعول ذلك السمّ الذي أعدده لهزري الثالث . وسكت لحظة ثم أضاف يقول بلهجة الملشكك :
- ربما تكون قد فعلت ذلك .

فقال بنياكل :

- أقسم لك يا مولاي أنها لم تطلب مني شيئاً إلى الآن . وفهم سوريانتس أنه صادق في قوله فتنهّد ارتياحاً وقال بهدوء ظاهري :

- سوف تفعل ذلك خلال وقت قريب ، وأنا لا أطلب منك أن تعصى أمرها فإني أعلم جيداً أنك لا تستطيع العصيان إلا إذا كنت تريد أن تحطّمك أنت أيضاً .

فأطرق بنياكل ولبث صامتاً . فقال سوريانتس ببساطة :

- لنقلع عن الكلام في هذا الموضوع . وأطرق برأسه هنيئة وكان يبدو عليه أنه يسلم بما قد در له ، ثم رفع رأسه وقال :

- لقد حان الوقت لأظهر لك ثقتي بك باطلاعك على مشاريع لا يعرفها سوى جلالة ملكي فيليب الثاني ملك إسبانيا . وسرتى إلى أي هدف عظيم تمتدّ مطامعي إذ أن لي ، أنا أيضاً ، مطامع سرية .

وبعد أن قال الدوق ذلك نهض بهدوء وذهب إلى البابين الموجودين في القاعة فأقفلها ودفع المزلاجين ، وعاد بعد ذلك

إلى خزانة من خشب الأبنوس ففتح درجاً سرّياً فيها وأخرج ورقة مخنومة بشعارات إسبانيا ، ثم عاد إلى مقعده فجلس ووضع الورقة على الطاولة أمام بنياكل وقال له بصوت رصين أمر :

- إقرأ .

فأطاع بنياكل وتناول الورقة وفتحها . وما إن صافحت عيناه سطورها الأولى حتى بدأت ترتجف في يده . ولما انتهى من قراءتها سقطت على الطاولة دون أن يدري لشدة ما عراه من الاضطراب ، وقد نهض بسرعة كبيرة وانحنى أمام سوريانتس ولبث واقفاً وهو يغمغم قائلاً باحترام عميق :

- إنني أحلم دون شك ! ... ماذا ؟ أعلّنتك جرؤت على أن تحلم ذلك الحلم الأسطوري ؟ ! وساعدتك الظروف في تحقيقه ؟ .. يا لله ! وهل هذا ممكن ؟ ! مملكة فرنسا العظيمة ... القوية ... تحت حماية إسبانيا ! ... وأنت يا مولاي نائب ملك فرنسا ! ... ولك من السلطة والتفوذ ما للملك نفسه !
- إنك لا تحلم وقد قرأت وفهمت جيداً .

وترك لبنياكل الوقت الكافي ليعود إلى نفسه ، ثم أوضح قائلاً :
- إنك فهمت تماماً مضمون الورقة ، فإن القضية قضية حماية وليست ضمّ فرنسا إلى إسبانيا . سوف تبقى هذه البلاد متمتعة باستقلالها وسيكون ملكها ووزراؤها ومستشاروها وموظفوها جميعهم فرنسيين ولن يتدخل إسباني واحد في شؤونها العامة . سيكون نائب الملك هو الأجنبي الوحيد . وكن على يقين من أن شعب باريس عندما يعلم أن ذلك الأجنبي هو أنا .. فإنه سيستقبلني

بالهتاف والترحيب... على شرط أن أظلّ في قيد الحياة الى تلك اللحظة إذ أنه يجب ألا تنسى أن السيدة قد حكمت عليّ بالموت .

- وإذا متّ قبل ذلك يا مولاي ؟

- لن أصبح نائب الملك في تلك الحالة... إلا أنني...

وترك جلته معلقةً هنيهة ثم تابع يقول بإتسامة غامضة :

- إلا أنني قد اتخذت احتياطاتي، أي أن دي كيز سيموت

قبل أن يصبح ملكاً ، وهذا يعني أن السيدة لن تكون ملكة ، وأنت لن تكون وزيراً .

فقال بنياكل دون أن يطرف له جفن :

- لقد فهمت . ولكن من الممكن أنك تخطيء يا مولاي وأن

السيدة لن تعطيني أبداً أمراً بقتلك .

- هذا ممكن وإن كنت لا اعتقد به . وعند ذلك يصبح

دي كيز ملكاً والسيدة ملكة وتصبح أنت وزيراً ، إنفا...
- إنفا ؟

- أنا أعرف دي كيز كما أعرف السيدة ، وأعترف بكل

صراحة بأن السيدة أقوى مني ولكنها ذات مطامع تفوق

مطامعي ، فضلاً عن أنها امرأة ، أي أنها لا تعرف القناعة بل

ستظلّ تهدف دائماً الى الصعود وسوف تُرغم دي كيز - عندما

يصبح ملكاً - على أن يجارها في أهواها . وعندئذٍ تقصد الأمور

بسرعة... فأتدخّل أنا ويُنقض على دي كيز . وبذلك لن تبقى

السيدة ملكة ، كما أنك أنت لن تبقى وزيراً . وعند ذلك أحلّ

أنا محلّ دي كيز مكتفياً بلقب نائب الملك المتواضع .

وشعر بنياكل بأحلامه تنهار فأطرق برأسه والغصّة تخنقه .

فابتسم سوريانتس وقال ببرودة :

- إن الضربة قاسية بالنسبة لك على ما أظنّ !

ثم تأمّله لحظة بصمت وعاد يقول بلهجة المشفق المهتقر :

- ولكنني أريد أن أفعل شيئاً لأجلك مقابل الخدمات التي

أديتها لي وسأدلك على الطريقة التي أصبح بها وزيراً وتبقى في

مركزك حتى ولو - قلت أنا - دي كيز .

فصاح بنياكل قائلاً :

- إنني خادمك المطيع يا مولاي فمرني بما تريد حتى ولو

بالنضال ضد السيدة .

فابتسم سوريانتس وقال ببرودة هائلة :

- إن هذا شأنك... وكل ما يهمني أنا هو أن أظلّ في قيد

الحياة ، أسمع يا بنياكل ؟ أنا لا أريد أن تقتلني السيدة كما قتلت

الأستاذ لوران ديزارشيل والأمير دي مونكاييه والأميرة رولاند ،

وكما ستقتل الآنسة دور بيريف وراكستان والدوقة دي كيز

وهنري الثالث والدوق دي كيز وآخرين أيضاً ، وكل الذين

يقفون عقبة في طريق مطامعها الجساحة . أريد أن أعيش...

وخاصة في هذا الظرف الذي أكاد أبلغ فيه ما تصبو إليه نفسي .

ولذلك أقول لك إذا كنت تريد أن تكون وزيراً فأنا الوحيد

الذي أستطيع أن أنيلك تلك الأمنية على شرط أن أظلّ حياً .

فتصرّف بطريقة تمنع السيدة عن قتلي .

وكان بنياكل قد علم تماماً الى أين سيصل الدوق بكلامه فقال

بحزم :

— لقد فهمت تماماً يا مولاي ما تعنيه وأنا مستعدة للنضال ضد السيدة وسوف أكون مسؤولاً عن حياتك على شرط أن تجعلني وزيراً .

فدّت سوريانتس يده نحو الطاولة وأخذ ورقة فكتب عليها بضعة أسطر ثم عرضها على أنظار بنياكل وهو يقول :

— هوذا أمر تعيينك .

ثم نهض وذهب الى الخزانة ففتح الدرج السري ووضع أمر التعيين مع الورقة المختومة بشعارات إسبانيا التي ستجعل منه نائباً للملك فرنسا ... وعاد يقول :

— عندما ينادي بي شعب باريس نائباً للملك فرنسا ، عد إليّ يا حضرة الوزير واطلب مني ذلك الأمر الذي ينتظرك في الدرج .
ثم صرفه بإشارة ملكية قائلا :

— إذهب .

فانحنى بنياكل أمامه كما ينحني أمام هنري الثالث وخرج مترجعاً .

فتابعه سوريانتس بأنظاره الى أن أغلق الباب عليه ، وعندئذ تنهّد تنهدة ارتياح وغمغم قائلاً :

— عندما أصبح السيد المطلق ، وبعد أن يؤمّن لي بتياكل حياتي ويخلصني نهائياً من السيدة ، فعندئذ سيأتي دوره ... إن سوريانتس نائب ملك فرنسا ... لن يرتكب أبداً غلطة الإبقاء على حياة رجل مثل بنياكل يعرف ماضيه الرهيب ... كما يعرفه

هذا الرجل !

ثم جعل يتمشى ببطء وهو سامح حالم وكان يقول في نفسه بكبرياء :

— « نائب ملك يعني ملكاً تقريباً ! ... وماذا يجب ليصبح ملكاً ؟ حذف مقطعين صغيرين فقط ... صبراً ... صبراً ... وعندما يتأمّن نفوذي تماماً ... سوف أفكر في تقصير لقي ! »

شارع ترياندرى

*

اجتاز راكستان وميلورد جندارم وماراسكين شارع «براك» بسرعة البرق وقطعوا شارع التامبل الكبير ببضع وثبات ثم دخلوا شارع ميشال لو كونت . وهناك خففتوا من سرعة عدوهم لأنهم لم يعودوا يستطيعون الركن على تلك الصورة ، وأخذوا سيوفهم وخناجرهم وساروا يقصدون شارع ترياندرى .

وكان جنود دي كيز قد فقدوا أثرهم فعادوا الى القصر ، ولكن الرجل الذي كان يتعقبهم بأمر بنياكل لبث سائراً وراءهم وهو لا يدعهم يغيبون عن نظره لحظة واحدة .

وكان الرفاق الثلاثة يقصدون مسكنهم في تلك اللحظة وقد أحسوا بألم الجراح التي كانت تكسو أجسامهم بشكل رهيب ، فضلاً عن أن الدماء التي فقدوها جعلتهم يشعرون بالضعف والخوار . ووصلوا الى شارع ترياندرى وكانوا على بضع خطوات من مسكنهم عندما شعر راكستان بأن هنالك من يتبعهم . وتأكّد

لديه أن الذين يتبعونهم يريدون أن يعرفوا منزلهم لسبب محبه ،
فقرّر أن لا يدخل البيت ونبه رفاقه فتخطّوا المنزل وساروا
مع وجههم في الشارع .

ولكنهم لم يذهبوا بعيداً ، فعند وصولهم الى أمام منزل
العجوز لابواس سقط راكستان على الحضيض مفضياً عليه . ولم
تكن إصابات ميلورد جندارم وماراسكين تضاهي إصاباته ،
وكان من الممكن أن يسيرا بضع خطوات أيضاً ، ولكنها
عندما رآها سيدهما غائبا عن الرشد خارت قواهما فرقدا قربه
بطريقة جعلها من جسديها واقياً لجسده وغابا عن الرشد
بدورها .

فاجتمع فوراً على الرجال الثلاثة جمهور كبير من الفضوليين .
وقالت إحدى المعجائز وقد أعجبتها هيئة راكستان :
- يجب رفعهم وإيواؤهم في أحد المنازل وتقديم العناية اللازمة
لهم . يا لله ! إننا لا نستطيع أن ندع مسيحين مثلهم يموتون
هكذا في الشارع .

وعندئذ وصلت المعجائز الأربع كورج وتوماس ويونيون
وبينيات ، ولما عرفن في راكستان ذلك السيد الذي هدّهن
بقطع ألسنتهن وإلقائها للكلاب ، وعرفن في ميلورد جندارم
وماراسكين اللذين كانا يرافقانه ، انفجر حقدن فأخذن يجرّسن
الجمهور على قتلهم . والله أعلم ما كان يؤول إليه مصير الرفاق
الثلاثة لو لم تأتهم في تلك اللحظة نجدة غير متوقّعة بأشخاص
الفتيات الجميلات الثلاث : سافير وموسكاد وبرغاموت .

ولم يكن وحدهن ، بل كان مع موسكاد خطيبها جيهان جيهان
حفّار القبور في تربة الأبرياء . وقد تدخلت الفتيات الشجاعات
فأطلعن الجمهور على حقيقة المعجائز اللعينات ، ولم تكف برغاموت
بذلك بل هجعت عليهن بحقنة الوجه مهدّدة متوّعدة ، فهربن
وتقلقلن بين الحاضرين .

وعندئذ تشاورت برغاموت ورفيقتها بالنظر فقرّرن أن
ينقلن الجرحى الثلاثة الى منزل لابواس حيث يقدّم من لهم العناية
اللازمة التي تستوجبها حالتهم ويحتفظن بهم الى أن يشفوا من
جراحهم .

وفي اللحظة التي بدأن فيها تنفيذ ما قرّرن وصل ترومبافيور
- الذي عرفناه في سابق الكلام مطيعاً لأوامر القوادة لابواس -
وتابعه سبارتيموسكا وعرقا فوراً الجرحى الثلاثة فانفجر حقدما ،
وكان ترومبافيور يحقد على راكستان لأنه ضربه ضرباً مبرحاً
أمام حانة تروي فيديل ، بينما كان سبارتيموسكا يحقد على
ميلورد جنسدارم لأن يده اصطدمت بوجهه في ساحة غريف
وحطّمت له ضرسين من أضراسه .

وقد قال سبارتيموسكا لرفيقه :

- يجب أن نستل أمعاهم هذه المرة .

فرفع ترومبافيور قبضته الهائلة وزجر قائلاً :

- يجب أن أنهي أمر عدوّي بهذه القبضة !

وكاد يضع كلامه موضع التنفيذ ، ولكن سبارتيموسكا كان
حذراً فقال له :

- على مهلك ولا تتصرف بجحافة فإنك إن فعلت ذلك الآن يطبق علينا الجمهور وهيئات أن تنجو من غضبه .

وفي تلك اللحظة عنها رأيها الفتيات الثلاث قتلن لها :

- هيتا وساعدانا على نقلهم الى منزلنا .

فنبت سبارتيموسكا رفيقه بضربة من كوعه وهمس في أذنه قائلاً :

- عندهن ... أي عند لابواس ! وأي فرق بين منزل

لابواس ومنزلنا ؟

فهم ترومباقيور كلام رفيقه فتنهد ارتياحاً وهو يقول في

نفسه : « إن السيد المين قد أصبح تحت رحمتي ! »

وأسرع الرفيقان يساعدان الفتيات في نقل الجرحى . فحملت

برغاموت وسافيرا اركستان ، وحملت موسكاد وخطيبها ماراسكين ،

وتعهد ترومباقيور وسبارتيموسكا بنقل ميلاورد جندارم الذي

كان أثقل الثلاثة وزناً .

ومن عجائب الصدف أن ترومباقيور رفع فجأة ذراع

ميلاورد جندارم في اللحظة التي كان فيها رفيقه ينحني ليرفع رجله

فارتطمت يد العملاق بوجه سبارتيموسكا فسقط على ظهره وسط

قهقهات الحاضرين وسخريتهم .

فنبض وقال بغضب :

- إن هذا السخيف الوقح لا يكف عن إبدائي حتى وهو

غائب عن الصواب ! ... ولكن صبراً ، فإذا نجوت من الموت

أيها الشقي فأقسم بالعذراء أنك لن تنجو مني !

وعندما رأت لابواس الجرحى الثلاثة في منزلها غضبت غضباً شديداً وصاحت قائلة :

- ماذا ؟! أتريدون أن تجعلوا من بيتي مستشفى؟ أخرجوهم

الى الشارع فوراً فإنني لا أريدهم عندي .

فقال برغاموت ببرودة :

- إسمعي يا لابواس ، إننا نأخذهم الى مكان آخر إذا كنت

تريدين ...

فقاطعتها المعجوز قائلة :

- خذهم الى الشيطان .

فقال برغاموت بالبرودة نفسها :

- ولكننا سبقي معهم ولن نعود الى منزلك أبداً .

ففعل تهديد الفتاة فعلة في نفس المعجوز ، فضلاً عن أن

ترومباقيور كان قد تحيّن فرصة وهمس في أذنها ببضع كلمات

فلطقت من تصلبها وقبلت . فنقل الجرحى الثلاثة الى الطابق

الأول حيث 'مدوا على أسرة الفتيات . وانسحب ترومباقيور

وسبارتيموسكا على الأوتار كين جيهان جييهين مع الغائيات الثلاث .

وكان خطيب موسكاد على إمام ببعض قواعد الطب فأخذ على

عاتقه أمر العناية بالجرحى . وبدأ فوراً يفحص جراحهم بينما كانت

الفتيات الثلاث يهتسن الضادات والمطهرات وما إليها . ولما

نزع جيهان ثياب راكستان بدا الفارس مكسواً بالدم من قبة

رأسه الى أخمص قدميه ، فضلاً عن أن الجراح التي في جسده لم تكن

محصى ، فقال بعجب شديد :

- ليساعدني أسكليبيوس الإلهي فان هذا ليس جسداً بشرياً!
وبعد أن عاب الجراح طمان الفتيات بقوله :
- أقسم بالقدستين بوليمني وكاليوب شفيعتي ، أنها أعجوبة
حقاً أن لا يكون أحد هذه الجراح ميمتاً ، فهي كلها خدوش
وإن تكن مؤلمة إلا أنها بسيطة . وخلال بضعة أيام لن يبقى منها
شيء . فلنرَ الآخرين .

ولم تكن إصابات الرقيقين أخطر من إصابات الفارس ، فغسل
جيهان جراح الرجال الثلاثة وضمتها ثم ذهب الى طبيب فأتى
ببعض المراهم والأدوية . وكانت الفتيات الثلاث يثقن بعلمه
فاطمأنت خواطرنَ وأعلنت برغاموت قائلة :

- بما أن الصدفة قد وضعت هذا في سريري فانه سيكون
مريض الذي لن أتركه لا ليل ولا نهار الى أن يؤكد لي
سيدي العلامة جيهان جيهان أنه لنجا من الخطر .
وكان هذا هو ميلورد جندارم .

وقالت سافير وهي تجلس قرب رأس سرير ماراسكين :
- وأنا أفعل فعلك نفسه لأجل مريض .

وقالت موسكاد :

- وأنا أفعل فعلكما لأجل هذا النبيل الشجاع !
وبدأت الفتيات الثلاث الطبيات يمتنين بمرضاهن باخلاص
وقتان بوزن بها أعظم راهبات البر والإحسان .

أما الرجل الذي كان يقفني أو الفارس ورفيقه بناءً على
أمر بنياكل فانه لبث يتبعهم خطوة خطوة ولم يتركهم إلا بعد

أن رآهم يُحتمون الى منزل لابواس . وعندئذ حفظ عنوان
المنزل جيداً في ذاكرته وذهب الى قصر سوريانوس حيث رفع
تقريره الى بنياكل الذي كان ينتظره بفارغ صبر ، إذ أنه كان
يجب عليه أن يعود الى اللوفر ، الى خدمة ملك فرنسا على ما علمنا .

عند الفتيات الثلاث

*

وفي اليوم التالي تحسنت أحوال راكستان وماراسكين
وميلورد جندارم بفضل عناية جيهان جيهان وفعل أدويته ، ومن
جهة ثانية لأن بنية الجرحى الثلاثة القوية انتصرت على الضعف
والخطر .

وكان راكستان قلقاً من ناحية ريون دور يريد أن يذهب
للبحث عنها ، فشكر جيهان والفتيات الثلاث من كل قلبه وألح الى
فكرته بهدوء وبرودة ، فابتسم جيهان جيهان ولم يظهر أية
معارضة بل قال بكل بساطة :

- حاول أن تنهض يا سيدي .

وحاول راكستان فعلاً ، ولكنه صاح صيحة ألم عند أول
حركة قام بها وقال بغضب :

- يا للشيطان ! وهل سأظل وقتاً طويلاً مستمراً في هذا
السرير ؟

فقال جيهان جيهان بإتسامته اللطيفة الحزينة :

- ثمانية أيام على الأقل يا سيدي النبيل .
ورأى الفارس يأتي بحركة تدل على الانزعاج فأردف قائلاً :
- أقسم بأبولون ابن جوبيتر ولا تون أنه يجب أن تكون
سيداً جداً بهذه النتيجة .
فصاح راكستان قائلاً بيأس :
- ثمانية أيام ؟ !
وأردف بقول بصوت مؤثر :
- وماذا يحلّ بتلك التي أحبها خلال هذه المدة الطويلة ؟
فقالا الفتيات الثلاث مشقات :
- يا للأميرة الصغيرة المسكينة !
فأعلن راكستان قائلاً بعزم :
- يجب أن أبدأ البحث عنها بعد ثلاثة أو أربعة أيام على
الأكثر ، وأرجو أن تشفق عليّ السماء فلا أصل متأخراً .
فتأثر جيهان جييهان من كلامه ووعده بأنه سيفعل المستحيل
ليحقق رغبته . فلم يهدئ ذلك الوعد راكستان إلا نصف
تهدة ، ولكنه صبر على الضيق والحر على الفتيات الثلاث بأن يأخذن
لأنفسهن بعض الراحة ، فرفضن ، فقال لهن :
- إذهبن على الأقل في نزهة تروح عن أنفسكن فان فتيات
جيميلات مثلكن هن كالزهرات التي تذبل وتموت إن لم تتمتع
بأشعة الشمس ودغدغات النسيم اللطيف .
فأطاعت الفتيات أخيراً وذهبن برفقة جيهان جييهان الذي كان
يسك بيد موسكاد ويتأملتها بعبادة وخشوع . وعندما خرجوا

الى الشارع قال جيهان بلطف وظرف :
- إذا أردتنّ يا آنساتي فسأخذكنّ لزيارة قبور الأبرياء فانها
زيارة مشرفة رائعة وسأقرأ وأشرح لكنّ ما كتب على تلك
القبور وهو جميل جداً وایم الحق .
وبينما كان جيهان جييهان يتوجّه مع رفيقاته نحو تربة الأبرياء
كان ترومبا فيور وسبارتيموسكا في منزلها يتحدّثان بشأن راكستان
وينتقيان الميتة التي سيحرقها إياها .
وقد خرجا من المنزل دون أن يقررا شيئاً وسارا نحو منزل
لابواس . ولما اقتربا منه قال سبارتيموسكا قلقاً :
- هل وجدت الوسيلة التي ستختصص بها من راكستان ؟
فقال ترومبا فيور بحقد هائل :
- نعم .
ثم وقف وشمر عن ساعده المقتول الضخم الذي ينتهي بقبضة
هائلة وقال :
- سوف أقتله بهذه المطرقة ... وسأظلّ أضرب رأسه حتى
أحطم دماغه .
وكادا يدخلان منزل المعجوز . وفي تلك اللحظة وقف بينها
شبح ملتفّ يعطف رمادي وهو يمدّ نحو كل منها يداً تحمل
صرة منتفخة ويقول :
- خذا .
فدأ يدين خشكتين مكسوتين بالشعر ، واختفت الصرستان
للعال ... ورأيا أنها في حضرة امرأة ، ولكنها لم يلقيا بالآ الى

ذلك فما دامت قد اشرت حق الامر فعليها الطاعة ، فضلا عن
أن هيئة تلك المرأة كانت جديرة باحترامها ، فرعما قبعتها وانحنيا
انحناء عميقاً ولبثا ينتظران .
فسالت المرأة ترومباقيور قائلة :
- ما اسمك ؟

وكانت لهجتها مقتضبة باردة توحى بالخضوع ، ففهم ترومباقيور
أنها معتادة على إعطاء الأوامر ، فأجاب قائلاً :

- ماذا ؟ ! وهل يمكن أنك لم تسمعي من يتكلم عن
ترومباقيور الذي لا يوجد اسم يفوق اسمه شهرة في عالم المشردين ؟
واغتاض سبارتيموسكا لأنها لم تسأله شيئاً فالتقى الى ما حوله
نظرات هائلة وقتل شاربيه الكبيرين الأسودين وقال :

- إن حضرة السيدة العظيمة لا تعشى على ما يظهر مجتمعنا
المرموق وإلا لسمعت باسم ترومباقيور الشهير واسم الذي لا
يقال عنه شهرة سبارتيموسكا رفيقه وصديقه ، ونحن في خدمتك
يا سيدي .

فأصغت إليها دون أن تنبس بكلمة أو تأتي بمجرىة وكانت
هادئة باردة لا يسبر غورها . ولما انتهيا من كلامها تطلعت فيها
بنظرة نارية وقالت :

- أريد أن أرى راكستان الذي كنتا تتحدثان عنه وأكلمته ،
فهل يقيم في هذا البيت ؟

فقطب ترومباقيور حاجبيه وزجر قائلاً :
- إنهم حملوه الى هنا فعلاً .

- قفا أمام هذا الباب ولا تدع أحداً يدخل طالما أنة في البيت .
وعندما أخرج سأقول لكما إذا كان يجب أن تقتلا الرجل أو لا .
وكونا مطمئنين ، ففي كلا الحالتين ستلاقان مكافأة ملكية .

ثم فتحت الباب وهي واثقة تماماً من أنها سيطيعان أمرها
ودخلت وأغلقت في وجهها . فلبثا على العتبة ينظر كل منهما الى
الآخر بدهشة ، وقال سبارتيموسكا مذهولاً :

- يا للجنة ! لا بد أن تكون ، على الأقل ، دوفة متكرة
لكي تتجرأ وتكلمنا بتلك اللهجة !
فاعترف ترومباقيور قائلاً :

- لم تؤثر علي امرأة مثلاً أثرت هذه علي .
ولبت الإثنين أمام الباب وقد عزمنا على أن لا يدعا أحداً
يقرب منه .

أما المرأة التي دخلت المنزل فانها وضعت في يد لابواس بعض
القطع الذهبية وقالت بلمهبتها الامرارة الباردة :
- أريد أن أتكلم مع أحد جرحاك .

فذهلت المعجوز من ذلك الكرم الملوكي وانحنى في أجمل
تحية ثم قادت المرأة فوراً الى الطابق الأول . ولما وصلت الى
قرص الدرج أشارت الى أحد الأبواب وقالت :

- إنهم هنا كلهم .
ولبثت مكانها واستبد بها الفضول ، فاستدارت المرأة نحوها
وأشارت الى الدرج وقالت بلمهبتها الامرارة المعهودة :
- إذهبي .

فها لايواس ما رأته من مظاهر تلك المرأة الغامضة وامتلكت صاغرة .

ورأى راكستان ذلك الشبح الرمادي ينتصب عند رأس سريره فلم يُظهر أية دهشة . وفهم فوراً أن أمامه إحدى المرأتين اللتين اتهمتا أمام الدوق دي كيز ، وتؤكد له أنها المرأة نفسها التي أعطت بومبيينان الأمر بقتله ، ولكنه لم يعلم ما إذا كانت الدوقة دي سوريانتس أو شقيقتها هرموزا ، فسألها فوراً قائلاً بصوت قاسٍ :

من أنت ؟

فخلعت قلنسوتها بجرحة بطيئة متناهية في اللطف وهي تقول ببساطة :

— أنظر بنفسك .

ورأى الفارس وجهاً رصيناً جامداً كما رأى في أحد أصابع اليد التي خلعت القلنسوة خائفاً ذا ياقوتة كبيرة حمراء ، فابتسم قائلاً :

— لقد نظرت ، ولكنني لا أستطيع أن أقول ما إذا كنتِ حضرة الدوقة دي سوريانتس أو شقيقتها السيدة دليّة دي هوتقور ... ولذلك أتشرف بأن أعيد عليك سؤالي : « من أنت يا سيدتي ؟ »

— إبحث بنفسك .

فقال راكستان بلهجة جليدية :

— ليكن ، سوف أبحث ... وأجد الحقيقة .

فقالت بلهجة ساخرة :

— أشكّ في ذلك .

— لماذا ؟

فلم تجب على السؤال بل طرقت رأساً الموضوع الذي أنت من أجله فقلت :

— أها السيد ، لقد تفوّت بحقنا باتّهامات شائنة أمام الرأي العام ولا أظنك تعجب لأن أكون قد جئت أسألك بعض الإيضاحات في هذا الشأن .

فقال راكستان بأدب وكياسة :

— إن الذي يثير عجبى يا سيدتي هو أنك أتيت بنفسك تطلبين هذه الإيضاحات وليس السيد دي سوريانتس .

— دع السيد دي سوريانتس وشأنه فإنه إن لم ياتِ فلأن لا علاقة له بهذه القضية .

فقال راكستان متعجباً :

— إذن فاعذريني يا سيدتي وتفضلي بإطلاعي على ما تريدن مني .

— أريد أن أعرف البراهين التي استندت إليها في اتّهاماتك .

— ولكنني يا سيدتي لا أملك أيّ برهان .

فتأملته هنيهة بنظرة عميقة كأنما تقرأ في نفسه . ولما رأت الصراحة تتفجّر من قلماته قالت يهدوء :

— إذن لقد اتّهمتنا تلك الإتهامات الخطيرة دون أيّ برهان ؟

— يا لله ! نعم يا سيدتي ، لقد فعلت ذلك دون أيّ برهان .

- أي أنك وصفتنا بصفات اللصوص والقتلة دون أن تتأكد
ودون أن تعلم ودون أن يكون لديك أي برهان ؟

فقال راكستان باللهجة الجليدية نفسها :

- أنا لا أنفي أن الكلمات كانت قاسية ، ولكنك توافقين يا
سيدتي على أنها ليست غلطتي إذ جرت العادة على أن ينعث الناس
هكذا كل الذين يستولون على ما لا يملكونه ، ولا يتورعون لأجل
ذلك عن إزاحة الدماء .

وتزايد به التأثر شيئاً فشيئاً فأردف يقول :

- إنني لا أملك براهين... في الوقت الحاضر على الأقل ، أم
بصدد ما تقولين من أنني أتهمتكم دون أن أعلم أو أتأكد ، فانه
أمر آخر إذ أنني أعلم يا سيدتي ، وأنا متأكد تماماً مما أعلمه ،
أنني سبرت غور أنفسكم وعرفت خفاياها ، ولذلك فسوف الأحقكم
دون هدنة أو توائن إلى أن أكشف القناع عن نواياكم الشريرة
وأرغمكم على رد ما اغتصبتموه إلى صاحبه الشرعية .

فقالته بهدوء رهيب :

- أنت تعلن النضال إذن ؟

- نعم يا سيدتي ، هذه هي الكلمة .

- إحذر لنفسك فسوف أحطمك تحطيماً .

- أنا أعلم يقيناً أنني أجابه أعداء أقوياء وقد ضحيت بحياتي
سلفاً... ولكنني لن أقتل بالسهولة التي تظنين .

فقالته بصراحة :

- أنا أعلم أنك مقاتل عنيد لا يصطلي لك بنار .

وكانت تقول ذلك بصدق كلي . وفجأة انحنت عليه وثبتت

في وجهه نظراتها الجميلة وقالت بصوتها الموسيقي الأسر :

- وإذا طلبت منك أن توقع اعترافاً تنقض فيه اتهاماتك

وتختفي مقابل المبلغ الذي تحدده بنفسك ، فهاذا تجيب ؟

فقال راكستان بلهجة ساخرة :

- أجب بأنه اعتراف صريح بالتهم التي وجهتها إليك يا

سيدتي .

- ولماذا لا ؟ فان الحقيقة يجب أن تقال أمام خصم مثلك .

ولكن الموضوع ليس موضوع اعتراف أو إنكار ، إنه عرض

أعيد تقديمه بصيغة واضحة ، ألا وهي : ما هو المبلغ الذي تريده

لتنقض اتهاماتك وتختفي ؟ أجب .

- لن أجب ، لأن الجواب الوحيد الذي أستطيعه في هذه

الحالة لا يمكن أن أقوله لامرأة .

- أهذه هي كلمتك الأخيرة ؟

فتطلع فيها ولم يجب ، فرمقته بنظرة طويلة وقالت بصوتها

اللطيف :

- وداعاً أيها السيد دي راكستان .

ثم اعتمرت بقلنسوتها وفتحت الباب وخرجت .

وكان ماراسكين يتظاهر بالنوم أثناء تلك المحادثة ولا يغفل

لحظة عن مراقبة السيدة . ولما خرجت تحرك بضعف تحت

الأغطية ونبت الفارس قائلاً :

- إحذر لنفسك جيداً يا سيدتي فان تلك المرأة قد نظرت

إليك نظرة مهددة هي حكم صريح بالموت .

فقال راكستان ببرودة :

- لقد رأيتها جيداً .

وأردف يقول بلامبالاة المهودة :

- ولكن الحكم بالموت ليس كل شيء ، بل يجب أيضاً تنفيذ

ذلك الحكم .

وخرجت المرأة الى الشارع فرأت ترومبافيور وسبارتيموسكا
يحرسان الباب بكل انتباه ، فأخذتها الى زاوية خفية وقالت لها
بلهجتها الآمرة :

- لقد كنتا تريدان قتل راكستان ، أليس كذلك ؟ فاقتلاه

أذن .

وأردفت تقول على الأثر :

- ولكن لا تضعف فيكما روح الإنتقام ، فاني أضيف اليكما
المكافأة المادية الغربية وأقول إنني سأدفع لكما أجر قتل الرجل ،
أدفعه ...

وتركت جملتها معلقة لحظة ثم أعلنت قائلة :

- أدفع خمسين ألف ليرة !

فقوس الرجلان أكتافها كأنما أوقرهما عبء المبلغ الباهظ
فهمت من هيئتها أنها لا يتورعان عن قتل نصف أهل باريس
مقابل أقل من نصف ذلك المبلغ ... فابتسمت تحت قلنسوتها
ابتسامة رضى وأعطتها تعليماتها قائلة :

- يجب أن يتم الأمر غداً أو بعد غد على أبعد تقدير ،

وعندئذ ستحضران الى قصر سورباتس وتعطي ، أنت يا

ترومبافيور ، اسمك وتطلب التحدث مع السيد بنياكل ، فتدفع

لكا الخمسون ألف ليرة .

واختفت على أثر تلك الكلمات .

ترومبافيور

★

فلثت فرومبافيور وسبارتيموسكا مكانها مذهولين . وعندما
عادا من دهشتها كانت المرأة قد اختفت ، فصاحا قائلين بصوت
واحد :

- خمسون ألف ليرة !

وكرراً ذكر المبلغ الضخم أولاً وثانياً وثالثاً ليقننما من أنها
ليسا حالمين . وفجأة مدّ كل منهما يده الى صدره فأخرج الصرة
التي وضعها فيه وعدّ محتوياتها فصاح ترومبافيور متعجباً :

- يا لله ! ألفا ليرة !

فقال سبارتيموسكا بدوره :

- وأنا لديّ المبلغ نفسه !

إنها أعجوبة من السماء هي التي وضعت تلك السيدة العظيمة
في طريقنا .

- إنها السيدة العذراء هي التي جعلتنا نصادق تلك السيدة .

وبدأ يريان الآن أن قتل راكستان ليس بالبساطة التي كانا
يتصورانها . وكانا يخشيان أن لا يتمكننا من إتمام المهمة فتضيع

عليها الخمسون ألف ليرة التي كان مجرد التفكير فيها يبلج صدرها
ويكاد يقضي عليها بالوت فرحاً ... فقرراً أن يدبّر طريقة
قتل الفارس بمهارة ودقة ، وشعرا بحاجتها الى التفكير الطويل
لإعادة تلك الطريقة . ولما كالا لا يستطيعان التفكير بصورة
مرضية إلا على المائدة ، فقد صحّ عزمها على الذهاب فوراً الى حانة
« تروي فيديل » وانطلقا يعدوان في اتجاه تلك الحانة فدخلها
وما يضحان ويصيحان ، وطلباً غداء أسطورياً تخفّره زجاجات
كثيرة من أفضل أنواع الخمر ، وقد أخرج كل منها صرته دون
اكتراف ليظهرها لليونارد بانكال صاحبة الحانة أنها يستطيعان
الدفع .

وقضيا بقية ذلك اليوم في الأكل والشرب . وعندما حلّ
المساء كان السكر قد أعمامهما فسدّ الحساب وتدحرجا الى تحت
الطاولة حيث راحا في سبات عميق .

وكانت الشمس قد أشرقت عندما أفاقا في اليوم التالي فلم
يعرفا المكان الذي قضيا الليل فيه لأول وهلة . ولكن الذاكرة
عادت إليهما توّأ فأسرعا يفتشان ثيابهما بحركات تدلّ على القلق
الشديد .

وصحّ ما كالا بخشيانه ... فإن بعض الزبائن الأشرار كانوا قد
اغتنموا فرصة نومهما واستولوا على كل ما كان معهما من المال ولم
يبقَ لهما من الأربعة آلاف ليرة درهم واحد .

وذمبت شتاّتهما ولعناتهما وتهديداتهما أدراج الرياح ، فإن ذلك
كله لم يُعد إليهما ما فقد منهما . فتشاورا هنيهة وعزما على أن

يصبحا من الأغنياء في مساء ذلك اليوم نفسه ثم غادرا الحانة
مطرقين برأسهما مقتاظين لأنهما سمحا للأوباش بأن يسرقوها
هكذا ، وما اللذان كانا معتادين على سرقة الآخرين .

وقرر ترومباقيور أن الوقت قد حان للاهتمام بريح الخمسين
ألف ليرة ، فسار برفقة سبارتيموسكا في اتجاه منزل لابواس ،
ولما وصلا أمامه قبعاً في زاوية ينتظران خروج الفتيات الثلاث
وجيهان جيهين . وطال انتظارهما ، ولكنهما كانا معتادين على مثل
تلك الأعمال فلم يفرغ صبرهما بل لازما مكانهما دون ضجر .

وأخيراً خرج الذين كانا ينتظرانهم فوقفوا هنيهة أمام الباب
يتحدّثون وقد خشى المتشردان أن تكون موسكاد قد رأتهما لأنها
نظرت أكثر من مرة نحو الجهة التي كانا يقبعان فيها ، ولكنهما
سرعان ما أطمأنا عندما رأيا الجمهرة تتفرق ، فذهبت برغاموت
وساوير الى اليمين صوب شارع سان دينيس ، بينما سارت موسكاد
وخطبتها الى اليسار في اتجاه الهال .

فخرج المتشردان من زاويتيها بسرعة وقطعا الشارع يوثبتين .
وفي تلك اللحظة عينها استدارت موسكاد الى الوراء ، والمفروض
أنها لم ترهما لأنها تابعت طريقها ، ولكنها وقفت بعد بضعة
خطوات ونظرت عندئذ الى رجال ثلاثة كانوا يخرجون من مركز
تنفيذ الإعدام ويتوجهون بخطوات بطيئة نحو شارع ترياندرى .
وكان هؤلاء الرجال الثلاثة الذين نظرت إليهم موسكاد وهي
تلتصق بخطبتها بخوف : الجلاد تورنوبز ومساعداه سيمون بيلك
دي لبيفر وميدارد سان دي بوف . وقد قاومت الفتاة رعبها

وجرؤت على أن تتحدث مع الجلاد بضع ثوانٍ .

وفي تلك اللحظة كان ترومبافيور وسبارتيموسكا قد دخلا منزل لابواس فتحدثا قليلا مع العجوز فأعطتهما حبلاً طويلاً متينة ، ثم صعدت بخطوات الذئب الى غرفة الجرحى ولم تلبث أن عادت وقالت لهما :

- لا بأس عليكما فإنهم غارقون في النوم .

فصعد المتشردان الدرج بهدوء وحذر ، وفتحوا باب الفرقة دون ضجة . وكان الجرحى الثلاثة نائمين نوماً عميقاً كما قالت القوادة العجوز ، فدخلا وتقدما منهم فأخذوا سيوفهم وخنابجرهم التي كانت موضوعة قرب أسرمتهم وتحتم متناول أيديهم ، ثم قيدا كلا منهم بسريره بالحبال التي أخذوها من العجوز . وتم ذلك كله بسرعة ومهارة نادرتين . وعندما رأى ترومبافيور أن راكستان قد أصبح تحت رحمة أيقن من أنه لن يفلت منه مهما حدث . وبدلاً من أن يقضي عليه فوراً بطعنة خنجر ، فإنه أراد أن يقتله بقبضة يده كما قرّر في اليوم الفائت ، فأخذ يشمّر عن ساعده لينفذ ما عزم عليه . وكان النيام الثلاثة قد استفاقوا ، ولكن بعد فوات الأوان ، فأخذوا يبذلون جهوداً يائسة للتخلص من القيود التي تشدهم الى أسرمتهم ، ولكن محاولاتهم لم تجدي فان تلك القيود كانت متينة جداً . ووقف سبارتيموسكا وسيفه في يده يراقب ميلورد جنسدارم وماراسكين دون أن يجرؤ على الاقتراب منهما كثيراً .

وكان ترومبافيور ينظر الى راكستان بهزه وقد عجز هذا

عن قطع قيوده فلبث جامداً ينظر الى المتشرد يجرأة نادرة . وعندئذ وضع ترومبافيور قبضته الهائلة تحت أنظار الفارس وزجر قائلاً :

- لقد حطمتني مرة بقبضتَيْك وها قد أتى دوري الآن لأعاملك بالمثل .

فزأر راكستان قائلاً :

- تبتاً لك من جبان !

فاهتاج القاتل المأجور وزجر قائلاً :

- عليك اللعنة !

ورفع قبضته الهائلة ليهوي بها على رأس الفارس العاجز عن الحركة ، وعندئذ شعر بيدَيْن صغيرَيْن تطبقان على راسه من الورا ، بينما كانت يدان أخريان تقبضان على وسطه وتسحبانه بعنف . فاستدار وقد أعماه الغضب فرأى نفسه وجهاً لوجه أمام موسكاد وخطيبها جيهان جيهمين . وصاحت الفتاة قائلة :

- لقد عرفتك جيداً يا ترومبافيور عندما كنت تقبع في زاوية الشارع .

فاستهان المتشرد بقدر ذنك الخصمين اللذين لا يستطيعان مجابهته بحال من الأحوال وحذرها قائلاً :

- أنصعكا بالذهاب ... وبسرعة .

فرمقت موسكاد خطيبها بنظرة متوسلة تدعوه فيها لرفض نصيحة المتشرد وكان جيهان شاحب الوجه ترنجف أطرافه رعباً ، ولكنه لم يبال بل لبس بطيخة خاطرة نظرة حبيبتة ووقف بعزم

أمام ترومبافيور وحاول إقناعه قائلاً :

— ماذا يا سيد ترومبافيور ؟ أبحرؤ حقاً على إيداه جريج

لا يستطيع الدفاع عن نفسه ؟

ورأى ترومبافيور أن الشاب لن يترك مكانه رغم خوفه فلم يترد لحظة بل وجهه إليه ضربة هائلة بظاهريده وهو يصبح قائلاً :

— بماذا يتدخل هذا الحفار النحس ؟!

فسقط جيهان جيهمين على الأرض . وشاء سوء حظله أن يرتطم رأسه أثناء سقوطه بزاوية مقعد فغاب عن الصواب . فلم يعد ترومبافيور يلقي إليه إلا بل استدار نحو موسكاد وقال لها بصوت رهيب :

— إذهي ... إذا كنت لا تريدن أن ألقى بك من النافذة .

فجابهته الفتاة بشجاعة وقالت بعزم :

— إرمني من النافذة إذا شئت ولكنني لن أدعك تتم ارتكاب

هذه الجريمة الفظيعة أمامي !

فقال بجزء :

— حسناً ، حسناً . سوف أفعل ما تطليبه فكوفي مطمئنة .

وأمسك بقبضتها وجرحها الى النافذة ، فتولست إليه قائلة :

— أعفُ عنه يا ترومبافيور ! أستحلفك بالمعذراء أن تعفو

عنه . لماذا تريد أن تقتله ؟

فزجر ترومبافيور قائلاً :

— لأنه حطمني مرة بقبضتيه !

وأردف يقول بلهجة ساخرة :

— ولأنهم يدفعون لي لأجل ذلك ... فهل تظنين أنني أضحي

بخمسين ألف ليرة في سبيل عينيك الجبيلتين ؟ خمسون ألف ليرة !

إنه مبلغ مفرح على ما أعتقد .

وكانت الفتاة قد أقاومته الى تلك اللحظة ولكنها فهمت أنه

لن يلين لتوسلاتها فكفّت عن المقاومة وذهبت بنفسها الى

النافذة ففتحتها بهدوء وقالت له بلهجتها اللطيفة المعهودة وهي

تتطلع في وجهه بحزم ودماء :

— لقد حاولت جهدي لأجنيبك مصاباً عظيماً ... ولكن

بما أنك أرغمتني فأنت المسؤول ... وأنا أنذرك يا ترومبافيور بأن

الجلاد تورنوبيز موجود الآن في الشارع تحت هذه النافذة تماماً

وهو ينتظر إشارة مني ليصعد الى هنا ، فهل تريد أن أدعوه ؟

ولو انقضت الساعة على ترومبافيور لكانت أخفّ وقماً عليه

من تلك الكلمات . فترك الفتاة فوراً وقد شحب وجهه واصطكت

أسنانه رعباً وجحظت عيناه وتراجع خطوتين الى الوراء وهو يقول

بصوت متهدج :

— الجلاد تورنوبيز ... تحت النافذة ...

— نعم ، الجلاد تورنوبيز . وتستطيع أن تراه بنفسك إذا

أردت . وليس لي إلا أن ألفت اسمه بصوت أعلى قليلاً فيصعد الى

هنا .

فتقدّم ترومبافيور من النافذة بعذر شديد ونظر الى الشارع

وإذا به يتراجع فجأة وقد وقف شعر رأسه من الرعب وكان يعيد

قوله بصوت آلي :

- الجلاد تورنوبيز ... في الشارع ... تحت النافذة ... كيف أتى الى هنا ؟

- أنا التي دعوته ... فاني عندما رأيتك كامناً في الزاوية ، وعندما التفتت الى الورا و رأيتك أيضاً تقطع الشارع ، عرفت غايتك . وقد شامت السيدة العذراء أن ألتقي بالجلاد تورنوبيز في تلك اللحظة فجزوت على أن أحادثه ، فأتى الى تحت النافذة وهو ينتظر كما رأيت .

فقال ترومبافيور برعب :

- أنت ! ... أنت التي جئت به ! ...

ثم انفجر قائلاً :

- ولكنك تعلمين إذن ؟

فوافقت بإشارة لطيفة من رأسها الجميل . فقال المتشرد لاهثاً :
- يا للجنة !

- حلّ قيسود هؤلاء المتاكيد يا ترومبافيور وردة إليهم أسلحتهم .

ولما رأته يتردّد أخرجت رأسها من النافذة فزجر المتشرد قائلاً :

- عودي بربك فما أنا أطيع أمرك .

وبدأ يقطع قيود راكستان بخنجره ، وكان سبارتيموسكا يريد إبداء بعض الملاحظات ولكن ترومبافيور نظر إليه نظرة هائلة جعلته يقفل فمه ويقتدي به .

وعندما قطعت قيود الرجال الثلاثة وردت إليهم أسلحتهم

حذرت موسكاد ترومبافيور قائلة :

- إذا وقع لهذا النبيل الشجاع مصاب عن يدك فان الجلاد تورنوبيز سيذهب فوراً الى منزلك .

فوجه إليها نظرة قاتلة ولكنها لم تخف عليها فابتسمت قائلة :
- إنك لا تخيفني ، وتستطيع قتلي إذا أردت ، ولكنني اتخذت احتياطاتي ، أي أنك إن قتلتني فسوف ترى على الأثر الجلاد تورنوبيز في منزلك .

فبدأ المتشرد عاجزاً حياها وزجر قائلاً بغضب :

- ولكن الشيطان يكن تحت مظاهرك اللطيفة !

فابتسمت موسكاد أيضاً وقالت :

- إذهب الآن يا ترومبافيور وأنصحك بأن لا تعود الى هنا أبداً .

- وكيف تريدن أن أخرج وهو ينتظرني تحت !؟ أقسم أنني أفضل أن أقتل نفسي فوراً بطعنة خنجر .

فأخنت موسكاد الى خارج النافذة وألقت بضع كلمات وبعد هنيهة قالت يهدوء :

- لقد ذهب . وتستطيع الآن أن تخرج دون خوف .

فأقترب ترومبافيور من النافذة وتفحص الشارع بنظرة قلقة . ولما تأكد من أن الرجل الذي يثير فيه هذا الرعب الغريب قد ذهب حقيقة ، أطاع أمر موسكاد فهبط الدرج واختفى بسرعة عجيبة .

وتبعه سبارتيموسكا بينما كان ماراسكين وميلورد جندارم

يقههان ضاحكين من الهزيمة غير المتوقعة .

أما راكستان فإنه لم يضحك بل كان ينظر الى موسكاد
بعنان ويتسم لها بلطف فاقتربت منه وطمأنته قائلة :
- لا تخش شيئاً فطالما أنت هنا فإنه لن يمرؤ على أن يضع
قدميه في هذا المنزل .

- إنك فتاة شجاعة باسلة وأنا مدين لك بحياتي ولن أنسى
أبداً أن أكفك بما تستحقين .
فاحمرّ وجهها سروراً ولبثت واقفة أمامه مرتبكة لا تجد
ما تقوله .

فابتسم راكستان ، ولبها باللطف نفسه الى أمر كانت قد
نسيته فقال :
- اهتسي بخطيبك .
فأسرعت نحو جيهان جيپين الذي كان قد بدأ يستعيد وعيه
في تلك اللحظة .

البرهان

*

تفحص ترومباقيور الشارع ملياً قبل أن يخرج من منزل
لابواس ، ولما لم ير ما يريب أنزل جوانب قبعته الى عينيه ورفع
ياقة معطفه الى أنفه وانسحب الى الخارج وأخذ يعدو في محاذاة
البيوت الى أن بلغ منزله حيث حبس نفسه مع رفيقه سبارتيموسكا

وأقبل الباب ودفع المزلاج .

وتلاشى تأثير الخوف من نفسه شيئاً فشيئاً فعصف به غضب
هائل وتدفقت من فمه سيول الشتائم والتهديدات واللعنات كأنها
حمم البركان . وكانت نغمته العارمة منصبة على أعداء غير
منظورين لم يُسميهم .

وقال لنفسه أخيراً فعاد إليه هدوؤه ولبث صامتاً . وكان
سبارتيموسكا قد هدأ هو أيضاً ، إلا أن الفضول كان مستبداً به .
ولما رأى رفيقه قد عاد الى حالته الطبيعية نفض عنه التردد وسأله
قائلاً :

- أقول لي أخيراً ما معنى تلك القصة وما علاقة الجلاد
تورنوبيز بها ؟

فأصفر وجه ترومباقيور مجدداً واشتعلت عيناه فجرد خنجره
وأدنى نصلته المريضة الماضية من أنظار سبارتيموسكا وقال
ببرودة أشد هولاً من غضبه .

- أصغ إليّ جيداً فانك صديقي الحميم ويؤسفني أن أفترق
عنك . ولكن إذا عدت الى الكلام في هذا الموضوع مرة ثانية
فسأخذ خنجرتي في عنقك الى القبضة وأشفيك نهائياً من فضولك
المزعج .

فارتجف سبارتيموسكا خوفاً وصاح قائلاً :
- حسناً ، إحتفظ بأسرارك إذن ما دمت لا تتق في أفضل
صديق لك .

فعاد ترومباقيور الى هدوئه من جديد ، بينما تابع سبارتيموسكا

قوله :

- ولكن ذلك يعني خرابنا | ولن نتمني عن الإعتقاد بأن ما وقع لنا يثير الغضب .

وأردف يقول بلهجة بائسة :

- خسون ألف ليرة ! ثروة خسرتها دون أن نعلم لماذا !

فقال ترومبافيور :

- يا للصواعق ! لقد خربنا حقاً بسبب تلك الشقية موسكاد ..

ولكن من أين علمت ؟

وسكت لحظة ثم أردف يقول بغضب :

- ها أنا الآن تحت رحمتها ويمكنها أن تتصرف بي كما يحلو لها

دون أن أستطيع شيئاً حيالها سوى إحناء الرأس والطاعة ...

وإلا فإن الآخر سينقضّ عليّ !

وأضيا بقية يومها محبوسين في منزل ترومبافيور يندبأت

بصورة متواصلة حظها التمس وضياع ثروتها . وفي اليوم التالي

خرج المشردان وقد عضتها الجوع ولم يكن معها شيء من المال

فقال ترومبافيور :

- بعد كل حساب ، إذا ادعينا أننا قتلنا راكستان فمن الذي

يستطيع أن يثبت العكس ؟

فتهلل وجه سبارتيموسكا وصاح قائلاً :

- يا لها فكرة موفقة !

وفي صباح اليوم التالي كان ترومبافيور قد عزم على تنفيذ

خطته فصاح قائلاً :

- ليحصل ما يحصل فهياً بنا .

فقال سبارتيموسكا كأنه يدعو الى خوض معركة :

- هياً بنا .

وذهبا الى قصر سوريانتس حيث سارا وراء أحد الخدم

يمتازان قاعات رائعة فخمة الرياش ، وقد ندما على تهوورها

ولكن التراجع لم يعد ممكناً . وكانا لا يعلمان أين يضعان

أقدامهما لشدة ارتباكهما ولو جرت عند ذلك على الحرب لهربا .

وكانا يظنان أن الخادم يقودهما الى السيد بنياكل الذي طلبا

مقابلته عند وصولهما . ولشدة ما كان عجبهما عندما رأيا نفسيهما

في حضرة السيدة ذات المعطف الرمادي التي وعدتهما بالخمسين ألف

ليرة وكانا يعتقدان أن تلك المرأة هي صاحبة الكنوز الأسطورية

التي يربانها حولهما ، فوقعت خشيتها في قلبيهما .

ولقد أيقنا من فشل خطتهما سلفاً ، ولكنهما استجمعا

شجاعتهما وتشاورا لحظة بالنظر فأنخى ترومبافيور أمامها باحترام

كفي وقال يهدوء :

- أيتها السيدة النبيلة الجميلة ، أتشرف بإعلامك بأننا نفضدنا

وأمرنا بأمانة ودقة ، فإن الرجل الذي أمرت بقتله قد حذف

من عالم الوجود .

فأنخى سبارتيموسكا بدوره وأيد قائلاً :

- مات هو وتابعاه .

فقال السيدة ببرودة :

- لقد تأخرتما وكان يجب أن يتم الأمر أول أمس على

أبعد تقدير .

فتشاورا لحظة بالنظر ، وحاول ترومبا فيور محاولة يائسة فقال :
- وفي جميع الأحوال لقد نفذنا الأمر بدقة متناهية ولم
يبقى إلا ...

فأكمل سبارتيموسكا قائلاً :

- أن نحصل على المكافأة الصغيرة التي ربحناها بشرف .

فقالَت السيدة كأنها لم تسمع :

- وتقولان إن راكستان قد مات ؟

فأكد ترومبا فيور قائلاً بحماس :

- وشبع موتاً يا مولاتي .

وأضاف سبارتيموسكا يقول :

- وكذلك ميلورد جندارم وماراسكين .

فقالَت بلهجتها الجليدية :

- أين البرهان ؟

فأحسأ بأنهما يحتنقان ، ولكنهما تمالكا بسرعة وقال

ترومبا فيور بعدة :

- البرهان هو أننا هنا سالمان !

وأيد سبارتيموسكا فقال :

- وهم هناك دون حراك .

فقالَت بلهجة مقتضية :

- لنذهب ، فانا أريد أن أتأكد بنفسي من أنهم ماتوا

حقيقة .

فوقع هذا الكلام على المنكودين وقع الصاعقة ولكنهما لم
يستطيعا أن يقولوا كلمة لأنها كانت قد ذهبت ، فغمغما يقولان
بصوت واحد :

- يا لسوء الحظ !

وسارا وراهما دون أن ينبسا بكلمة . ولما وصلوا الى منزل

لابواس لم يحاول المتشردان الهرب لأنهما كانا يحسآن بأن تلك

المرأة المجهولة تستطيع عندما تشاء أن تقبض عليهما وتجعلهما

يدفعان غالباً عن مزاحهما السمج . ولذلك فإنيهما تبعهما كأنهما

كلبان مطيعان وصعدا الدرج وراهما .

ولما وصلت الى قرص الدرج وقفت أمام باب غرفة الجرحى

ورمقت المتشردين بنظرة نارية وقالت :

- هل أنتم واثقين تماماً من موت الثلاثة ؟

فلم يتردد ترومبا فيور وأقسم بصوت عالٍ وقد نسي أنهم

يستطيعون سماعه من داخل الغرفة فقال :

- أقسم على خلاص نفسي أننا تركناهم في أسرهم جيشاً باردة

هامدة ويجب أن نجدهم هكذا إلا إذا ...

فأكمل سبارتيموسكا قائلاً :

- إلا إذا كان الشيطان سيدهم قد أخذهم الى حيث لا ندري .

فوضعت يدها على مقبض الباب وترددت لحظة فقوس

المنكودان أكتافهما بانتظار الانفجار الرهيب ، ولكن ذلك

الانفجار لم يحدث ، فإنيها فتحت الباب ووقفت على عتبته منبهة ثم

قالَت يهدوئها الجليدي المعهود :

— أننا على حق ، فإنهم موتى .

فانتفض المتشردان انتفاضة هائلة وقد نسي كل حذر وأوشك

على أن يفضحا نفسيهما فيزجران قائلين : إنهم موتى !؟

ولكنهما تما لكما أعصابهما في الوقت المناسب ومدّاً عنقيهما
بحذر فكادا أن يغمى عليهما رعباً وذهولاً لأنهما رأيا على الأسرة
ثلاث جثث هامدة ممدّة تحت الأغطية وشاهدا رؤوس راكستان
وميلورد جندارم وماراسكين مرتجحة بثقلها الطبيعي على الوسائد
وقد شعبت وجوهها وانطفت فيها كل علائم الحياة .

فتبادلا النظرات بأعين خرجت من محاجرهما ولمت فيها بوارق
رهيبة ورسماً إشارة الصليب على وجهيهما بسرعة وهما يغمغان
بعض الصلوات .

أما السيدة فأنها أغلقت الباب بلطف وأمرتها قائلة :
— إتبعا لي .

فتبعها وقد تجرّدا من الحس والشعور .

ولم يكن في تلك القضية خوارق وأعاجيب إذ أن راكستان
ورفيقيه سمعوا ترومبافيور يتكلم أمام الباب وفهموا موضوع
الحديث وكانوا حذرين متأهبين لكل حادثة بعد محاولة ترومبافيور
الفاشلة ، فأشار الفارس إلى رفيقيه وسحب الرجال الثلاثة الأغطية
إلى أعناقهم ولبثوا جامدين حاسبي الأنفاس وكانت وجوههم لا
تزال صفراء من تأثير ما فقدوا من الدماء .

وكانت السيدة ذات اللطف الرمادي تسير وهي مقتنعة تماماً
بأن ترومبافيور وسبارتيموسكا قد قتلوا راكستان وتابعيه . أما

المتشردان فانهما كانا مقتنعين أيضاً بموتهم ولكنهما كانا يعلمان
جيداً أنهما لم يقتلهم ، ولذلك فان موت الرجال الثلاثة الذي لم
يفهما كيفية حصوله كان يدهشهما ويقلقهما .

ووصلت السيدة والمتشردان إلى قصر سورياتس فأعظمتها
فوراً ودون أية صموية الحسين ألف ليرة التي وعدتها بها ، وكان
في هذا الحدث الأخير ما قضى على البقية الباقية من العقل في
رأسيهما .

فانطلقا يركضان إلى أن بلغا مسكن ترومبافيور في شارع
ترياندرى حيث بادرا فوراً إلى إخفاء الكيسين اللذين يحتويان
الحسين ألف ليرة في قعر صندوق أقفلاه جيداً . ولما انتهيا من تلك
العملية قال ترومبافيور بندهول :

— يجب أن نرى ما حدث عن كتب فاني أشعر بأنني سأفقد
رشدي فيما إذا قدّر لي أن أعيش دون أن أتمكّن من اكتشاف
ذلك السر .

وذهبا إلى منزل لايبواس حيث صعدا الدرج ودخلا غرفة
« الموتى » وعندئذ فاق ذهولهما وخوفهما كل حدّ سابق لأنهما لم
يعدا أحداً في الغرفة وكانت الأسرة مرتبة نظيفة بيضاء ولكن
راكستان وميلورد جندارم وماراسكين ، أمواتاً أم أحياء ،
كلوا قد اختفوا .

الشقيقتان

*

عندما اختفى راكستان ورفيقاه من منزل الفتيات الثلاث كان قد مضى على ريون دور خمسة أيام وهي سجين في قصر سوريانتس . وكانت هرموزا وجوسلين تزورانها كل يوم وأحياناً تأنيان بضع مرات في النهار الواحد . ومنذ اليوم الأول ارتدت الشقيقتان ملابس رمادية متشابهة وُخِيتي الحاتم ذو الياقوتة الحمراء في أحد الصناديق فأصبح من المستحيل عندئذ تمييز هرموزا من جوسلين .

وكانت ريون دور تراهما تظهران معاً في معظم الأحيان ، وإذا اتفق أن دخلت إحداها وحدها فإن الأخرى كانت تظهر على الأثر ، أي قبل أن تستطيع التي دخلت أن تقول كلمة أو تشير إشارة .

وقد فهمت ريون دور أن كلا منهما كانت تراقب الأخرى عن كثب . وفهمت أيضاً أن كلا منهما كانت تريد أن تقول لها أشياء خاصة دون أن تسمعها الأخرى .

ومنذ اليوم الأول طمأنتاها كلتاها وقالتا لها إنه لا يوجد ما يهددها ، فلم تشق الفتاة تماماً في كلامهما ولكنها فهمت جيداً أنها ليست مهددة في الوقت الحاضر ورجتها أن تخبرها بما تعرفان عن السيد دي راكستان ، فبدأ على الشقيقتين أنهما تتشاوران بالنظر لحظة ثم أجابت إحداها بأن الفارس قد خرج سالماً من قصر دي

كيز ولكنه كان مكسواً بالجراح ، وأنه اختفى منذ تلك اللحظة ومن المرجح أنه قضى نحيبه في إحدى الزوايا متأثراً بجراحه . وكانت ريون دور تأبى الاعتقاد بذلك الكلام ، ولكنها كلما سألت عن الفارس كانت تتلقى الجواب نفسه ، ففهمت أنها خطة مدبرة وأقلمت عن الكلام في ذلك الموضوع .

ولكن الشقيقتين كانتا ، من جهتهما ترهقانه دائماً بالسئلة . وكانت أسئلتهما تهدف كلها الى التأكد مما إذا كانت حقاً رولاند دي مونكابييه ، ولم تكونا تخفيان غايتهم بل أعلنتا بصراحة أنهما يحتفظان بها في قصر سوريانتس للتحقيق معها في تلك القضية . ولبثت الشقيقتان خمسة أيام على تلك الحالة من النضال والمراقبة دون أن تتمكن إحداها من تسجيل أي تقدم على الأخرى . وفي اليوم الخامس ، أي في يوم اختفاء راكستان من منزل الفتيات الثلاث ، امتطى الدوق دي سوريانتس جواده وغادر القصر وهو مرتدي ملابس السفر مما يدل على أن غيابه سيطول . ولم يكن في القصر عندما حضر ترومباقيور وسبارتيموسكا لطلب المكافأة التي وعدتهما بها السيدة .

وفي اليوم التالي ، وكان سوريانتس لا يزال غائباً ، رأت ريون دور إحدى الشقيقتين تدخل غرفتها ، فظننت الفتاة أن الأخرى لن تلبث أن تظهر كالعادة . ولكنها أخطأت هذه المرة إذ أن الشقيقة الأخرى لم تظهر . وتقدمت المرأة منها بسرعة وقالت لها بصوت خفيض :

— لننهِ الأمر فوراً فليس لدي أكثر من دقيقة واحدة .

إنك لست رولاند في نظري وأنا متأكدة من ذلك . إلا أنني
أريد أن أتأكد لك لو كنت رولاند وأقدم لك مبلغاً كبيراً
من المال يجعلك غنية إلى آخر أيامك على شرط أن توقعتي تنازلاً
عن حقلك في اسم آل مونكاييه وألقابهم وثورتهم ، وتحتفي على
الأمر .

فأجابت ريون دور قائلة بهدوء مدهش :

- أي أنك تعرضين جزءاً صغيراً من ثوتي على شرط أن
أتنازل عن الباقي ، أليس كذلك ؟
فقلت ببرودة :

- هو ذاك ، إلا أن ما تسمينه جزءاً صغيراً هو مليون ليرة .
مليون ليرة ... أسمعين ؟ إنني أعطيك مليوناً !
فقلت ريون دور بالهدوء نفسه :

- إنه مبلغ كبير فعلاً . ولكنني إذا كنت رولاند يا سيدتي
فان ثروة والدي كلها يجب أن تعود إليّ . كلها ، أسمعين
بدورك ؟ وأكون حرة في التصرف بها كما أشاء ولكن ...

فقاطعتها قائلة بفراغ صبر :

- ولكنك لست رولاند وقد عرضت ...

فقاطعتها ريون دور قائلة :

- إسمحي لي بأن أقاطعك يا سيدتي وأقول لك إنني إذا لم
أكن رولاند فليس لي أي حق في تلك الثروة ولن أقبل شيئاً .
- هكذا إذن ، الكل أو لا شيء !؟

- نعم يا سيدتي . الكل إذا كنت رولاند لأن ذلك من

حقي ، ولا شيء إن لم أكن رولاند !

- أهذه هي كلمتك الأخيرة ؟

- نعم يا سيدتي ، هذه هي كلمتي الأخيرة .

- فكسرتي جيداً فان رفضك ، إذا أصرت عليه ، يكلفك
غالياً .

- أشك في ذلك .

- لقد أردت إنقاذك ... ولكنك أنت التي ترغيبني على أن
أقتلك لأنني لا أريد لك الموت مبدئياً .

- لن تستطيعي قتلي بالسهولة التي تتصورينها فاني سأدافع
عن نفسي .

فنظرت المرأة إليها نظرة طويلة وابتسمت ابتسامة إشفاق ثم
قست ملاحظها ونظراتها وقالت بلهجة جليدية :

- أنت التي أردت .

ثم أقفلت عليها الباب وذهبت .

وفي اليوم التالي رأتها ريون دور تعود وحدها أيضاً . واقتربت
المرأة منها بسرعة وهمست قائلة :

لا تخشي شيئاً فأنا ساهرة عليك .

وأضافت تقول بصوت رصين بدا ينضح إخلاصاً :

- أقسم لك أنني لن أدمهم يقتلونك وأن ثروتك ستُردّ
إليك كلها فتحي بي .

فذهلت ريون دور وقالت :

- ولكنك قلت لي أمس عكس ذلك غاماً يا سيدتي ، فضلاً

عن أنك هدّدتني بالموت ، فماذا أصدّق ؟ تهديداتك أم وعودك ؟
فأعلنت تقول بسرعة :

— إن أختي هي التي كلّمتك أمس وهي تريد أن تحتفظ
بثروتك التي استولت عليها . أما أنا فأنني أريد أن أجعلها تردّها
إليك وأقسم لك أنها سوف تردّها .

واختفت كالخيال تاركة ريون دور مدهوشة مذهولة ، وكانت
الفتاة لا تعلم من منهما هي التي يجب عليها أن تصدّقها ! وتساءل
في نفسها عما إذا لم تكونا متفقتين على إرهابها وإرغامها بطرق
مختلفة على التنازل عن الثروة التي جلبت عليها كل تلك المصائب
والويلات .

قاعة سوريانتس

*

في اليوم نفسه الذي أكّدت فيه إحدى السيدتين لريون
دور أنها ساهرة عليها وأنها تسعى لقرّدها لها ثروتها . عاد الدوق
دي سوريانتس من السفر وقد دام غيابه يومين . فأبدل ملابسه
بسرعة فائقة وتوجّه الى قاعة كان يعلم أن جوسلين وهرموزا
تجلسان فيها غالباً . وعندما دخلها وجد فيها إحدى الشقيقتين
وحدها .

ويذكر القراء أنه صرّح لبنياكل بلهجة لا تحلو من المראה
أنه يجهل من من الشقيقتين هي السيدة ، وأنه بعد أن سمع أن

كلتيهما ترتديان ثياباً متشابهة ، قال إنه لن يعرف امرأته من
شقيقتها .

ومع ذلك فإنه عندما لقي إحدى الشقيقتين في القاعة لم يتردّد
لحظة واحدة بل سألها فوراً بقوله :

— ماذا جد بأمر راكستان ؟

— اطمئنّ فإن راكستان لن يتدخل بعد الآن بما لا يعنيه .

فتنهّد ارتياحاً وقال : هل مات ؟

فوافقت بإشارة من رأسها وهي تبتسم . فسألها قائلاً : متى ؟

— أول أمس ... يوم ذهابك .

— تهانني يا سيدي فإنك عملية حقاً .

ثم أردف قائلاً بقلبي :

— وهل أنت واثقة من موته ؟

— لقد رأيت جثة هامدة في سريره .

وقد ارتجفت رغماً عنها وهي تعطي تلك الإيضاحات ، فرمقتها

بنظرة ساخرة لم تخفّ عليها ، فقالت برصانة كلية :

— أنت تعلم جيداً أنني لا أضرب أبداً إلا عند الضرورة

القصوى وعندما لا يبقى وسيلة سوى الضرب . وقد عرضت على

راكستان مبلغاً كبيراً من المال ليوقع اعترافاً ينقض فيه اتهاماته

ويحتفي فلم يقبل ، فماذا تريد أن أفعل عندئذ ؟

فقال ببرودة : لقد أخطأت .

— ما العمل ؟ ما مضى قد مضى . وقد قدّمت العرض نفسه

الى رولاند .

- أعتقد أنها رفضت .

- نعم .

ثم ابتسمت وأردفت تقول : إنها تريد كل شيء .
فقال سوريانتس بلهجة ساخرة :

- يا للشيطان ! يظهر أنها مشحودة الأنياب .

- وأنت ماذا فعلت يا سيدي ؟ هل كل شيء جاهز هناك ؟

- نعم وقد أصبح الخروج من البيت مستحيلاً إلا إذا كانت

الصفيرة من ذوات الأجنحة . ولكني أعيد عليك أنك سترتكبين
فعلت حقاً .

- أعتقد أنك على حق .

- إذن فلماذا تزجّين بنفسك في مثل تلك الأعمال غير

المضمونة ؟ إنه من الخطأ الفاضح أن يفتش الإنسان عن الظهر
عند الساعة الثانية .

- ما العمل ؟ إنني أحبّ السيطرة ويلوح لي أنه يجب ألا

أضرب مجدداً تلك الصفيرة رولاند التي نجت إلى الآن بأعجوبة

من مؤامراتنا . ولكنها تكون نهايتي عندئذ وأنا لا أريد أن
أنتهي .

فهزّ رأسه وقال بلهجة المتشكك :

- أسأل السماء أن لا تمجّل في تلك النهاية .

فهزّت كتفها وابتسمت إبتسامة الواقفة من نفسها . وقد

قالا ، على ما يظهر ، كل ما كان لديهما عن الأعمال إذ أن

سوريانتس بدأ يسألها عندئذ عن صحتها وقبل يدها بظرف ولطف

لكنه لبث يناديها بـ « يا سيدي » كما كانت تدعوه هي « سيدي » .

وبينما كانا يتبادلان تلك المحاملات دخلت الشقيقة الأخرى

قلبت الدوق يتكلم هنيئة معهما دون أن يلفظ اسميهما مرة
واحدة ، ثم استأذن وانصرف .

وتوجّه فوراً إلى تلك القاعة التي رأيناها فيها مع بنيماكل حيث

جلس إلى طاولته وبدأ يدرس أوراقاً أخذها من خزانة الأبوس

نفسها التي وضع فيها المستند الذي وقّعه ملك إسبانيا والمفروض

فيه أن يجعل منه نائباً للملك فرنسا ...

وكان قد مضى عليه ساعة طويلة وهو منهمك في العمل عندما

دخل أحد الخدم وقال له إن الفارس دي راکستان يلتمس شرف

المثول أمام حضرته بسبب قضية بالغة الأهمية والخطورة .

فكتم ما اعتمل في نفسه من جراء ذكر ذلك الإسم فجأة

أمامه ورفع رأسه وقال بهدوء ظاهري :

- أقول الفارس دي راکستان ؟ ... أأست غطتاً ؟

فقال الخادم مؤكداً : لا يا مولاي فإنني أعيد الإسم الذي

أعطي لي تماماً .

- أين هو هذا السيد ؟

- في القاعة الكبيرة يا مولاي .

فقال سوريانتس وهو ينهض :

- حسناً ، إنتظري هنا .

وخرج من القاعة واتّجه بسرعة إلى القاعة الكبيرة وهو يقول

في نفسه بعنف شديد :

« لئلا إذا كان يوجد فارسان باسم راكستان ، أو إذا كانت السيدة قد أخطأت . »

ولم يطل عليه الوقت ليعلم ما يريد فانه لم يكذب ينظر الى الرجل الذي كان يتمشى بعصية ظاهرة في القاعة حتى زجر قائلاً في نفسه : « يا للشيطان ! ها إن الرجل الذي تؤكد السيدة أنها رآته جثة هامدة في سريره ، يتمتع بصحة جيدة ! » وكان الرجل هو راكستان بنفسه وقد بدا شاحباً قليلاً ، ولكنه لا يبدو عليه أنه يحسّ بيجروحه .

ولم يكن في إختفائه من منزل القنيتات الثلاث ما يثير العجب ، فانه بعد ذهاب ذات المعطف الرمادي وتر ومباقيور وسبارتيموسكا ، رأى أن المنزل لم يعد آمناً ، فشكر موسكاد وبرغاموت وساقير وجيهان جييين وعاد مع رفيقيه الى منزله .

وقرر أن يدع أعداءه في خطاهم فتابع تمثيل دور الميت ، ولكنه كان قلقاً على رولاند فبدأ يفكر في طريقة يعرف بها مكانها وينقذها ، فهداه تفكيره الى إنها قد تكون في قصر سوريانتس . ولما اقتنع تماماً بتلك النتيجة غادر منزله وقصد ذلك القصر .

وعندما رأى سوريانتس أن الرجل الذي يطلب مقابلته هو الفارس دي راكستان نفسه الذي أكدت له السيدة موته ، عاد على أعقابها الى قاعة عمله حيث وجد الخادم لا يزال ينتظره فأعطاه أوامره وذهب الخادم لتنفيذها...

وعندئذ ترك الدوق قاعة عمله وذهب الى نهاية القصر حيث

دخل قاعة صغيرة تطلّ نوافذها على النهر ، وهناك نزع عنه سيفه وخنجره ووضعها على أحد المقاعد ثم جلس أمام طاولة كان عليها كل ما يلزم للكتابة فوضع أمامه ورقة وغمس الريشة في الحبر وبدأ يكتب يهدوه واطمئنان .

وعندما دخل راكستان تلك القاعة بخطواته القاسية الحازمة بدا على الدوق أنه مستغرق في العمل . ولكنه سرعان ما رفع رأسه ونهض فحيناً الفارس بلطف وكياسة لم يكن يجاريه فيهما أحد . وقد رأى راكستان فوراً أنه لم يكن يتقلد أي سلاح ، أي أنه كان تحت رحمة . وكان الفارس يعتبر أنه من الجبن أن يستعمل العنف حيال شخص يظهر مثل ذلك التهذيب ، فردّ تحية الدوق وقبيل أن يجلس في المقعد الذي عينه له ، في مواجهته في الجهة الأخرى من الطاولة ، ثم طرق رأساً الموضوع الذي أتى من أجله فقال بكل تهذيب وابتسامته اللطيفة لا تفارق شفتيه .

— أنا أعلم يا سيدي أن الاميرة رولاند دي مونكاييه هي في قصرك في الوقت الحاضر ، ولذلك فقد سمحت لنفسني أن أمثل في حضرتك وأتمس منك أن توافق على أن تواجهني بالأميرة . وكان يتطلع مباشرة في وجه سوريانتس ، ولكن هذا لم يطرف له جفن بل نهض وقال بكل بساطة :

— لقد كنت أنتظر زيارتك يا سيدي وأتوقع أن تطلب مني هذا الطلب ، ولذلك فأسألك على شرف الذهاب بك الى قرب الأنتسة دور بيريف .

فلم يطرف لراكتان جفن بدوره ولكنه مع ذلك كان
مدهوشاً في قرارة نفسه للسهولة التي اعترف بها سورياتس بوجود
رولاند في قصره ولما أبداه من الاستعداد الطيب للذهاب به
إليها ، فقال يهدوء :

- أشكرك شكراً جزيلاً على كياستك يا سيدي ، ولكنني
ألفت نظرك الى أنك تقول الآنسة دور بيريف ، بينما قلت أنا
الأميرة رولاند دي مونكاييه .

- لقد سمعتك جيداً يا سيدي ، ولكن تلك الفتاة ، وقد
سألتها ، لم تستطع أن تقول لي ما إذا كانت دي مونكاييه
كما تؤكد أنت . ولا شك في أنك تغلك براهين تجهلها الفتاة ، وفي
هذه الحالة أطلب منك عندما تقابلها أن تطلعني على تلك البراهين .
وعندما تقنعني بصحتها سأرد فوراً الى رولاند الثروة التي تخصها ،
وعندما أتم هذا الواجب ...

وسكت لحظة ثم انتصب بكبرياء وتابع قائلاً بصوت قاسم :
- عندئذ نصفني حساباتنا يا سيدي .

وسار الى أحد الأبواب ففتحته وتحنى بهتديب فرراً راکستان
وخطا خطوتين ... وفجأة خسفت الأرض تحت قدميه فسقط
وهو يصيح صيحة دهشة .

ولبت سورياتس على عتبة الباب يصيح بسمعه هنيهة . ولما
لم يسمع أية ضجة أغلق الباب دون اكتراث وتقلد خنجره
وسيفه وعاد الى قاعة عمله حيث انكب على الكتابة كأن شيئاً لم
يحدث .

وبعد مرور ساعتين على ذلك الحادث كانت الشقيقتان
تتناقشان بعنف وغضب وكاتتا تصيحان معاً قائلتين :

- أين هي !؟

- ماذا فعلت بها !؟

وبعد أن تناظرتا بجدّة خلال لحظة قصيرة ، ورأت كل منهما
أن دهشة الأخرى حقيقية لا ريب فيها ، انطلقتا معاً راکستين
مخوفة ريون دور فوجدتاها خالية . فانفجرتا من جديد قائلتين :

- لقد قتلتها أيتها الشقية !

- لقد أنقذتها أيتها الغبية !

وبدأتا تناقشان فنتج عن ذلك أن كلا منهما فهمت أن
الأخرى ليست مسؤولة عن اختفاء الفتاة . وعندئذ جمعتا جهودهما
وبدأتا تبحثان هنا وهناك فلم تجدأ شيئاً ، فان ريون دور كانت
قد اختفت فعلاً دون أن تعلم كيف ولا من الذي ضرب الضربة .

ومع ذلك فقد كانت تلوح في عيني إحداهما ، دون أن تراها
الأخرى ، بارقة انتصار . وكانت هذه تعرف جيداً مصير الفتاة

وهي التي ضربت الضربة . ولكن هل هي التي كانت تريد أن
تقتل ريون دور أم التي كانت تريد أن تنقذها وتردّ لها ثروتها ؟

وفي اليوم التالي التقى سورياتس أحد الشقيقتين في رواق
مظلم ، ولا ندري كيف عرف اللوق أنها السيدة إذ أنه تقدّم

منها دون أي تردّد وقال لها بلهجة ساخرة :

- لقد تلقيت البارحة زيارة السيد دي راکستان .

فذهلت المرأة وصاحت قائلة : راکستان !؟

فتابع سورياتس بالهجة نفسها :

- إلا أن الرجل الذي رأيته جثة هامدة في سريره كان يتمتع بصحة جيدة .

ولما رأى أن السيدة قد تماثلت نفسها بسرعة وراحت تسأله بنظراتها أضاف يقول دون اكتراث :

- إطمئني يا سيدي فاني قد استقبلته في قاعتي الصغيرة التي تطل على النهر ... تلك القاعة التي كان يجب ، حسب رأيي ، أن تستقبلني فيها الآنسة دور بيريف ... أي أنني أقول لك إن راكستان لن يعود الى الظهور .

وافترقا دون أن يضيفا كلمة واحدة .

وكانا قد تبادلنا تلك الكلمات على بعد خطوتين من أحد الأبواب . وما كادا يستديران على أعقابها حتى فُتح ذلك الباب وانزلت منه شبح فسار في الرواق بدوره ...

وكانت الشقيقة الأخرى وقد سمعت ما دار بينها من الحديث لأنها كانت تسير وهي تعمغم قائلة :

- إذا كان السيد دي راكستان لم يميت من أثر السقطة فأقسم

أنكا سوف تزيانه يعود الى الظهور .

وكان راكستان قد سقط ، لحسن طالعه العجيب ، على طبقة دلغانية كثيفة فغاب عن الصواب هنية ، ولكنه عندما عاه الى وعيه لاحظ بسرور أنه لم يصب بأي أذى . ولكن موقفه كان حرجاً جداً حتى أن الموت كان أفضل له وقد أخذ يتمس في الظلام المكان الذي سقط فيه فعلم أنه في قاع بئر جافة ، فبدأ

يبحث عن منفذ سرّي يفادر بواسطته تلك البشر ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ورأى نفسه محكوماً عليه بالموت جوعاً وعطشاً .

ولكنه لم يفقد رباطة جأشه وكان لديه سيفه وخنجره ويستطيع أن يتخلص من عذاب الجوع والعطش بطعنة خنجر عندما يريد ، ولذلك فإنه قبع في مكانه ينتظر . ولبت على تلك الحالة يومين خالهما قرنين وكان العطش والجوع قد أخذاهما منه مأخذهما ولم يعد يستطيع أن يتحمل الى أبعد من ذلك ، فجرد خنجره وعزم على الانتحار ، وفي تلك اللحظة بالذات فُتح منفذ سرّي في أعماق البئر ودخل منه النور ، فأطلق الفارس صيحة فرح وانقضّ دون تفكير على تلك الفتحة فمرّ من خلالها الى الجهة الثانية حيث وجد نفسه في شبه قبو وأمامه إحدى الشقيقتين . فاعتقد في بادئ الأمر أنها التي هدّته في منزل لايراس ، ولكنه سرعان ما تبين خطأه إذ أن المرأة أخذته بيده وقادته دون أن تنبس بكلمة . وبعد بضعة دقائق وقفت أمام باب صغير ففتحته وتكلّمت عندئذ قائلة :

- إذهب أيها السيد راكستان وليحفظك الله .

وقبل أن يتمكن من شكرها كانت قد أغلقت الباب واختفت . فنظر الى ما حوله فرأى نفسه ملاصقاً لجدار السور من الخارج وراء قصر اللوفر تماماً وعلى بضعة أمتار من نهر السين ، فانطلق بخطوات واسعة في اتجاه شارع سانت أونوريه .

في مونكاييه

★

قلنا إن السيدتين هرموزا وجوسلين ، عندما لاحظتنا اختفاء ريون دور تبادلنا الإتهامات بأن إحداهما قد قتلتها والأخرى قد أنقذتها . وأضفنا أنها اقتنعتنا أخيراً بعدم تدخل أي منها في تلك الحادثة ، وأنها ضمنتا جهودهما لأجل جلايتها فباءنا بالفشل ، وأن إحداهما كانت تبتم خفية وتلتصق في عينيها بوارق الظفر بما يدل على أنها تمكنت من خداع شقيقتها وأنها تعرف تماماً ما آل إليه مصير ريون دور . ولا لزوم للقول بأن تلك المرأة كانت الشخصية الرهيبة الغامضة التي يدعوها سورياتس وبنياكل بالسيدة والتي كانت تثير خوف الرجلين بشكل يقشعر له بدناهما .

وفي اليوم نفسه ، عند هبوط الليل ، كان غاسبار وبنياكل مائلاً أمام السيدة في غرفة مظلمة وكانت تعطيه تعليماتها بصوت خفيض وبتلك الالهجة المقتضية الآمرة فتقول :

- الملك ؟

- لقد تلطّف جلالته ومنحني الإجازة التي التمتتها .

- حسناً ، ها نحن مطمئنان من تلك الناحية فاذهب فوراً

وخذها معك .

- تقني بي يا مولاتي ولا تترددي بل اضربها فوراً قبل أن

تفلت من يدك .

وعرض النذل الحقيير خدمته بلا مبالاة رهيبه فقال :

- إن الأمر سهل جداً ، وتكفي نقطتان من السمّ الذي أحضرتُه لهذه الغاية فتتخلصين إلى الأبد من تلك الفتاة الخطرة...

فهزّت رأسها الجميل سلباً وقالت بلهجة جازمة :

- لا ، ليس الآن . إن كل شيء جاهز في مونكاييه لاستقبالها ، فخذها الى هناك وافعل كل ما تريد لتجعلها تتنازل عن حقها وتحتفي ، إفعل كل ما تريد ما عدا قتلها ...

- وإذا استمرت في عنادها ؟

- عندئذ يكون الوقت قد حان لتلجأ الى ذلك السائل الذي تحمله وتكون هي التي أرادت الموت وليس نحن ، فاذهب يا بنياكل وتصرف بأفضل ما عندك .

فلم يرفع بنياكل اعتراضاً آخر بل المنحى وقال : حسناً يا سيدي .

وافترقا .

وعندما أفاقت ريون دور من نومها في اليوم التالي لم تعرف في غرفتها تلك الغرفة التي كانت سجينه فيها في قصر سورياتس ، وكانت تحسّ بنقل في رأسها وهيب في حلقها . وكانت أول حركة قامت بها هي أنها بحثت بأنظارها في ما حولها عن إياه الماء لتشرب فلم تر شيئاً ، فنسيت عطشها موقناً لتتساءل عن المكان الذي يضمها وعمّا إذا كانت لا تزال سجينه .

وقد نهضت وسارت بخطوات مترنحة نحو الباب فعجبت عجباً شديداً لأنها رأتها غير مقفل ، وعندئذ توجهت الى النافذة ففتحتها وعندما وقع نظرها على المشهد الذي بدا من خلالها عرفت

المكان فوراً وصاحت قائلة :

- مونكاييه ! إنني في مونكاييه !

وأضافت بصوت خفيض هيزه التائر :

- في بيتي ! أنا في بيتي !

وفهمت عندئذٍ ما حصل لها فإنهم دسوا لها مخدراً في طعامها أو شراها في قصر سورياتنس واغتمنوا فرصة غيابها عن الرشد فنقلوها في عربة الى البيت الذي ولدت فيه . وقد شعرت بتحسن حالتها بعد أن تنشقت هواء الريف النقي المنعش .

واطمأنت نفسها فوراً لأنها تأكدت من أنهم لا يريدون قتلها وإلا لكانوا تخلصوا منها أثناء نومها أو دسوا لها السم بدل المخدر . ولما زال قلقها من تلك الناحية أرادت أن تعلم ما إذا كانت حرة أو أنهم أبدلوا سجنها فقط . فخرجت من الباب وطافت طابقاً مؤلفاً من غرف عديدة فلم تجد باباً واحداً مقفلاً ، وكان السكون والوحشة يخيمين تماماً ، فنادت بأعلى صوتها ، ولكن أحداً لم يجيبها ، فبدأت تبحث عن بعض الماؤن لتأكل فلم تجد كسرة خبز واحدة حتى ولا نقطة ماء .

ولم تكن النوافذ التي فتحتها مشبكة بالحديد ، ولكن الطابق كان مرتفعاً جداً والقفز منه معناه الموت الذريع .

فنزلت الدرج الكبير الذي قدمها والدها من أعلاه منذ اثنتي عشرة سنة ، الى التبلاء المجتمعين في الجهو الكبير وقطعت الدهليز ونزلت الى الطابق الأرضي .

وعندئذٍ اطمأنت على ما تربيده فوراً ، فإن الأبواب في ذلك

الطابق كانت مقفلة جيداً ولم تكن المفاتيح فيها كما هي الحال في الأبواب الأخرى .

فذهبت الى النوافذ فرأتها كلها مشبكة بالحديد وكانت قد وصلت عندئذٍ الى قاعة صغيرة فرأت على طول الجدران المزينة بلوحات تمثل مشاهد صيد ، مقاعد جلدية عالية الظهر وطاولات مكسوة بالجلد هي أيضاً . وكان لتلك القاعة بابان ونافذة مشبكة بالحديد ، فوقفت أمام النافذة وفكرت قائلة في نفسها :

« عندما كنت هنا لم تكن النوافذ مشبكة بالحديد ، فإنهم قد شبكوها بعد ذلك إذن ، ولكن لماذا شبكوها ؟ »

وأعدت ذلك السؤال على نفسها بصوت مرتفع تقريباً ، وعندئذٍ سمعت وراءها صوتاً غريباً يقول :

- إنهم شبكوها لأجلك .

وكان المفروض أن تحدث تلك الكلمات التي قيلت فجأة خوفاً شديداً في نفس الفتاة ، ولكن ما حصل كان العكس تماماً فإن ريون دور قد سرّت كثيراً لسماعها أخيراً صوت إنسان في ذلك السكون الموحش ، فاستدارت بسرعة لترى الشخص الذي تكلم ... فذهلت ذهولاً شديداً لأنها لم ترَ أحداً في القاعة .

وفي تلك اللحظة عاد الصوت نفسه يقول :

- لقد شبكوها لأجلك فإنك لن تخرجي حية من هنا .

فصرخت ريون دور هذه المرة صرخة هائلة وانطلقت تركض بكل قواها وقد كاد الرعب يقضي عليها .

ولكنها لم تذهب بعيداً فما كادت تقطع قاعتين أو ثلاثاً على

على تلك الحالة حتى سقطت مغيباً عليها .

وفي تلك اللحظة ظهر النذل الحقير غاسبار بنياكل ولم يكن يضع قناعه المهود ، فبدا وجهه مخيفاً هائلاً وقد اقترب من الفتاة وهو يقول : ألعنّ الرعب قد قتلها ؟

وأراد أن يجعلها الى سريرها حيث يقدم لها الإسعافات اللازمة ويعيدها الى رشدها ، ولكنه فكر لحظة ثم قال :

- إذا أخذتها الى غرفتها وقدمت لها الإسعافات اللازمة فسوف تعتقد عندما تعود الى رشدها أنها كانت تحت تأثير حلم مرعب .

فتركها على الحضيض وأضاف قائلاً : سوى تعود الى رشدها بعد قليل فلنتركها حيث هي لترى هكذا أنها لم تكن تحلم .

وأردف يقول بقسوة : إن هذا الدرس لن يضيع ! وأراهن على أنها لن تقترب بعد الآن من الجناح الذي خصصت به نفسي ، فإني لا أريد أن تأتي الى هنا لترعجني ، وكذلك الى مركز المراقبة الذي اخترته على السطح !

وعاد على أعقابيه بكل هدوء الى الغرفة التي خرج منها وكان متأكداً من أن ريون دور لن تضع قدميها في تلك الناحية فلم يزعج نفسه بدفع المزلاج أو إقفال الباب ، وكان في ذلك الباب ثقب وُضع فيه ما يشبه البوق وهو الذي سمعت الفتاة الصوت من خلاله ، فنزع بنياكل ذلك البوق وسدّ الثقب بمجمون كان قد أعدّه سلفاً ثم اجتاز غرفتين ودخل الى تالته وكانت مطبخاً صغيراً مجهزاً بجميع معدّات الطبخ ، وكان على طاولة كبيرة

لحوم وبقول ، وكانت النار مشتعلة ، فشمّر بنياكل عن ساعديه ووضع على وسطه مثزراً جديداً عقده وراء ظهره ثم بدأ يمارس مهنة الطبخ بمهارة طبّاخ قدير .

في مونكاويه أيضاً

*

عادت ريون دور الى رشدها فاعتقدت في بادئ الأمر أنها تفتيق من حلم مزعج . ولكن الذاكرة عادت إليها بسرعة فارتجفت وُخّيل لها أنها لا تزال تسمع الصوت الذي أربعها . فنهضت وابتعدت بأسرع ما تستطيع عن تلك الجة من القصر التي بدت لها مسكونة بالأشباح إذ أن الخوف الذي لا يزال يشلّ قواها كان يحسّم الأشياء فيشوش تفكيرها .

وعادت بالغريزة الى الغرفة التي استيقظت فيها من النوم فدفعت المزلاج وانطرحت على السرير حيث لبثت فترة طويلة لا تستطيع التفكير .

وعاد الاطمئنان الى نفسها شيئاً فشيئاً فقررت أن لا تعود الى تلك الجهة من القصر حيث سمعت الصوت الرهيب ، وكان هذا ما يريده بنياكل .

ومضت الساعات دون أن تشعر ، وكانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما أحسّت بالجوع فنهضت وخرجت من الغرفة وعاودت البحث عن الطعام وإذا بها تقول فجأة :

- يا لي من حمقاء ! فإذا كان يوجد طعام وشراب في القصر فيجب أن أبحث في المطبخ دون سواه .

وفكرت هنيهة وأضافت تقول :

- إن المطبخ تحت ، في الجهة المقابلة التي سمعت فيها الصوت ، وأنا أتذكر خزانة الطعام الكبيرة حيث تحفظ المؤن وهي موضوعة على بين الباب للداخل .

وقد قالت ذلك بصوت مرتفع فلبثت لحظة مدهوشة ثم

أعدت آلياً قولها :

- أنا أتذكر !... أنا أتذكر !... إذن فيكون هنا بيتي

حقاً وأكون أنا في الواقع الأميرة رولاند دي مونكاييه !

ونزلت الى الطابق الأرضي فوجدت المطبخ في الناحية التي حددتها وكان الباب يُفتح الى الداخل فوقفت على العتبة ومررت بيدهما على جبينها وقالت : إن لم يكونوا قد غيروا ترتيب المطبخ فإن الخزانة الكبيرة يجب أن تكون خلف هذا الباب .

وقررت الدخول ، وسرعان ما صاحت تقول بفرح :

- الخزانة !... الخزانة الكبيرة ! إنها هنا ! المفاتيح !...

ها هي أكل شيء في مكانه ...

ولبثت برهة ساهرة جامدة أمام الخزانة الكبيرة وكانت تتأملها بتأثر عميق . وفجأة فتمتحت في ذاكرتها خلية جديدة فقالت :

- هنا في هذا الدرج الى اليسار يجب أن يوجد حرف « ر »

كنت قد سحفرته بسكين . « ر » يعني رولاند ... أي أنه درجتي أنا !

ومدت يداً مرتجفة نحو الدرج وفتحتة وكان حرف « الراء » موجوداً في المكان الذي حددته ، فغمغمت تقول بغبطة :

- إنها الحقيقة !... إنها الحقيقة !... هذا هو بيتي !... بقي

حيث ولدت وعاش أجدادي وماتت والدتي !... إنه هنا ، هنا . وأنا ، أنا هي الأميرة رولاند دي مونكاييه !

وعادت تتابع أبحاثها ولكنها لم تكن تبعت عن الذكريات

هذه المرة بل عن الطعام والشراب . بيد أنها لم تجد شيئاً وكان

الجوع والعطش ، اللذان نسيتهما لحظة ، قد استبدئا بها الآن استبداداً طاعياً وخاصة العطش فإنه كان يعذبها عذاباً شديداً .

وكما أن الجوع قد نبه ذاكرتها الى الخزانة الكبيرة والمطبخ ،

فإن العطش فتح بدوره خلية جديدة أيضاً في ذاكرتها فوقفت

أمام باب صغير وأطبقت عينها وفكرت لحظة وقالت ساهرة :

- يوجد رواق خلف هذا الباب ، وفي منتصف ذلك الرواق

الى اليسار درج يؤدي الى الأقبية ، وفي نهاية الرواق باب آخر

يفتح على فناء صغير حيث توجد بئر ماء كنت أحبباً دائماً أن

أدور حولها ... وفي كل مرة كانوا يرونني قربها كنت أعاقب .

فلترت إذا كنت مصيبة .

وفتمتحت عينها فرأت الأماكن كما وصفتها تماماً . ولكن

الباب الذي في نهاية الرواق كان مقفلاً ، فأرادت أن تتأكد مما

إذا كان يوجد حقاً وراءه فناء صغير وبئر ، ولما كان في أعلى

ذلك الباب نافذة صغيرة مشبكة بالحديد فإنها سحبت طاولة

وألصقتها بالباب ثم أتت بقعد وضعت فوق الطاولة واستطاعت

هكذا أن تبلغ النافذة الصغيرة ، فاستنتجت بفرح كبير أنها لم تكن غمطئة إذ أن الفناء كان موجوداً حقاً وكذلك البئر .

ولكن تلك الاكتشافات كلها لم تعطها ، لسوء الحظ ، ما تأكله أو تشربه . فتركت المطبخ وعادت تتابع التنقيش في أماكن أخرى ، فكانت تدخل جميع القاعات وتفتش جميع الخزائن ولكن جهودها ذهبت أدراج الرياح .

وبعد أن حطمتها التعب عادت تأخذ طريق الغرفة التي استيقظت فيها ، والتي قرّرت أن تجعلها غرفتها الخاصة ، وقد عنّت لها في الطريق لأول مرة فكرة ارتجفت لها وقالت بصوت مرتفع :

— أترام يريدون أن يدعوني أموت جوعاً وعطشاً؟ ... إن هذا فظيع ! ...

وكانت تجرّ رجلها جراً ، فإن الجوع والعطش كانا قد حطّما قواها وكانت تأمل في سرعة الوصول إلى غرفتها حيث يمكنها أن تمتدّد وربما تنفّس . وكان عليها أن تجتاز أيضاً ثلاث غرف لتبلغ غرفتها ، وقد دخلت إحدى تلك الغرف فلبثت مسمّرة في مكانها دهشة وسروراً لأنها وجدت فيها مائدة حوت كل ما لذّ وطاب من المأكّل والشرب .

فلم تلمس الطعام فوراً بل فكرت قائلة في نفسها :
« إن هذه الطاولة لم تكن موجودة هنا منذ قليل ، وإذن فيوجد شخص هنا معي . شخص لا أراه ولكنه يراني هو وربما يتبعني خطوة خطوة . »

وهزّت رأسها الجليل وألقت إلى ما حولها نظرة شكّ فلم تكتشف ما يرعب ، فأخذت قطعة من اللحم وأدتها من أنفها فانبعثت منها رائحة شبيهة تغري أكثر الناس زهداً بالأكل ، فلمستها بطرف إصبعها كأنما كانت تخشى أن تختفي ... ولكنها لم تختف ... كما أن ريون دور لم تكن حاملة ، فوضعت الصحن أمامها وأخذت قطعة من الخبز فكسرتها وكانت بدورها خبزاً حقيقياً لم يتختر من بين أصابعها ...

ولكنها مع ذلك لم ترفع إلى فمها لاقطعة اللحم ولا قطعة الخبز بل قالت في نفسها : « من يدري ، فربما يكون هذا الطعام مسمّماً ! »

وقد أقعدما الخوف عن الأكل ، ولكن الجوع والعطش اشتدّا بها لدى رؤية الطعام والشراب فلم تعد تستطيع المقاومة ، فانقضّت على الفاكهة وأكلت منها جزءاً كبيراً ، ثم تشجعت فأكلت قطعة كبيرة من الخبز وشربت قدحين من الماء .

ونهضت وقد عادت إليها قواها لتذهب إلى غرفتها . وفي الطريق عنّت لها فكرة رأتها صواباً فعادت على أعقابها وأخذت وعاء الماء وبعض الثمار وما تبقى من الخبز وحملتها معها إلى غرفتها حيث دفعت المزلاج وتمدّدت في سريرها ونامت .

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي عجبت عجباً شديداً لأنها لا تزال حية ولا تحسّ أدنى انزعاج صحي ، فأسفت عندئذ على أنها لم تأكل أكثر مما أكلت ، لا سيما وأنها كانت تجهل تماماً إذا كانوا سيحضرون لها لتأكل بعد الآن . ولكنها لحسن

الحظ كانت قد احتاطت للأمر وأحضرت معها ماءً وخبزاً وثماراً، وكان من الطبيعي أن تعان فوراً ما أحضرته فالتفت نحو الطاولة الصغيرة التي وضعت عليها ما جاءت به ، فلم تر شيئاً فإن الماء والخبز والثمار لم تكن موجودة .

فقفزت فوراً من سريرها ونظرت في بادية الأمر الى ما حولها لتتأكد من أنها لم تخطئ ، وأنها لم تضع تلك الثمن على طاولة أخرى ، ولكنها لم تر شيئاً . فذهبت الى الباب قرأت المزلاج لا يزال مدفوعاً كما تركته .

ولم تعتد بالخوارق والأشباح هذه المرة بل فكرت في وجود منفذ سرّي يؤدي الى الغرفة ، فبدأت تبحث عنه بصبر طيلة ساعتين . ولما لم تجد فائدة من جهودها كفتت عن البحث وخرجت من الغرفة وأخذت تطوف من جديد علتها تجرد في بعض الغرف طاولة كالتى رأتها البارحة . وكانت عازمة هذه المرة على أن تأكل وتشرب فوق ما تستطيع ، ولكنها مع الأسف لم تجد شيئاً .

وعندئذ أخذت تدخل الغرف على أمل أن تجد فيها ما يوقظ ذاكرتها أكثر . وقد صح ما توقعته إذ أنها ما كادت تدخل إحدى الغرف حتى قالت بصوت مرتفع :
- هذه كانت قاعة والذي الخاصة .

ولم تكن مخطئة ، فإن تلك القاعة كانت حقاً قاعة الأمير دي مونكاييه الخاصة التي كان يقضي فيها معظم أوقاته . ولحمت عينها خزانة قرب جدار القاعة فتعلقتا بها ولم تعودا

تتحولان عنها وقالت في نفسها بسرور :

« لقد وجدتها ! ... وأنا أعلم الآن ! ... » .

ولم تنس أن أحدهم دخل غرفتها أثناء رقادها وأنه من الممكن أن يكون يراقبها الآن من حيث لا تراه ، فذهبت الى جميع الأبواب وفتحتها فجأة ثم سارت في الأروقة المختلفة التي تؤدي الى القاعة وأخذت جميع الاحتياطات لتتأكد من أن أحداً لا يراقبها . ولما تأكدت أخيراً من أنها وحدها عادت الى تلك الخزانة .

وكانت تحفة رائعة من تحف النجارة وقد حفر عليها من البدائع ما يدهش النظر . فأخذت ريون دور تتأملها عن كثب ولم تكن تكتفي بالنظر بل كانت تلمس بلطف الأزهار والثمار وباقي المشاهد المحفورة فيها . ولبثت على تلك الحالة وقتاً طويلاً قد يكون ثلاث ساعات ... ولكنها عندما خرجت من القاعة كانت راضية مغتبطة إذ أنها لمجدت دون شك في تمزيق جزء كبير من الغشاوة المسدولة على ذاكرتها وكانت تفكر وتأمل في أن تتمكن من تمزيق تلك الغشاوة كلها في وقت قريب .

وقدم مرّ ذلك اليوم الثاني على وجودها في مونكاييه دون أن تشعر به لأنها كها في الأبحاث . ومن المرجح أنه لو فتح لها بنيانك في تلك اللحظة أبواب القصر لتخرج لَمَّا غادرت القصر قبل أن تعود الذاكرة إليها تماماً . وكان اهتمامها ذاك خيراً لها بمجد ذاته إذ أنه أنساها الظروف الحرجة التي كانت فيها .

ولكنها لم تكن تنسى تماماً تلك الظروف ، فإن الجوع والعطش كانا يتكفلان بتذكيرها بها ، وعندئذ كانت تعود الى

البحث عن المائدة الصغيرة التي رأتها البارحة . وكانت تذهب في معظم الأحيان الى الغرفة التي وجدتها فيها، ولكن ذلك لم يكن يمنعها عن التفتيش في أماكن أخرى .

وكان النهار قد انصرم وحل المساء عندما وجدت في ناحية من القصر بعيدة جداً عن المكان الذي وجدت فيه المائدة ، طاولة صغيرة ليس عليها مع الأسف سوى إناء مملوء الى نصفه بالماء وقطعة صغيرة من الخبز .

فهمت أن الشخص الذي يخدمها يريد أن يجعلها تعلم أنه لن يقدم لها أكثر من قطعة خبز وكأس ماء ما دامت قد اكتفت بذلك يوم أمس . ولكنها لم تبال بعد أن تأكدت من أنهم لن يدعوا تموت جوعاً وعطشاً ، فأخذت قطعة الخبز والتهمتها بقابلية كبيرة ، وشربت وراها قد حين من الماء ، ثم توجهت نحو غرفتها وهي تفكر بأنها لن تقاوم طويلاً فيما إذا لبثت لا تأكل سوى تلك الوجبة الهزيلة عن يوم كامل . ولكنها كانت تقول في نفسها بثقة واقتناع :

« أنا متأكدة من أن السيد دي راکستان سوف يعثر عليّ ... وسأبدأ منذ الغد بمراقبة قدومه من أعلى النوافذ إذ أنه لن يتأخر عن الهجاء ليرود في جوار القصر بحثاً عني . إنه الوحيد الذي يستطيع أن ينقذني ، وأنا واثقة به ، وسأتبعه الى حيث يريد لأنه سبق له ان أنقذني في ظروف مماثلة ودافع بإخلاص عن شرفي ضد أعدائي الذين يريدون موتي وتلويت اسمي ... آه يا فارسي النبيل ! تعال وأنقذني ! أتوسل إليك أن تفعل !

وليقنعك الحب الطاهر الذي أكتنه لك بأن خدماتك وإخلاصك
وشجاعتك ستنال يوماً مكافأتها في اجتماعنا الأبدي الذي لا تنفصم
عراه ! »

تم الجزء الأول من هذه القصة

ويليه الجزء الثاني والأخير وهو بعنوان

« جوملين »